الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون- تيارت –
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية و آدابها

الموضـــــوع:

دلالة الألفاظ اللغوية والفقهية في أهمّ مؤلفات الإمام النووي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في اللغة العربية وآدابها

الطالـــب: إشـــراف:
محمـــد رابحـــي الأستاذ الدكتور عبد القادر شاكر

أعضـــاء لجنـــة المناقشـــة

أ.د بن جامعة الطيب	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت	رئيســا
أ.د شاكر عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت	مشرفا ومقرّرا
د.بن جلول مختار	أستاذ محـــاضر "أ"	جامعة ابن خلدون تيارت	منـــاقشـــا
د.بن عسلة عبد القادر	أستاذ محـــاضر "أ"	المركز الجامعي غليزان	منـــاقشـــا
د.رزايقية محمود	أستاذ محـــاضر "أ"	المركز الجامعي تيسمسيلت	منـــاقشـــا
د.قاســـم قـــادة	أستاذ محـــاضر "أ"	المركز الجامعي تيسمسيلت	منـــاقشـــا

السنة الجامعية: 1438-1439هـ/ 2017-2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

رواه الشيخان البخاري ومسلم وهو متفق على صحته

شكر وتقدير

قال تعالى:

ويقول عليه الصلاة والسلام ((من لا يشكر الناس لا يشكر الله))رواه أحمد و الترميذي

نشكر الله عزّ وجلّ أنْ وفّقنا إلى إتمام هذا العمل، كما نتقدم بالشكر الخالص إلى كلّ من ضحى من أجل إعداده، وساهم في إنجازه.

أذكر من الذين ضحوا ببعض وقتهم وراحتهم من أجل أن يبلغ هذا الكتاب أجله:
أستاذنا المشرف الدكتور شاكر عبد القادر و الأستاذ الدكتور الطيب بن جامعة
و الأستاذ الدكتور عبد القادر زروقي و الأستاذ الدكتور عابد بوهادي
و الأستاذ الدكتور رشيد بن يمينة
و الدكتور عيسى حميداني.

جازاهم الله خيرا على ما قدموا من نصائح و ملاحظات كان لها أبلغ الأثر بعون الله في شحذ الإرادة لإتمام هذا البحث المتواضع

إهـــــــــــداء

أهـــدي هذا الجهد المتواضع إلى عائلتيّ: الكبيرة والصغيرة

و إلى جميع

أساتذتي بكلية الآداب و اللغات عامة وبمعهد اللغة والـــــأدب العربي

خاصة بجامعة

ابن خلدون- تيارت

محمد

قائمة الرموز و المختصرات المستعملة في البحث

- إشر: إشراف.
- تحق: تحقيق.
- ج: جزء.
- د.ت: بدون تاريخ.
- د.د.ن: دون دار نشر.
- رق: رقم.
- س: سنة.
- سل: سلسلة.
- شر: شرح
- ص: صفحة.
- ص.ص: من صفحة كذا إلى صفحة كذا.
- م: مجلد.
- مر: مرجع.
- مص: مصدر.
- مخ: مخطوط.
- ط: رقم الطبعة.
- ع: عدد.
- "...." : لتحديد نص منقول
- [..] : نزع عبارة من نص منقول أي حذفها
- [إضافة] : إضافة عبارة إلى نص منقول
- -... - : جملة اعتراضية، أو تواريخ ميلاد.
- (...) عناوين كتب مذكورة في متن البحث.
- ﴿نص ﴾: لتمييز آيات قرآن كريم.
- {...} توثيق الآيات في المتن
- ((حدث شريف)): حديث شريف
- '...': لتمييز عبارات خاصة.
- ... : إلى آخره.

مقدمـــة

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمد ونستعينه ونستغفره، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا. من يهد الله فهو المهتدي ومن يُضلل فلن تجد له وليّا مرشدا، و أصلي و أسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد و على آله وصحبه و من والاه، و بعد:

فإن الإمام النووي علم بارز و شخصية فاعلة ضاربة بجذورها في عمق الثقافة الإسلامية، كما أنها فاعلة بتراثها ومؤلفاتها في العصور السالفة و في عصرنا الحاضر. و قد عرف الناس عنه تبحّره في علوم الشريعة الإسلامية، و خاصة علوم السنة و الحديث النبوي، و كذلك كونه رأسا في المذهب الشافعي. فهو مُنقحه و مُهذّبه و مُجدّده.

ولقد بدا لنا من خلال تعاملنا مع العديد من كتبه إشكالية أساسية جديرة بالدراسة وهي: ما موقع جهود الإمام النووي اللغوية و الدلالية بين التراث الدلالي للمفسرين و الأصوليين من جهة، و التراث الدلالي للمتكلمين و الفلاسفة العرب من جهة أخرى، باعتباره يمثّل أهل الحديث و الأثر بقوة في هذا الصراع الثقافي؟ و هذا وجه الإشكالية الأول. أما وجهها المقابل، فمرتبط بعصرنا الحاضر و يتمثل في السؤال التالي: ما قيمة جهوده الدلالية على معطيات علم الدلالة الحديث ونظرياته؟

و للإجابة عن الإشكالية بوجهيها المتقابلين، حاولنا إماطة اللثام عن مجهوده اللغوي الدلالي الذي لم يتطرق له أحد من قبلنا فيما نعلم، إلا أنه قد تبين لنا أن هناك رسائل قدمت في تراثه اللغوي النحوي ببعض الجامعات العربية كجامعة الموصل بالعراق نبهنا عليها بعض الأساتذة بعد أن اطلع عليها في مواقع الأنترنت في آخر لحظات من اتمام البحث، وخاصة في ميدان علم الدلالة العربي. والعلّة في ذلك، كثرة مؤلفاته في ميدان الفقه الشافعي وشهرته في ميدان الحديث النبوي ومصطلحه. فقد غطى ذلك على جهوده اللغوية فلم يلتفت إليه أحد، على الرغم من أن له فيها مؤلفات معتبرة مطبوعة حجماً و مادّة كمعجمه الكبير (تهذيب الأسماء و اللغات) في مجلدين، وككتابه (الإشارات إلى معاني الأسماء المبهمات...الخ). و يضاف إلى ذاك كلّه المادة اللغوية التي

أنتجها كشروح مفصلة لمتون ضخمة تتعلق بأحاديث السنة النبوية و الفقه الشافعي كشرحه الشهير على صحيح مسلم و المسمى (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) وكتابيه الآخريّن اللذيّن هما حجة في الفقه الشافعي لحدّ الآن؛ وهما كتاب(المجموع. شرح المهذب للشيرازي)، و هو أشبه بموسوعة فقهية مقارنة لمختلف آراء المذاهب الفقهية، وكتاب (روضة الطالبين) في الفقه الشافعي بأجزائه الأربعة الضخمة.

و لقد لفت انتباهنا اهتمامه بدلالة الألفاظ سواء كانت فقهية اصطلاحية أم لغوية بحتة، حيث خصّص لها بعض المؤلفات ككتابه (تحرير ألفاظ التنبيه) و كتابه (دقائق المنهاج). هذا عدا تعليقاته اللغوية على كتب أخرى شهيرة له و كثيرة التداول كالذيل أو الملحق بالتعبير البحثي الحديث، والذي وضعه لشرح الألفاظ و المصطلحات القرآنية المهمة في آخر كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن)، و كذلك الألفاظ التي كان يعلّق عليها بعد إفرادها من متن الحديث النبوي ويضعها حاشيةً محاذيةَ لمتن الحديث كما في كتابه الذّائع الصيت (رياض الصالحين).

لقد تبين لنا من خلال الاطلاع على هذه الكتب أنها جديرة بالدراسة والبحث خاصة في جانبها المنسيّ من طرف الباحثين وهو جانب دلالة الألفاظ في تراثه اللغوي والفقهي من خلال محاولتنا تناول جوانبها اللغوية و الفقهية جميعها ، مفردة كانت أم مركّبة في نصوصٍ و متونٍ كتبها، وذا معالجة مادتها الأولية في معاجمه المصنّفة، أو مندرجة في التراكيب والسياقات باعتبارها تمثّل شروحا لمؤلفات حَدِيثِيَّة أو فقهية. يضاف إلى ذلك كلّه ما أنتجَهُ هو من نصوص بأسلوبه الذاتيّ كما في كتابه في الرقائق والتصوف وكتاب (بستان العارفين)، وكذا تعليقاته على كتاب (الأذكار).

فضمن هذه المعطيات كلّها، كان عنوان هذا البحث موسوما بـــــ" دلالة الألفاظ اللغوية ولفقهية في أهم مؤلفات الإمام النووي". وهي أشهر وأهم الكتب التي سبق ذكر عناوينها. ود جعلها هذا البحث مصادر رئيسية ومادة أولية للثروة اللغوية التي يحاول أن يعالجها.

أما عن الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع، فبعضها ذاتيّ و بعضها موضوعيّ.أما الأسباب الذاتية، فهو التعلق الشديد بشخصيته بوصفه عالما ربّانيا و زاهدا روحانيا تجلت معالم

الإخلاص لله في كتبه وسيرته لنا بعد إدماننا على مطالعتها في ظروف خاصه، و بخاصّةً كتابيه (بستان العرفين) و(رياض الصالحين). وعن الأسباب الموضوعية، فتتمثّل في محفّزات ثلاثة أولها اهتمامنا بعلوم الحديث النبوي ومصطلحه ممّا شجعنا على محاولة الولوج إلى شروحه المتبحرة وتأليفاته في علوم الحديث، روايةً ودرايةَ، تنظيراً و تطبيقاً، وبذل الجهد الضروري لاستخراج الكنوز اللغوية التي تنطوي عليها. وثاني المحفزات هو غياب دراسة عامة أو دراسة أكاديمية متخصصة في جهوده اللغوية فيما مكننا البحث من الاطلاع عليه بعد سنوات من التنقيب، رغم أن شيخه إمام النحاة العلامة محمد بن مالك الأندلسي، صاحب الألفية في النحو، أغرى الطلبة بمدارسة كتبه وحفظها في القرن السابع الهجري عندما قال قولته الشهيرة معلّقا على أحد كتبه:" لو استقبلت من أمري ما استدبرت لحفظته. لقد حاول هذا البحث المتواضع أن يدلي بدلوه في هذا الميدان البكر من شخصيته لعله يستطيع أن يأتي بجديد فيه إن شاء الله.

وأما ثالث الأسباب، فهو استفزازيّ لا تحفيزيّ، إذ لفت انتباهنا خلال البحث أن معظم الدراسات الدلالية العربية الحديثة، و التي تناولت التراث الدلالي العربي، ركّزت على جهود الأصوليين والمفسرين و المتكلمين بوضوح لكثرة إنتاجهم في ميدان علم الدلالة، و ذلك بحكم طبيعة العلوم التي تخصّصوا فيها كعلم أصول الفقه والتفسير وعلم الكلام. فَلِلعَقْل البشري هنا، جولة و صولة يظهر أثرها، و لهذا ركّزت الدراسات الحديثة على أعلام بارزين كالإمام الشافعي و أبي حامد الغزالي و فخر الدين الرازي و سيف الدين الآمدي و غيرهم.

والذي يراجع محتويات أشهر كتابين يتم تداولهما للبحث و المسابقة في مطلع هذا القرن، يتضح له ذلك جيدا، وهما كتاب (علم الدلالة العربي بين النظرية و التطبيق) للأستاذ فايز الداية، وكتاب (علم الدلالة العربي. أصوله و مباحثه في التراث العربي) للأستاذ عبد الجليل منقور. وبالتالي، فإن إهمال علماء الأثر و الحديث النبوي وكذلك الفقهاء، وعدم إلقاء الضوء على جهودهم في ميدان الدلالة بسبب النظرة السائدة حولهم إجحافا، من أنهم حفظة متون وحواشي لا إبداع لهم، وأنهم مجرّد نقلة لا رأي لهم في ميدان الدلالة؛ كل ذلك دفعنا للمشاركة المتواضعة من

أجل تحديد موقعهم من هذا العلم وتبيين جهودهم فيه كما طرحنا في الإشكالية، وذلك من خلال دراسة مجهودات أبرز حفّاظهم وهو الإمام النووي.

وللإجابة على أبعاد هذه الإشكالية، تضمنت خطة بناء هذا البحث كالآتي إلى بابين كبيرين يحتوي كلّ منهما ويشتمل على أربعة فصول، لتحقيق التوازن بين معطيات البحث. وقد خصصت الباب الأول للمرتكزات والمنطلقات القاعدية التي تنطلق منها دراسة الألفاظ مفردة ومركبة عند الإمام النووي. وهي أربع مرتكزات وزعناها على أربعة فصول:

أ-منطلقات تاريخية واجتماعية و ثقافية ضمّ بعضها الفصل الأول بعنوان:" الإمام النووي، السيرة العلمية و خصائص العصر"، و ضمّ بعضَها الفصلُ الثاني بعنوان "المنابع المعرفية للعالَم الدلالي عند الأمام النووي"، و هي عامّة و خاصة.

ب- منطلقات لغوية لسانية بحتة، وقد ضمّها الفصل الثالث بعنوان " الدلالة الصوتية والصرفية، أصول نظرية ونماذج تطبيقية" باعتبار أن الأصوات الملفوظة وصورها في الحروف المكتوبة ككلمات هي الوحدات البنائية الأولى في تكوين أصول الألفاظ الأمهات في مادتها الأولية. كما أن الصيغ الصرفية هي الحروف المتولدة من تلك المواد الأولية الحاملة لمعاني القوالب المصبوبة فيها؛ ولذا، ضممنا أصل نشأة اللفظ وأحوال تولّده تصريفا إلى الباب المتعلّق بنشأة وحياة وسيرة الشخصية المُنتِجة لهذه الألفاظ والدارِسة لها، رابطا ذلك في الفصل الرابع بأهم النظريات الدلالية المعاصرة باعتبار أن علم الدلالة (Sémantique) علم حديث النشأة في الغرب الأوربي و إن تداوله العرب قديما كمبادئ في ثنايا معارفهم، و كذلك فعلت فيما يخص النظريات القرائية الحديثة في مبحث مستقلّ.

وبهذه المحاولة بنفخ روح العصر في التراث المنسي للإمام النووي، قام بحول الله منتفضا، فاتحا كنوزه التي جلّينا لآلئها في الباب الثاني الذي كان بعنوان " المستويات الدلالية للألفاظ المفردة المركبة في أهم مؤلفات النووي" و ضمّ فصولا أربعة كذلك. فكان الفصل الأول دارسا لمستويات التحليل الدلالي في بنية اللفظ المفرد في مباحث معجمية اشتقاقية مع تطبيقات عملية من نصوص

المؤلف. وخُصّص الفصل الثاني لمناهجه في دراسة الألفاظ مع استخراج الخصائص وتصنيف المصطلحات سواء كانت لغويةــ أو فقهية أصولية. وكانت الفصلان الأخيريْن الثالث والرابع، مخصّصين لدراسة التراكيب بجملها وعباراتها، حيث كان الفصل الثالث لدراسة دراسة التراكيب النحوية والفصل الرابع لدراسة دلالة التراكيب البلاغية، ومنهج الإمام النووي في دراسة كلّ منهما.

وللإشارة، فقد استعملنا مجموعة من الرموز والمختصرات في حاشية هذا البحث لتسهيل توثيق المصادر والمراجع التي استعملناها في الاقتباسات والإحالات، ولضبط الهوامش وتفادي التكرار والإطالة.

أما فيما يخص المناهج التي استخدمتها كآليات بحث لمعالجة الإشكالية واستخراج الجهود الدلالية، فقد اعتمدنا على ثلاثة مناهج لغوية بما يناسب مستويات البحث الدلالي من الإفراد إلى التركيب.

أ- المنهج الوصفي: فعلى مستوى الوحدات الصوتيةــ ثم المفردات المعجمية بخصائصها الصرفية والاشتقاقية، لجأنا إلى استخدام المنهج الوصفي القائم على معالجة العيّنات اللسانية في بنيتيها السطحية و العميقة بعد تفكيكها و استخراج المعاني الدلالية منها.

ب- المنهج التاريخي: أما خارج الإطار المعجمي للألفاظ المفردة، ونقصد بذلك دراسة التراكيب والجمل ومتون الأحاديث فقد لجأنا إلى المنهج التاريخي الذي هو أقرب لمنهج المحدثين في ضبط الأسانيد والروايات وتنقيح الأخبار وتمحيص المتون كما في علم المصطلح وعلم الجرح والتعديل. وقد طبقنا هذا المنهج على مصدرين رئيسيين في البحث أولهما يتعلق بدراسة الألفاظ المفردة، وهو (معجم تهذيب الأسماء واللغات)، وثانيهما يتعلق بدراسة التراكيب والمتون وهو (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج).

ج- المنهج التقابلي: أما المنهج التقابلي، فقد استخدمناه في الفصلين الخاصين بدراسة موقع الجهود

الدلالية للإمام النووي على ضوء النظريات الدلالية والقرائية الحديثة، حيث قمنا بالموازنة بين نصوصه في مصادر تأليفه، وبين النصوص التي تلخص أفكار هذه النظريات كما صاغها كبار المنظرين اللسانيين الغربيين والعرب. وقد لجأ الإمام النووي نفسه إلى استخدام هذه المنهج لدراسة الفروق اللغوية والدلالية للألفاظ بين كتابه (المنهاج) و أصله عند شيخه الرافعي.

أما الصعوبات التي اعترضت تحقيق فصول هذا البحث، فأغلبها يتعلق بندرة الدراسات الأكاديمية حول الجهود العلمية واللغوية للنووي خاصة، و ذلك في ما برّز فيه و أبدع في ميدان الحديث والفقه. فكيف بالميدان اللغوي الذي جعلناه ميدان هذا البحث، ما عدا رسالة الماجستير التي أنجزها الأستاذ عبد العزيز قاسم الحدّاد وهي بعنوان (الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه)، والتي قدمها لجامعة أن القرى بمكة المكرمة سنة 1989، بالإضافة إلى مقالات متفرقة أخرى حول جهوده التربوية و الروحية في ميدان التصوف.

ومن الصعوبات التي واجهت هذا البحث بعد جمع المصادر و مادة البحث الأولية طريقة التأليف عند القدامى، و التي يرجع بعضها إلى أسباب تاريخية و أخرى تخصّصية، حيث تسود اللغو الفقهية بكثافة مع مصطلحات معقّدة و محذوفة الأسانيد أو السياقات أو الأدلة في تركيز شديد، حيث كان الاختصار هو طابع هذا العصر من أجل تسهيل حفظ الفقه وجمع فروعه، مما اضطرنا إلى الرجوع إلى قواميس وكتب مصطلح الحديث لفك ألفاظ التراكيب ومُبهماتها. وكذا ضبط مصطلحات الحديث. وقد استفدنا في ذلك من كتابين أحدهما اعتمد عليه النووي كثيرا في مباحثه اللغوية و الأخر أُلّف بعده في شرح كتابه (التقريب) وهما (معجم مقاييس اللغة) لأحمد بن فارس وكتاب (تدريب الراوي في شرح تقريب النووي) للإمام السيوطي. ويضاف لذلك كلّه قلة الوقت وعسر التنقل لظروف خاصة.

وأخيرا، فإننا نتقدم بالشكر الفاض، الأستاذ الدكتور عبد القادر شاكر الذي أشرف على هذا البحث و رافقه منذ بدايته الجنينية إلى أن استوى على عوده. كما أقدر فيه صبره الكبير على تحمل تبعات إنجاز هذا البحث بسبب التقصير الناتج عن صعوبة ظروف العمل. كما أخصّه بثناء

خاص لتنبيهاته الملحّة عليّ من أجل الإكثار من التطبيقات النموذجية على مختلف مستويات التحليل الدلالي في الألفاظ المفردة والركبة، والتي بها يبرز جهد الباحث في الاجتهاد و معاناة البحث والخروج من التنظيرات المعقدة. فجازاه الله على ذلك خير الجزاء، و لا نزكي على الله أحدا.

كما لا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدّم نصحا أو إعانة، مادية أو معنوية، من أجل أن يستوي هذا البحث على عوده، والذي يمثل جهل المُقلّ بالنسبة إليّ، لجدّته التامة في موضوعه وندرة مراجعه وصعوبة اجتياز شعابه المعقدة. كما أخصّ بالشكر المشرفين على مكتبة الجامعة وأستاذة المجلس العلمي واللجنة العلمية للكلية، وخاصة الأستاذة الذين وقع بين أيديهم هذا البحث وهم بصدد مناقشته، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

تيهرت في: 12 فبراير 2018 ،

الموافق لـــــ27 جمادى الأولى1439.

البـــاب الأول

أصول الدلالة عند الإمام النووي من خلال سيرته و ملامح الحياة في عصره

- الفصل الأول : الإمام النووي، السيرة العلمية وخصائص العصر.
- الفصل الثاني: المنابع المعرفية للعالم الدلالي عند الإمام النووي.
- الفصل الثالث: الدلالة الصوتية والصرفية (أصول نظرية ونماذج تطبيقية).
- الفصل الرابع: دلالة الألفاظ في ضوء النظريات الدلالية والقرائية الحديثة.

الفصل الأول

الإمام النووي، السيرة العلمية وخصائص العصر

- المبحث الأول :نظرة إجمالية لحياته الشخصية والعلمية
- المبحث الثاني :العوامل المؤثرة في شخصيته
- المبحث الثالث : خصائص عصـــره

الفصل الأول
الإمام النووي، السيرة العلمية وخصائص العصر

المبحث الأول: نظرة إجمالية لحياته الشخصية والعلمية:

توطئة:

كان ميلاد ونشأة الإمام النووي رحمة الله في أواخر العصر الأيوبي الزاخر بالأمجاد السياسية والعسكرية التي أسسها أمراء العصر السلجوقي إبتداء من **عماد الدين زنكي** الذي قامت علي يده هذه الدولة ثم ابنه **نور الدين زنكي**، السلطانين الصالحين الذين صدا هجمات الصليبين على ثغور الخلافة وحاولا بجد، إصلاح ما فسد من خلافة العباسيين- وكل ذلك كان قبل حلول سنة 656 هـ / ق13 ميلادي الكارثية التي دخل فيها المغول دار الخلافة ببغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله- واستمر هذا الازدهار والنمو مع البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي محرّر المسجد الأقصى المبارك ثم مجيء الملك العادل سيف الدين – 589هـ/ 615هـ- والذي تلاه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل الذي حكم البلاد من 626 هـ إلى غاية 635ه.

في هذه العشرية الحاسمة التي تميزت بفراغ السلطة في العالم الإسلامي، بعد إزالة الخلافة من طرف المغول، والضغط القوي الذي مارسه الصليبيون على سواحل الشام وبيت المقدس خاصة كان مولد الإمام النووي رحمه الله تعالى.

مولـــده:

ولد الإمام النووي في شهر محرم سنة 631هـ ، واتفق المترجمون لسيرته على وصفه بالشيخ الفقيه والإمام الضابط العالم والورع الزاهر فهو: يحي بن شرف الدين بن حزام النووي، أبو زكريا الملقب بمحي الدين رحمه الله، والنووي نسبة إلى بلدة "نوى" وهي قرية بمنطقة "حوران" في سوريا حديثا أو بلاد الشام قديما، والتي تسمى الآن بمحافظة "درعا" حيث تبعد عن

مدينة دمشق بحوالي 150 كلم جنوبا، وتمثل سهلا ممتدا يتصل بهضبة الجولان السورية التي تحتلها العصابات الصهيونية الآن، ويتصل كذلك بالمناطق السّهبية شبه الصحراوية بحدود الأردن انطلاقا من مدينة الرمثة الحدودية ،كل هذا الفضاء كان تسكنه قبائل عربية بدوية مرتحلة حتى أن الشاعر الجاهلي الشهير امرؤ القيس خلدها في شعره عند مروره بها في طريقه إلى الاستعانة بملك الروم على قتلة والده ملك **كندة** فقال في بيت شهير:

فَلَمَّا بَدَتْ حَوْرَانُ والآلُ دُونَهَا نَظَرْتَ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ مَنْظَرَا[1]

وقد نشأ بين أبوين صالحين حيث كان لوالده دكّانة صغيرة يشتغل فيها بالتجارة لتحصيل قوت عياله ويذكر الرواة عنه أنه كان متواضعا محافظا على الصلوات .

وحين بلغ الإمام النووي العاشرة من عمره دفعه والده إلى الكتّاب لحفظ كتاب الله تعالي مع إدماجه في حانوته ليساعده على تنشيط تجارته بعد أن أصبح غلاما حدورة أي نشيطا كثير الحركة.

ولكنه كان يهمل البيع والشراء كما نقل من رآه غير مرة ليّكب على دفاتره ولوحه تدبرا وتلاوة لكتاب الله، وفي كثير من المرات كان أقرانه من الصبيان يثيرونه بصراخهم ليذهبوا بعيدا في ضواحي بلدة نوى يلعبون ويلهون، بل كانوا يكرهونه أحيانا بالجر والضغط فيتملص منهم عنوة، ويعود للاشتغال بمصحفه ولوحه فلفت ذلك انتباه الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي، وكان مارا بتلك الديار آنذاك على عادة العباد والصالحين في السياحة في الأرض فلفت نظره ذلك، وقد أقام في نوى أسابيع .

ولما دلوه على والده في الدكان،-وكان قد تفرس في الغلام اليافع يحي بن شرف الدين- نصح والده ملحا عليه أن يعتني بابنه وأن يرسله إذا قارب الحلم أي البلوغ ليتفرغ لطلب العلم الشرعي بعد أن تنبأ له ببصيرة الصالحين بأنه سيكون له مستقبل عظيم في حياة الأمة مستقبلا

[1]- ينظر: ديوان امرئ القيس. رواية الأصمعي من نسخة الأعلم. تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. 1984.ص:61.

فاستجاب والده لهذه النصيحة، وعندما بلغ من العمر تسع عشرة سنة انتقل به والده إلى البقاع المقدسة، لأداء فريضة الحج، حيث مكث شهرا هناك أدى فيها المناسك، وخالط العلماء والصالحين وعقد نيته أمام بيت الله الحرام موليا شطره إليه كما قرر ذلك شيخه الشافعي في مقدمة (الرسالة)، وبعد عودته إلى بلاد الشام قدم به أبوه إلى دمشق لاستكمال العلم الشرعي وسجله في مدرسة دار الحديث بالسكرية، قرب الجامع الأموي وأسكنه المدرسة الرواحية الملاصقة للمسجد الأموي شرقا. وهناك فتح الله عليه الفتح المبين وصب الله عليه العلم صبا، فهما وتحصيلا، ومثابرة واجتهادا، ولله في خلقه شؤون[1].

وكانت دمشق في عصر الأيوبيين، وخاصة في عصر صلاح الدين كثيرة المدارس الفقهية واللغوية، والتي قصد بها هذا المصلح العظيم وهذا البطل المخلص والزعيم المحارب، إحياء علوم الشريعة حيث بنى العشرات من هذه المدارس مع محلات الإقامة للطلبة لإحياء منهج أهل السنة والجماعة، بعد أن طمره الشيعة الفاطميون خلال حكمهم لمصر والشام لأكثر من قرنين، حيث منعوا تدريس أي مذهب فقهي سني غير مذهب الإماميّة الإثني عشرية الشيعي والمعروف عندهم بمذهب آل البيت[2].

وهكذا نشأت عشرات المدارس تدرس لمن شاء من مختلف المذاهب السنية، فظهرت المدارس الشافعية بجوار المالكية، والحنفية، وغيرهما.

ففي هذا الجو من الحرية الفكرية التي تساعد على تفتح الشخصية -دون قمع- وتشكّل ملكة المقارنة والاستنباط والترجيح، تفتحت شخصية الإمام النووي العلمية، زيادة على ما كان أنشأه ملوك السلاجقة والأيوبيين للنهوض بالعالم الإسلامي من كبوته والإعداد لمحاربة الصليبيين بنشر عقيدة الجهاد وتشجيع العلماء على التأليف فيها.

---

[1] - ينظر: تحفة الطالبين في ترجمة شيخنا الإمام النووي محي الدين . الإمام الحافظ السخاوي ، دار الهدي. الجزائر. 1999 . ص.ص: 10-12.

[2] - في التاريخ الأيوبي والمملوكي . أحمد مختار العبادي ، منشورات مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية.1992 ، ص: 45 وما بعدها.

فقد كانوا قد بنوا إلى جانب كل مدرسة بـــ "مارستانا" أي عيادة طبية زيادة على التكايا والخلوات للزهاد[1] والخانات لعابري السبيل والمسافرين، مما نشطت به الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ظلّ العدل والأمن السائدين.

وفي ظل هذا الجو، وفي الفترة الذهبية من شبابه ؛انطلق ينهل من العلوم بشغف، لغوية وحديثية وقرآنية وفقهية، وحتى العلوم الطبية. ذلك أنه كما يقول في مقدمة (المجموع) مُتحسّرا على أهم عِلْمين ضمرا طلبهما في عصره كثيرا، مشجعا على الحرص على طلبهما وهما : الطب والعربية حيث قال : "ويجب على عامة المسلمين الاهتمام بهما"[2].

وقد نقل مترجمو سيرته كتلميذيه ابن العطار والسيوطي، في كتابيهما المطبوعين؛ أنه اشتغل لفترة بممارسته الطب لوحده عاكفا على (كتاب الطب) لابن سينا المسمى (القانون)؛ إلا أن تعقيداته الفلسفية والكلامية بلبلت فطرته الصافية الروحانية التي صقلها القرآن والسنة فتوقف عن دراسته وتركه، وتفرع إلى العلوم الشرعية، حيث كان لا يضيع ساعة ولا دقيقة من عمره دون علم أو تعليم أو نصح للناس.

وقد بقي نحو السنتين في بدء حياته العلمية، لا يضع جنبه على الأرض ويكتفي بشيء من القوت اليسير حتى حفظ كتاب (التنبيه) وهو عمدة في الفقه الشافعي في نحو أربعة أشهر ونصف، وحفظ ربع العبادات من (المهذّب) للشيرازي. وهو الكتاب الذي شرحه بعد ذلك في كتابه (المجموع) في باقي السنة حتى أعجب به شيخُه فعينه مُعيدا لدرسه في حلقته.

[1] - في التاريخ الأيوبي والمملوكي.أحمد مختار العبادي، مصدر سابق، ص:70.

[2]. محمد بن صالح العثيمين. شرح مقدمة المجموع للإمام النووي، دار ابن الجوزي. القاهرة. 2004، ص: 74

- مصادر تحصيله العلمي:

واستغلالا للوقت بشكل عبقري عجيب، لم يكن كعادة أقرانه يطلب العلم بطريقة مرحلية انتقالية من شيخ إلى شيخ ومن سنة إلى سنة ومن إجازة لإجازة بل كان يحصّل العلوم جملة لقوة حافظته التي لفتت الجميع وهمته العالية في طلب العلم حيث كان يقرأ في اليوم الواحد اثنا عشر درسا على العلماء في مختلف الفنون، فيدرس من الصبيحة إلى المساء درسا في التوحيد وأصول الدين كما سماها ثم درسا في علم الحديث (المصطلح) ثم درسا في علم الرجال (الجرح والتعديل) مع تطبيقات على كل ذلك كما هو الحال في الدروس الموجهة للطلبة في الجامعة بعد المحاضرات حاليا وذلك من خلال حلقة الجمع بين صحيحي مسلم والبخاري رواية وإسنادا ودراية وفقها.

يضاف إلى كل ذلك بناء قاعدته في اللغة العربية بشكل متين، من خلال أخذه درسا في التصريف وتطبيقات صوتية عليه لتحصيل الفصاحة في كتاب (إصلاح المنطق) لابن السِكّيت ودروسا في الفقه المقارن والشافعي خصوصا من خلال كتابي (التنبيه والمحرر)، ودروسا في النحو من كتاب (اللمع) لابن جني، و(ألفية ابن مالك الأندلسي).

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في شخصيته:

وهي نوعان:

- النوع الأول: ومنها عوامل عادية وهي ثمانية:

1- رحلته في طلب العلم من بلدته إلى الشام (دمشق) مع تفرغه وغربته حيث شحذ ذلك إرادته

2- حلوله بالمدرسة الرواحية وانتفاعه بمشايخها ومكتباتها نهارا .

3- اجتهاده في الطلب، بصدق وإخلاصا فقد طلب العلم لوجه الله لا يريد شهرة ولا مكانة

4- كثرة مرويّاته وسماعاته خاصة في علم الحديث رواية ودراية

5- خدمته لمشايخه وتحصيله لبركاتهم وملازمته لهم مما دفعهم إلى العناية به وتفضيله على كثير من الطلبة.

6- توفر الكتب لديه،

7- اشتغاله بالتدريس حيث يعيد على الطلبة الصغار ما هضم من مشايخه مع المناقشة والأسئلة والاستدراك مما رسّخ ملكته العلمية والفقهية،

8- إقامته بالمدرسة الرواحية والانتفاع بمخطوطاتها في الفهم بالتوسّع ليلا بالسهر في استدراك المسائل التي درسها نهارا والتبحر فيها؛ كل ذلك مع الحفظ والضبط والتدوين في كراريسه

- النوع الثاني: عوامل، استثنائية وهي أربعة

1- زهده

2- ورعه

3- تقواه

4- تواضعه

حتى أنه لم يكن للدنيا إليه سبيلا، ولم يتزوج قط في حياته التي بلغت خمسا وأربعين أو ستًّا وأربعين سنة فقط[1].

ومن أهم تلامذته الذين تأثروا بشخصيته العلمية، وخاصة التربوية والروحية، كونه صار علما في الزهد والورع حتى سمي بقطب الأولياء في عصره. من هؤلاء علاء الدين بن العطار الذي ألف كتابا في ترجمة حياة شيخه وسيرته للأجيال سماه (تحفة الطالبين في ترجمة شيخنا الإمام النووي محي الدين).

وكذلك ابن إمام الكاملية الذي ألف كتابا آخر في سيرة هذا الإمام الرباني الذي ترك بصمته واضحة في الثقافة الإسلامية في القرن السابع الهجري، وهو كتاب (بغية الراوي في ترجمة الإمام النووي)، وإن كانا هذان التلميذان قد تأثرا به في الميدان الفقهي- وبخاصة فقه الشافعية الذي هذّبه ورتّبه وبوّبه وغربله، حتى صار رأسا في المذهب- ، فإن تلميذه الإمام الحافظ السخاوي قد تأثر به في جانب الحديث النبوي، روايةً ودرايةً، من خلال ملازمته له، وألف كتابا عنه بعنوان (المنهل العذب الروّي في ترجمة قطب الأولياء النووي)[2]. وصولا إلى الحافظ جلال الدين السيوطي- توفي 911 هـ- الذي جاء متأخرا ولم يعاصره، وكان مجددا في القرن التاسع والعاشر الهجريين لا يشق له غبار في العلم، إلا أنه تأثر كثيرا بالإمام النووي وارتبط به عبر كتابين الأول شرحا وهو (تدريب الراوي في شرح تقريب النووي) في علم مصطلح الحديث .

والكتاب الثاني ترجمة لحياته وهو كتاب (المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي)[3].

[1] - أثر الإمام النووي في علم الحديث، للأستاذ عبد العزيز الحداد، منشورات جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، رسالة ماجستير مقدمة في علم الحديث، كلية الحديث النبوي، ط 9.1989

[2]- المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي : الحافظ السخاوي ، ط دار الهدي ، الجزائر. 1999 .

[3]- المنهاج السويّ في ترجمة الإمام النووي. جلال الدين السيوطي. تح: أحمد شفيق دمج. دار ابن حزم. بيروت. 1988.

- مؤلفاتـــــه:

كان الإمام النووي وعاءا من أوعية العلم غزير الإنتاج بارك الله له في وقته وهمته بسبب زهده في الدنيا زواجا وأكلا ولباسا وتنعما وسياحة حيث كان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد العشاء ومعظم طعامه وقوته، التين الجاف والكعك اليابس الذي يجلب له أبوه عند زيارته له من دمشق، بل حتى في المال كان لا يأخذ أجرا في تدريسه في المدرسة الرواحية وتفرغ تماما إلى العلم الشرعي وله في ذلك التصانيف النافعة والمفيدة في الحديث النبوي وعلومه، والفقه المقارن، والشافعي خصوصا.

ومن أشهر كتبه التي سار بها الركبان على الإطلاق كتاب (رياض الصالحين) و(شرح صحيح مسلم) و(الأذكار) و(المجموع) و(المنهاج) و(التحقيق) وذلك شرحًا للمتون الفقهية وقد يلجأ إلى اختصار بعض المؤلفات ككتابه " مختصر أسد الغابة" في معرفة الصحابة وزادت كتبه على الخمسين حيث طبع منها العشرات وقد تحسّر على أنه كان يمحو بالماء المئات من كراريسه التي كان يراجع فيها ويعلق .

وهذه قائمة بأهم مؤلفاته مرتبة على حسب علاقتها بموضوع البحث : اللغوية فالفقهية ..

1- تهذيب الأسماء واللغات (مطبوع) في مجلدين كبيرين،
2- الإشارات إلى معاني الأسماء المبهمات (مخطوط مصور إلكترونيا)،
3- دقائق المنهاج (مطبوع)،
4- تحرير ألفاظ التنبيه(مطبوع)،
5- روضة الطالبين (مطبوع)،
6- رياض الصالحين،
7- المنهاج في شرح صحيح مسلم ابن الحجاج،
8- الأصول والضوابط،
9- بستان العارفين،

10- التصوف،

11- الأذكار،

12- المجموع (شرح المهذب)[1]،

وغيرها كثير وكلها مطبوعة بحمد الله.

وقد كان منهج البحث عنده في تحصيل العلوم جعلُ مراجعاته ومدارساته للمتون تأليفا وجعل تأليفه تحصيلا، وطلبا في علاقة جدلية ثقافية عجيبة ربحا للوقت والعمر .

ومعظم هذه المؤلفات المهمة اعتمدنا عليها في دراسة دلالة الألفاظ عنده مفردة ومركبة .

و زيادة على شخصيته العليمة هذه، فإن له صولات وجولات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،كوقوفه أمام الأمير المملوكي الظاهر بيبرس الذي أطلق العنان لمماليكه المتصارعين على المال والعقار والضيعات في تشديدهم على العامة من الفقراء، وتحصيلهم للضرائب عنوة بدعوى تمويل تكاليف الجهاد ضد الصلبيين ،حيث وقف أمامه شامخا كالطود، آمرا إياه بتقوى الله ورفع يده عن أموال العامة وحدائقهم وأخذ ما تحصل من غلاّت بغير حق، رغم تهديد الملك له بالسجن فلم يأبه بذلك .و مواقف أخرى لا يتسع المجال لذكرها في مقارعة العلماء المنحرفين أو الزهاد الانتهازيين، وحتى عندما دعا داعي الجهاد، وحمي الوطيس بعد إعلان النفير للخروج لملاقاة المغول وهم على أبواب دمشق في معركة عين جالوت الشهيرة، قام رحمه الله مشمرا وللنداء ملبيا فكان بحق عالما عاملا مخلصا .و يجد ذلك كل من يتصفح أي كتاب من كتبه، أو أي تعليق له على أي كتاب[2].

[1]- ينظر: الأصول والضوابط. الإمام النووي . تحق: حسن هيتو، مرجع سابق. ص.ص: 14 -15 -16 حيث ذكر كل مؤلفات الإمام النووي مع تصنيفها.

[2] - التبيان في أدب حملة القرآن. النووي. تحق:عبد العزيز السيروان. دار النفائس ، بيروت ، لبنان. 2009 ،ص 5-12.

- زهده وورعـــه:

وضُرب به المثل في ذلك فكان من العلماء العزاب، والزهاد الورعين بالغ الزهد عظيم الورع حتى أنه أعرض عن الأكل من فواكه دمشق المشهورة رغم أنها صارت أوقافا مباحة للجميع فيما يعرف الآن بغوطة دمشق على سفح جبل قاسيون شرقا وغربا؛ وذلك لأنه اعتبرها أوقافا محجورة شرعا استلبت من أصحابها من طرف جنود الممالك أثناء صراعهم على المال والعقار بعد أن فتح الله عليهم أبواب السلطة والحكم.

وفاتـــه:

وقد أجمع من نرجم له ممّن عاصره، أو من المحدثين، على أن وفاته كانت في 24 من شهر رجب سنة -676ه- عن عمر يناهز خمسا وأربعين سنة[1]، لقي ربه رحمه الله. وقبل ذلك بأيام وكأنه أحس بقرب وفاته فقام قبلها بأيام بإرجاع الكتب المستعارة من مدرسة دار الحديث. وودع طلبته ومشايخه، ثم ارتحل بعدها إلى نوى وتوغل عبر بادية الأردن إلى القدس حيث زار مسرى رسول الله صل الله عليه وسلم ثم عاد من نوى مع والده لتخرج روحه إلى بارئها حيث ضجت بلاد الشام كلها وحاضرتها دمشق لوفاته ورثاه عشرات العلماء تأبينا وشعرا مخلدا وعلى رأسهم تلميذه تاج الدين السبكي. وقبره معروف في نوى يُزار زيادة على ما ترك من المؤلفات والآثار رحمة الله رحمة واسعة وأعاد علينا من بركاته.

المبحث الثالث :خصائص عصره

المطلب الأول: الحياة الاجتماعية في عصر الأمام النووي:

كان المجتمع في مصر والشام في ذلك العصر، يموج بأجناس كثيرة ومختلفة في العادات والتقاليد والأخلاق وكذلك في فهم الحياة حيث امتزجت شعوب كثيرة بعضها ببعض، في ظل الحرب وفي ظل السلام من عرب و ترك وأكراد وفرس وزنج وكانت كل هذه الأجناس تعبر

[1]- عبد العزيز السيروان. ترجمة المؤلف. التبيان في أدب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق، ص: 11.

عن عالمية الرسالة الإسلامية، وكان لهذا المزج أثره في خلق حالة نفسية وفكرية لم يَعْهَدْهَا العالم الإسلامي من قبل.

وقد التقت كل هذه الأعراق في ببلاد الشام متمركزة في حاضرته دمشق، حيث عاش الإمام النووي، مهاجرة بدينها أو بجلدها بعد خراب عاصمة الخلافة من طرف المغول، أي بغداد، سنة 656ه .

حتى أنّ التتار والفرنجة استقروا وذابوا في هذا المجتمع بعد تقبلهم للثقافة الإسلامية التي صاغت هويتهم من جديد، وإن كان بعضهم قد احتفظ بدينه كأهل الذمّة مثل الفرنجة والأرمن واليهود، حيث عاش هؤلاء على اختلاف عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، في وئام وصار يصعب التفريق بين طبائعهم في ظل الاضطرابات الداخلية ذات الطابع السياسي بين أمراء وملوك الأيوبيين، ثم المماليك بعدهم.

لقد تكوّن منهم مجتمع متردد متفسخ لا يعرف الاستقرار، بل هو قائم على تداولات الفوضى والاضطراب والدسائس، وأدى كل ذلك إلى الانحياز الهويّاتي الذي ينقسم المجتمع بسببه إلى طبقات ومراتب تعلوا بعضها على بعض، بالإضافة إلى تفشي الاسترقاق والعبودية التي شاعت في ذلك العصر حتى غدا الأسير مع عائلته يُباع ويُشترى[1].

و يمكن تلخيص خصائص الحياة الاجتماعية في هذا العصر فيما يلي:

1 – بروز الترف المعيشي الملفت للنظر عند طبقة الحكام والجند من مماليك الأتراك ومن جاء بعدهم،

2 – الانقسامات السياسية بين الحكام وخلخلتها للنسيج الاجتماعي،

3 – الانحرافات الفكرية وظهور الطوائف الدينية الضالة والفرق الكلامية المشتغلة بالفلسفة والمنطق والتي زادت من بلبلة الأمة،

[1]- ينظر: مبحث السلاجقة ، البربر، المماليك . الإسلام وحركة التاريخ. أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني. 1980 ، ص- 100 و ما بعدها. وينظر: المدخل إلى التاريخ الإسلامي. عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت ،2005 ، ص 221.

وكان لكل ذلك دور كبير في ظهور التمييز الطائفي بسبب هيمنة المماليك الأتراك على الحياة السياسية والاجتماعية، حيث كثرت الاعتداءات على الأنفس والأعراض من طرف المماليك بعدهم وخاصة بعد استيلائهم على السلطة في مصر و كثير من مناطق الشام[1]. ودولة بني أيوب على وشك الزوال.

وقد استفاد المماليك في هذا العصر من تراكمات الخبرة الحضارية في الدول السابقة عليهم أي السلاجقة والأيوبيين مما كان له دور حاسم في التنظيم والتركيب المحكم لهياكل السلطة الحاكمة التي أحكمت قبضتها على الناس.

وقد تمكنت النزعة الشعوبية في مصر والشام خاصة منذ حكم المعتصم العباسي كخليفة وتفضيله للولاة الأتراك في مصر الطولونية على العرب.[2] مما أدي إلى ثورات شعبية للبدو العرب على السلطة.

المطلب الثاني: الحياة الاقتصادية

تميز المماليك الأتراك السلاجقة بترسيخهم لتقاليد الإقطاعيات الكبرى كأجر بدل النقد لجنودهم الحافظين لسلطتهم، وذلك بعد أن امتد نفوذهم في العراق منذ المعتصم إلى أواخر المستنصر بالله وورّثوا هذه التقاليد الإقطاعية لمن جاء بعدهم كالأيوبيين ثم المماليك في دولتهم في مصرو الشام.

وقد مر معنا في ترجمة الإمام النووي أنه كان يرى أن هذا النظام جائر يخلق طبقتين إحداها غنية تمثل قلة في يدها الثروة والجاه والسلطان، وعامة من الناس تعيش على الكفاف فحارب ذلك أيما محاربة سواء في فتاواه الفقهية أو في مناصحته للحكام، وخاصة الممالك البرجيّة والبحرية في عصر الظاهر بيبرس الذي عاصره في أواخر حياته.

[1] - ينظر: ، محمد مختار العبادي: مرجع سابق، ص: 81 .

[2] - ينظر: التاريخ الأيوبي والمملوكي . محمد مختار العبادي،: مرجع سابق ص: 26.

وإلى جانب هذا الأثر السلبي للإقطاع العسكري على الحياة الاقتصادية ،إلا أنه كان له جانب إيجابي يتمثل في ضمان عمارة الأرض المقتطعة وزيادة قوة الدولة من خلال بناء الدور والقصور والحمامات والخانات والتّكايا والمدارس من خلال الاستعانة بمماليك الرق للخدمة داخل القصور وتهيئتهم للجندية والدفاع عن أمن الدولة ضد كل الغزاة.

ونرى، هنا، كيف تشابك الجانب العسكري مع الجانب الاقتصادي. فالحماية العسكرية للأتابكة السلاجقة، ثم ملوك بني أيوب للمماليك، يقابله منح القلاع والمدن والولايات والإلزام بتعميرها بالخانات والدروب.

وفي الأخير لم تكن الحياة الاقتصادية مزدهرة بسبب عدم الاستقرار السياسي لملوك بني أيوب والمماليك في مصر والشام، حيث كان هناك إنهاك للقوى العاملة كالفلاحين وغيرهم وخاصة العرب منهم بالضرائب والتلاعب بأسعار المنتوجات دون ربح صافي لأصحابها.[1].

المطلب الثالث: الحياة السياسية في عصر الإمام النووي:

كان ميلاد الإمام النووي بإقليم حوران جنوب دمشق في حكم السلطان الكامل محمد الأيوبي ابن الملك العادل -615 -635ه / 1218- 1238م-. وكان ميلاده مصاحبا لاستمرار الغزو الصليبي لمصر عاصمة الأيوبيين، أما السواحل الشامية ،ماعدا القدس، فكانت محتلة من طرفهم، فكان هذا العامل العسكري والسياسي ضاغطا على الملوك الأيوبيين حيث لم يتفاهموا في كيفية مواجهة هذه المؤامرات الأجنبية والتحرشات الصليبية.

ولذا تفشى جرثوم المؤامرات في البيت الأيوبي داخليا كما في محاولة الفائز. وهو لقب أحد ملوكهم الانقلاب على الكامل. وأثر ذلك كثيرا على مواجهة الصليبيين الذين استغلوا هذه الثغرات لتحطيم عاصمة الأيوبيين القاهرة بدخولهم إلى دمياط إحدى مدن مصر بالقرب من النيل

[1]- ينظر: الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري. قاسم عبدة قاسم وعلي السيد على. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة.1995. ، بيروت. ص.: 4-6.

ثم توغلهم حتى تخوم القاهرة؛ وبمقابل ذلك كان في بلاد الشام إمارات صليبية تمد بما لديها الحملات المتتالية على عاصمة الأيوبيين .

أما قاصمة الظهر، فكانت في هذه الفترة قبل ميلاد الإمام النووي بخمس سنوات -626 هـ/ 1229م -متمثلة في تسليم القدس للصليبيين بلا قتال بعد عقد مصالحة مع السلطان الكامل ودخولهم إليها في ستمائة جنديّ فقط .

ولعل إقدام الملك العادل على هذه الخطوة سببه: الخوف من أن يستغل إخوته المناوئين له فرصة اشتغاله بدفع ضغط الصليبيين للإطاحة بحكمه[1].

وفي ظل هذه الظروف من التآمر والانحطاط السياسي، توغل الصليبيون في ظل هذا الصلح المزيف إلى داخل البيت الأيوبي عبر العلاقات الدبلوماسية.

وزاد إلى هذه المؤامرة الصليبية مهاجمة المغول لعاصمة الخلافة بغداد في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة665هـ وسقوطها في أيدي التتار الذين عاثوا فيها خرابا لم يحدث في التاريخ قبله مثله، كان ذلك وقد بلغ الإمام النووي خمسا وعشرين سنة أثناء إقامته في دمشق طالبا.

ورغم حلول هذه الكارثة فقد تواصل التناحر على الملك داخل البيت الأيوبي، وانتهى بخلع الملك العادل ابن الكامل حيث كان للمماليك دور كبير في ترجيح كفة الانقلاب.

وقد وصف ابن كثير في المجلد الرابع من كتابه (البداية والنهاية)[2]هذه الكوارث كلها فقال: " استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون قد صاروا أحزابا وفرقا[..] إلى أن يصف حلول الكارثة بخراب بغداد وما أحدثه في الأمة من إحباط وانحطاط حيث يقول" وحصل إثر ذلك وهنٌ شديد ورجافٌ عظيم فإنا لله وإنا إليه راجعون"[3].

---

[1] - التاريخ الأيوبي والمملوكي. أحمد مختار العبادي، مرجع سابق. ص 78.

[2] - البداية والنهاية . ابن كثير ، مج:4. دار الغد الجديد. القاهرة ،2006. ص: 230 وما بعدها

[3] - البداية والنهاية . ابن كثير ، المرجع السابق. ص: 230 وما بعدها

وفي العصر المملوكي استمر نفس التنازع على السلطة بين الممالك البحرية والبرجية رغم جهودهم العظيمة في رد هجمة المغول من خلال انتصارهم في موقعة عين جالوت. والجهود التي بذلها الظاهر بيبرس في توحيد الأمة إلى أن تمرد الممالك عليه وطمعهم في سلطانه، زيادة على ظهور التنازع العرقي الذي تحوّل إلى صراع سياسي منذ عصر الأيوبيين بين الأكراد والأتراك أدى إلى تضعضع سلطة الممالك في مصر؛ كل ذلك مع ضعف الخلافة العباسية التي أصبحت شكلية يستخدمها كل طرف لصالحه.

المطلب الرابع: الحياة الثقافية والأدبية والدينية في عصر الإمام النووي

تميز العصران الأيوبي والمملوكي في كلتا مرحلتيه بتشجيع العلم والعلماء وبناء المدارس لإحياء[1] منهج السنة ودراسة الفقه واللغة العربية، وجعْلها محضنا خاصة لتربية أبناء السلاجقة الملوك من طرف الأتابكة المماليك. ونلاحظ كيف تداخل الجانب السياسي مع التربوي الثقافي، كما تداخل في الفصل السابق الجانب العسكري مع الاقتصادي مثلما هي طبيعة الحياة في تشابكها في كل عصر .

وقد ازدهرت دراسة علوم القرآن والحديث النبوي بعد ضمورهما بعد عهد الملك الكامل[2] وخلفه اللذين اهتماما كثيرا بالعلوم الفلكية والفلسفية الممتزجة بالمنطق والشعوذة والتصوف العجمي، مما أدى إلى زيادة تشويه العقيدة، وبلبلة أفئدة العامة.

وقد ألغى كل ذلك ليتم بناء نظام تربوي قاعدي قائم على تعلم القرآن الكريم ورسم الخط وآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأركان.

وقد كان كل ذلك بسبب:

1 – شغف الأيوبيين باللغة العربية والإسلام،

[1]- التاريخ المملوكي والأيوبي، د.محمد مختار العبادي، ص23 إلى 26 وما يعدهما.

[2]- المرجع نفسه، ص26.

2 – تقريبهم للعلماء والكتاب وإكرامهم،

3 – تشجيعهم لآداب المقاومة، شعرا ونثرا وخطابة، للإعداد للحروب الصليبية القائمة هناك.

4 – تشجيع مجالس العلم كما كان الحال مع صلاح الدين الأيوبي الملقّب بالناصر في مساجلاته مع الفقهاء والعلماء لإلمامه بالشريعة.

5 – تكريم أكابر العلماء كما في اتصال البيت الأيوبي المالك بالعلامة الشافعي الموسوعي فخر الدين الرازي.

وقد ورث المماليك بعد الأيوبيين ذلك كله في تدبيرهم الملك خاصة بعد اغتيال المظفر قطز، وبداية ظهور استقرار سياسي وانتصارات مؤزرة للملك بيبرس الذي عاصره الإمام النووي في معظم حياته[1].

- الحياة الدينية في هذا العصر:

كانت الثقافة الإسلامية والقيم الإسلامية هي السائدة في هذا العصر في مصر والشام سلوكا والتزاما. وذلك على الرغم من هيمنة الصلبيين على سواحل الشام ، وعلى الرغم من غارات المغول المتتالية، إذ كانت مرجعية التوجيه للعلماء حتى سمِّوا بالسلاطين كما هو الحال مع سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام الذي قاد ثورة عظيمة ضد المماليك كادت تنتهي بطردهم من الحكم.

ولكن ذلك لا ينفى وجود تنوع مذهبي وطائفي داخل هذا المجتمع تسببت فيه الفرق الكلامية والعرقية كالشيعة والأشاعرة والإسماعيلية الباطنية والمسيحية بطوائفها المختلفة واليهودية، حيث كانوا أهل ذمة يدفعون الجزية للخليفة مع أداءهم لشعائرهم الدينية بحرية وأمان. أما

[1]- التاريخ المملوكي والأيوبي، د.محمد مختار العبادي، ص20 إلى 30 بتصرف.

المسلمون فقد ازدهرت بينهم في هذا العصر المدارس الشرعية التي أحياها الأيوبيين وعلى رأسهم صلاح الدين[1].

وعلى العموم فقد كانت جوانب الحياة الدينية الإسلامية بأبعادها الثقافية الثلاث، موزعة في تباعد مذموم بين طائفة الفقهاء التي تكفلت بالفتوى عبر تقليد المذاهب الأربعة، وطائفة علماء الكلام التي تكفلت بالمنافحة عن العقيدة عر الجدال الحجاجي، وأخيرا، طائفة الزهاد والصوفية التي انعزلت في الخلوات. وبين هؤلاء جميعا يقف علماء الحديث النبوي منافحين عن سنة رسول الله ومواجهة الفتن المحيطة بها كما وقف الإمام النووي رحمه الله.

[1]- ينظر: البداية والنهاية لابن كثير، ص234 وما بعدها ط. دار الغد ، القاهرة، مرجع سابق.

الفصـــل الثـــاني

المنابع المعرفية للعالم الدلالي عند الإمام النووي

- المبحث الأول: المنابع المعرفية العامة (الأصول).
- المبحث الثاني: المنابع المعرفية الخاصة (مصادر الاجتهاد الشرعي).
- المبحث الثالث: المنابع المعرفية الخاصة (غير الشرعية).

الفصل الثاني

المنابع المعرفية للعالم الدلالي عند الإمام النووي

- المبحث الأول : المنابع المعرفية العامة (الأصول)

إن العالم الدلالي للإمام النووي، يعتمد في منابعه المعرفية الإبستيمولوجية على ركنين رئيسيين اثنين هما:

أ – المنبع العقدي الإيماني: كركن قائم على عقيدة التوحيد التي تُرجع كل أمر إلى الله عز وجلّ وهو ما عبر عنه بالقضاء والقدر.[1] كما بدأ به كتابه (الأصول والضوابط).

وهذا المنبع العقدي أصل أبعاده الفقهية والتشريعية والحضارية، الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه (الرسالة) تنظيرا وتأصيلا وفي كتابه الآخر (الأم) تفريعا وتطبيقا على أقضية الفقه الشافعي، سواء بمذهبه القديم بالعراق، أو الجديد في مصر، بل إن كلمة **أم** نفسها تعني المرجعية والأصل الذي تتوالد منه الفروع وتتغذى وتنمو.

ب – المنبع التاريخي الاجتماعي الواقعي: فهو كركن فاصل في صياغة شخصية هذا الإمام- يمثل منطلقه، الحدث الرهيب الذي هز قلب العالم الإسلامي و- الإمام النووي- في ريعان شبابه آنذاك؟. إنه سقوط عاصمة الخلافة بغداد سنة 665هـ، ومقتل الخليفة المستعصم بالله وعائلته وأكابر دولته تحت سنابك خيل التتار.

[1] - الأصول والضوابط. الإمام النووي ، تحق : د محمد حسن هيتو، دار البشائر، بيروت. 1968. ص: 5.

كان الإمام النووي آنذاك في دمشق في حالة الطلب للعلم الشرعي في سن الخامسة والعشرين من عمره، حيث لمس بحواسه، وعقله، وقلبه، الآثار الشاملة الهائلة في مختلف مجالات الحياة، والتي نتجت عن انهيار الخلافة ممثلة مظاهرها فيما يلي:

- سحق الوحدة الإسلامية .
- القضاء على مصادر ومراجع الثقافة الإسلامية بحرق الكتب والمخطوطات. ورميها في نهر دجلة مع قتل العلماء والأدباء وتشتيتهم،
- تدمير العمران ونشر الرذائل،
- هجرة السكان والفلاحين لأراضيهم مما أدى إلى الاضطراب الاقتصادي وعسر العيش[1].

ولا شك أن قاصمة الظهر هذه، أدخلت شخصيته اضطرارا ، فيما خُيل للمسلمين آنذاك كما قال الإمام السيوطي تلميذه ومريده:" إنه خُيّل للناس جميعا في مركز الخلافة وأحوازها، أن العالم على وشك الانحلال، وأن الساعة آتية عن قريب، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله، واتخذوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوّه من خليفة"[2].

إن انهيار الخلافة يعني انهيار القوة الحامية للشريعة النافذة المهيمنة، وهي الشريعة الإسلامية. وانهيار الشريعة، يعني إضاعة وإلغاء أمر الله وقدره الشرعي وقضاءه الحكمي، وهو الوجه الآخر لقضائه وقدره التكويني. ولعلّ الكلمات المفتاحية في نص السيوطي، والتي وضعنا تحتها خط عند الربط بينها، تعبّر عن هذا الاستنتاج الذي جعله الإمام النووي بؤرة محورية أصيلة لعالمه الدلالي، كما سنبرهن على ذلك في الفصول القادمة.

[1] - يراجع ما تم نقله عن الإمام ابن كثير في الباب الأول من هذه الرسالة حول الحياة السياسية في عصر الإمام النووي ص23 وهو يصف آثار هذه الكارثة . ينظر: البداية والنهاية ج .4 ، دار الغد الجديد . القاهرة.2003 .ص :230.

[2] - تاريخ الخلفاء .الإمام السيوطي، دار الكتب العلمية ، بيروت. ص 309.

أما الكلمات المفتاحية التي تفسر ذلك، فهي كما يوضحها هذا المستطيل التحليلي:

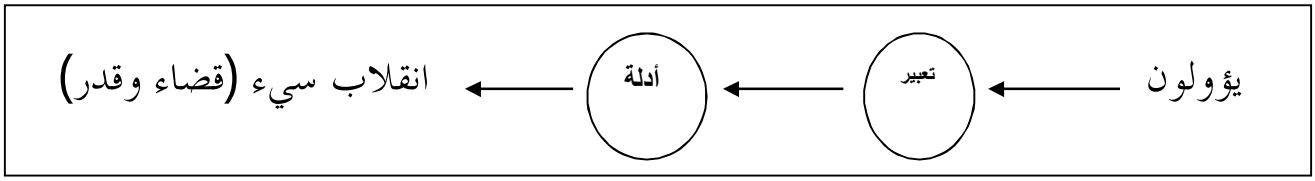

إذن لقد ضمّن الإمام النووي كتابه (الأصول والضوابط) " تسع مسائل تتعلق بأهم ما يحتاج إليه طالب العلوم الشرعية ، من القواعد الفقهية والأصول المهمة " [1]. وقد بدأه بالمسألة الأولى المتعلقة بمذهب أهل السنة والجماعة في القدر، حيث قال فيه: "مذهب أهل الحق، الإيمان بالقدر وإثباته، وأن جميع الكائنات خيرها وشرها بقضاء الله وقدره "[2]، وختمه بمسألة تعارض الأصل والظاهر في سبع وثلاثين صفحة.

وقد يتعجب المطالع للرسالة من مسألة القضاء والقدر في مقدمة الحديث عن الأصول والضوابط الخاصة بالمعاملات.

وسنحاول أن نرسم إطارا عاما يُتبين من خلاله السياق العام لمسائل الكتاب الذي يُعتبر مفتاحا رغم اختصاره الشديد قياسا لبقية مؤلفاته كالتبيان في آداب حملة القران)و (شرح صحيح مسلم)و (الروضة)، و(المنهاج)، و(رياض الصالحين)، و(تهذيب الأسماء واللغات) وغيرها، مع كشف الدلالة المحورية فيه والحقل الدلالي الموحد لمسائله، أي السنة الجارية في الحياة قضاء وقدرا.

لقد أطر الإمام النووي مسائل الكتاب على صغره ابتداءً بإرادة الله وقدره الغيبي من جهة، وختاما بقدر الله الكوني الذي يسميه بسنن الله الجارية في الحياة، والتي عبر عنها بالأصول. وربما يحسب البعض أن الأصل والظاهر مصطلحان لفظيان أصوليان متعلقان بدلالة الألفاظ

[1] - الأصول والضوابط. الإمام النووي ، المقدمة ، مصدر سابق. دار البشائر تحق : د محمد حسن هيتو. ص: 3.
[2] - مصدر سابق. ص: 23.

على معانيها، آي ظاهر النص وأصله المبهم أو الخفي أو غير ذلك، غير أن الحقيقة هي أن المقصود بالأصل هو القاعدة المستمرة المطّردة [1].

إن الإمام النووي يهدف إلى ربط مسائل المعاملات ضمن أصول وضوابط متفق عليها ومعلّلة حكمًا، ومستدلٌّ عليها بياناً، وذلك حتى لا يتحجج أحد بالقضاء والقدر بعد خرق هذه الضوابط وعدم استيفاء شروطها في المعاملات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة كالبيوع والأنكحة.

ولعلّ الإشكال المطروح هو: ما العلاقة إذن بين المسألة الأولى في أول الكتاب وهي مذهب أهل الحقّ في القدر والمسألة الأخيرة في نهايته وهي قضية تعارض الأصل والظاهر ؟

إن تخصيص المؤلف لكتاب صغير مركز لا يتعدى الأربعين صفحة للأصول والضوابط- حيث أن الأصول المعنية هنا معناها الدلالي- أكثر شمولا مما يُتَصوّر؛ فهي ليست إذن أصولَ الفقه المخصوصة التي تُدرس كعلم، بل أصول وسنن الأقدار الربّانية العامة تكوينًا وقضاءً وأوامره سبحانه وتعالي وحيا وتشريعا وحكما مبرما .

و لهذا، عرّفها الإمام النووي في مقدمة كتابه السالف الذكر بقوله: " أما بعد، فهذه قواعد، وضوابط، وأصول مهمات، ومقاصد مطلوبات يحتاج إليها طالب المذهب؛ بل طالب العلوم مطلقا، و لا يستغني عن مثلها من أهل الفقه إلا المقتصرون على الرسوم"[2].

ومما يلفت النظر في هذه المقدمة قوله" يحتاج إليها طالب المذهب، بل طالب العلوم مطلقا " [3] ، أي أن كلّ العلوم مؤسسة على هذه الأصول والقواعد. وهو يقصد بالعلوم الشرعيةَ وغير الشرعيةِ كالعلوم الطبيعية نفسها التي تقوم على قوانين يمكن صياغتها وضبطها بمعادلات رياضية كما هو

[1] - ضبط هذا المعني ودلل عليه المحقق والمعلق محمد حسن هيتو ، الأصول والضوابط. مرجع سابق ، ص: 45.

[2] - الأصول والضوابط. الإمام النووي. تحق: محمد حسن هيتو. دار البشائر الإسلامية. بيروت.1986. ص:21

[3] - المصدر السابق. ص:21.

الحال في عصرنا الحديث، وكما حرص على تعلّمها في مقدمة كتابه (المجموع)كما سيأتي بيان ذلك في أخر هذا المدخل.

ويوضّح الجدول التالي العلاقة بين القواعد والرسوم كما أسماها المؤلف، أو بين الألفاظ والمعاني كما يدرسها علم الدلالة على المستوى الإفرادي والتركيبي:

الأصول والمعاني	الألفاظ والرسوم
- قول الإمام النووي:" وهي قواعد ضوابط - أصول مهمات - مقاصد مطلوبات": يقصد بها مختلف العلوم كالنحو مثلا وكمثال على الشمولية بالأصول المهمات: البنية الأساسية التي يستمد منها علم الأصول والنحو في بناء التراكيب والجمل، وهي معيار يبتغى أن يُنسج على منواله .	- الرسوم المقتصر عليها أشكال الحروف والكتابة الألفاظ المسموعة التي هي (أصل الرسوم المكتوبة) - الألفاظ المفردة والتراكيب التي تمثلها الجمل والعبارات والنصوص الشاملة لمختلف المستويات في التحليل الدلالي .

إن البنية الأساسية ذات الطابع المعياري تكون في الذهن. وهي التي يُعبَر عنها النحاة عند فض التراع النحوي بمصطلحات و"أصله كذا"، و" يُرد إلى كذا"، و "يُحمل على كذا" [1].

أما عند الأصوليين والفقهاء، فقد طرح الإمام الشافعي البنية المرجعية الأساسية في (الرسالة)عبر السؤال المحوري ك:"كيف البيان؟"، ولخّص الإمام الرازي الجواب في كتابه (المحصول)كالآتي: "كان الناس قبل الشافعي يتكلمون في أصول الفقه ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كليّ

[1]- ينظر: بناء الجملة العربية . حماسة عبد اللطيف ، دار غريب ، القاهرة. 2003،ص.ص: 4-5.

مرجوعٌ إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي رحمه الله علم أصول الفقه، ووضع قانونا كليا يرجع إليه في معرفة مراتب أدلّة الشرع"[1].

وفي ذلك يقول الإمام النووي عن شيخه الشافعي في مقدمة كتابه (المجموع) معلّلا لنظرته الدلالية الشاملة المتكاملة من خلال حديثه عن الأصول العامة للبيان، ذاكرا الملابسات الثقافية التي أثرت في صياغته لها: "إنه جاء (أي الإمام الشافعي) بعد أن مهدت الكتب وصنفت ، وقررت الأحكام ونقحت فنظر في مذاهب المتقدمين، وأخذ عن الأئمة المبرزين، وناظر الحذاق المتقنين، فنظر مذاهبهم وسبرها وتحقّقها وخبَرهَا "[2].

وهذه المصطلحات المتكررة منه في هذا الموطن ك" ناظر مرتين، و"نظر ثم سبر" و"تحقّق" تستوعب جموع الفقهاء والمفسرين، وعلماء الكلام المجادلين في العقيدة وغيرها، كما تستوعب النحاة والبلاغيين وأهل الأدب واللغة عامة.

وهذا كله يدل على أن الإمام الشافعي جمع الأشباه والنظائر، وقاس الشاهد على الغائب، فصار بذلك مرجعا موسوعيا لمن جاء بعده.

ويدفعنا التدبّر في محتويات هذا الجدول إلى استخلاص المنابع المعرفية الخاصة 'الفرعية' التي حددها الإمام النووي في مقدمة كتابه "المجموع" كإجابات على ما ذكره الإمام الشافعي في كتابه (الرسالة) من الإشارة إلى المنابع المعرفية العامة عندما طرح السؤال المحوري وهو : 'كيف البيان ؟' في الباب الأول من الرسالة، ثم أجاب عن هذا السؤال في حدّ جامعٍ مانعٍ فقال: "و البيان إسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتفرعة أنها بيان لمن

[1]- طبقات الشافعية. تاج الدين السبكي. المطبعة الحسينية المصرية. القاهرة. د.ت.ص: 26.

[2]- شرح مقدمة المجموع. للإمام النووي. محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي. القاهرة. 2004.ص: 22.

خُوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متفاوتة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشدّ تأكيد بيان من بعض ، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب "[1].

فهو في هذا النص يجعل البيان بما يتضمن من دلالات شاملة لحقائق الوجود كله حسا ومعنى من خلال قوله " البيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول " [2].

والوجود كله كونا وحياة وإنسانا من خلق الله عز وجل لذلك ثنى الشافعي بعد هذا التعريف بقوله: " فجماع ما أبان الله لخلقه –أي هو- في كتابه مما تعبدهم به ، لما مضى من حكمه"[3] أي قضائه الحكمي.

والحكم في هذا النص، هو سابقُ العِلْم عند الله، الذي جرى به القلم قضاءً وقدراً فيما خلق من موجودات ونصب من علامات -كما قال بعد ذلك في الرسالة - حيث وجههم إلى وجهة البيت الحرام بعد الاهتداء بهذه العلامات ليتخذوا الشريعة والوحي وجهةً في الحياة.

وهذا هو قضاءه وحكمه الشرعي ممثلا - بعد انحراف الأديان في خاتمة الرسالات؛ وهي "الإسلام- بمصدريْها الكتاب والسنة. فانطلاقا من ذلك كله تتضح لنا معالم المنابع الدلالية الفرعية عند الإمام النووي رحمه الله.

المبحث الثاني: المنابع المعرفية الخاصة (مصادر الاجتهاد الشرعي):

فما دام البيان كاسم جامع لمعانٍ متحدة الأصول ، متشعبة الفروع ، لا يتجلى إلاّ بالبحث عن حقيقة هذه الأصول ، وتتبّع فروعها في الموجودات الحسية وفي النصوص الشرعية، لذلك، صاغ علماء المسلمين بعد الإمام الشافعي منهجا للبحث عن الحقيقة عبر قاعدة : "إن كنت ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل "، وتفصيل الأمر في ذلك أن موضوع البحث لا يخلو دائما من أن يكون"

[1] - الرسالة. الإمام الشافعي. تحق: العلامة أحمد شاكر، دار العالمية ، 2016. القاهرة، ص: 125.

[2] - الرسالة . الإمام الشافعي . المصدر نفسه ص: 125.

[3] - المصدر نفسه . ص126.

أ - خبرا منقولا،

ب – أو دعوى مزعومة،

فأما ما قد يكون منه خبرا، فإن البحث فيه ينبغي أن يكون محصورا في تحقيق النسبة بينه وبين مصدره، إذ هي التي تكون مثارا للاحتمال والدخيلة والريب ، فإن زال الاحتمال وانجابت الغاشية انبثقت من ذلك الخبر حقيقة علمية معينة بشرط أن تكون ذات دلالة قطعية" [1].

وممّا ذكره الدكتور أحمد مختار عمر عن الحديث النبوي كمصدر لغويّ وكمرجع دلالي ومعيار لتمحيص الأخبار: "ذلك أن النثر -والحديث النبوي أرقى درجاته - لا تحكمه ضرورة من وزن أو قافية، ولأنه يعطي الباحث اللغوي صورة صحيحة لروح عصره، بخلاف الشعر الذي يحتوي على كثير من الصيغ الفنية، والعبارات المتكلفة، والتي تبعده عن تمثيل الحياة العادية وتثنيه عن الروح السائدة في العصر"[2].فهل حقق الإمام النووي، أو بالأحرى، أعطى صورة صحيحة لروح عصره في شروحه اللغوية لكتب السنة النبوية بأبعادها الدلالية وعلى رأسها شرحه لصحيح مسلم في كتابه (المنهاج)؟ وهل ضبط الدلالات الطبعية والوضعية واللفظية والسيميائية التي تمثل الحياة العادية في عصره، بروحها السائدة ؟

أما فيما يتعلق بمقاربته لجهود المعاصرين من علماء الدلالة، فيمكن تلمسها في الملاحظة القيمة التي أوردها الدكتور أحمد مختار عمر وهي أن: " منهج الرواة عند المَحدّثين كما عند علماء اللغة واحد باتفاق بينهما إذ أنهم؛ في حال الرواية لم يُجيزوا الاعتماد على النص المكتوب؛ وإنما استندوا أساسا على المشافهة والتلقي، وهم بذلك لا يختلفون كثيرا عن المنهج الحديث- يقصد

[1] - كبرى اليقينيات الكونية . محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، دمشق ، 1997. ص :12 .

[2] - البحث اللغوي عند العرب. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ط:7 . القاهرة. ، 1997 . ص: 54 وما بعدها.

المنهج اللساني الحديث -، والذي يعتمد على الراوي اللغوي، ويعتمد على الكلام المنطوق دون المكتوب "[1] فيما يُسمى بنظريات التلفظ في لسانيات الخطاب وعلوم النص الحَدَاثية.

ويستخدم الإمام النووي في هذا الأمر علم مصطلح الحديث درايةً وروايةً، وعلم الجرح والتعديل اللذين برع فيهما لتحقيق نسبة الخبر إلى مصدره قرآنا وسنةً باعتبارهما وحيًا منزّلاً ذا مصدر غيبيّ لا سبيل إليه إلا الخبر.

يقول في مقدمة كتابه (المجموع)، في باب أقسام العلم الشرعي العيني : "و أما أصلُ واجبِ الإسلامِ وما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم واعتقاده اعتقادا جازما سليما من كل شك، ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين . هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والمحقّقون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم"[2].

وأما ما يتعلق بالمنابع المعرفية الدلالية غير الخبرية والتي لا يُلجأ فيها إلى تحقيق الأسانيد والأخبار باعتبارها ليست ذات مصدر غيبيّ موحى به، فإنها تدخل في باب الإدعاءات "وأما ما يكون منه إدعاءً، فإن البحث فيه ينبغي أن يتجه إلى الأدلة العلمية المنسجمة معه، والتي من شأنها أن تكشف عن مدى صدق هذا الإدعاء، ولكل نوع من الدعاوى نوعٌ من الأدلة العلمية يناسبها لا يستبدل به غيره

- فالدعاوى المتعلقة بطبائع الأشياء وجوهرها لا تنهض بغير البراهين العلمية التجريبية المحسوسة
- والدعاوى المتعلقة بالمجردات كالأرقام والنفس والمنطق لا ينفع معها إلا البيّنات والحجج المتفق على ضرورة ارتباطها بها "[3].

وهذه الدعاوى يدخلها الإمام النووي في فروض الكفاية ضمن القسم الثاني فيقول: "و هو تحصيل مالا بد منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية ، كحفظ القران والأحاديث وعلومهما، والأصول والفقه والنحو واللغة والتصريف ، ومعرفة رواة الحديث ، والإجماع والخلاف، وأما ما

[1] - المرجع نفسه .د أحمد مختار عمر، ص: 55 وما بعدها. وينظر كذلك: علم الدلالة . د أحمد مختار عمر .الكويت ، 1995 . ص:54.

[2] - شرح مقدمة المجموع للنووي. محمد صالح العثيمين. دار ابن الجوزي. القاهرة. 2004. ص:73.

[3] - كبرى اليقينيات الكونية . محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، دمشق ، 1997. ص 14 .

ليس علما شرعيا (وهو محل الشاهد عندنا هنا) ويُحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب ففرض كفاية أيضا نص عليه الغزالي ، واختلفوا في تعلم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالخياطة والفلاحة ونحوهما. واختلفوا أيضا في أصل فعلها فقال إمام الحرمين والغزالي : ليست فرض كفاية ، وقال آخرون هي فرض كفاية" [1].

ففي هذا النص يسرد الإمام النووي الأدوات العلمية التي يتم بها ضبط المنابع الدلالية الفرعية سوء أكانت لفظية عقلية حيث تُعالج بعلوم اللغة والمنطق والأصول التي سبق ذكرها ، أما إذا كانت منابع تتعلق بالطبع والحسّ، فسبيلها اكتساب دلالاتها بالممارسة والتجربة " إذ لكل نوع من الدعاوى، نوع من الأدلة العلمية يناسبها، لا يُستبدل به غيره .

وهكذا لا تصبح الدعوى حقيقة علمية ثايتة إلا بعد أن يقترن بها دليلها الذي يناسبها .

فالدليل الذي قد يُساق إلى الدعوى، ليست له أي قيمة علمية، ما لم يكن بينهما انسجام في الطبيعة والنوع"[2].

المبحث الثالث: المنابع المعرفية الخاصة (غير الشرعية):

إن كونها غير شرعية أنها لبست من مصادر الشّرع التي أساسها الوحي الربّاني المعصوم كالقرآن الكريم أو السنة النبوية. فهي ليست قطعية الثبوت، ولا قطعية الدلالة. وتتمثل في الكون في عمومه الأعراف الاجتماعية المميزة للشعوب، وأخيرا اللغة بجميع مستوياتها. وهي الناتجة عن تفاعل هذه المجتمعات مع بعضها أو مع ظواهر الكون ، سواء غيبه أم شهوده.

- الكون: وهو الأوسع مجالا كمصدر معرفيّ فطريّ لاستنباط الدلالات. وهو قائم على المعاينة الحسية من خلال النظر والسمع والذوق والملامسة ضمن العالم الحي أو الجامد، حيث تستنبط

[1] - شرح مقدمة المجموع . محمد ابن صالح العثيمين : دار ابن الجوزي ، القاهرة ، 2004 .ص: 74.
[2] - كبري اليقينيات الكونية : مرجع سابق ، ص : 14.

العلامات والرموز من ظواهره الطبيعية، ثم يتم التواضع عليها في المستوى السيميولوجي كدلالات طبعية وضعية، وذلك عند الطبقات الشعبية البدوية الساذجة، ثم تتجمع بعد ذلك عند أولي الألباب عبر التراكم التاريخي لتصير علما كعلم الطب مثلا أو علم الفلك. وبالنسبة لهذا المنبع، يستخدم الإمام النووي رؤياه الشرعية لتأطير العالم الدلالي. فهو مثلا يفرق بين علم الفلك النافع وبين التنجيم والشعبذة كما يسميها، حيث يحرّم تداولها باعتبارها قائمة على التخرّصات الوهمية الموغلة في استطلاع الغيب بلا ضوابط.

بينما يوصي بدراسة الواقع الكوني ضمن الملاحظات المنهجية القائمة على تدبر ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من آيات وسنن هي عبرة للعاقل المتدبر.

وقد كان الاختلاط بين هذين المجالين لا يزال قائما في عصره – القرن السابع الهجري- ، حيث ازدهرت العلوم الفلكية حتى كان ملوك أوربا يتتلمذون على كتب المسلمين وأساتذهم ببلاد الشام[1].

ونراه كذلك يلّح على تعلّم علم الطب، حيث تحسّر كثيرا على تفريط المسلمين في هذا العلم، وتفوّق الأعاجم عليهم فيه كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه (المجموع، شرح المهذب للشيرازي)[2].

وهو يعتبر علم الطب من العلوم غير الشرعية المندوبة، حتى أنه اشتغل هو نفسه في بداية الطلب بدراسة كتاب (القانون في الطب) لابن سينا ثم تركه لغموض مصطلحاته واختلاطه بالتعقيدات الفلسفية التي يمنع الاشتغالَ بها لاختلاطها بوثنية اليونان.

وكان الجاحظ، أحد أساطين البيان واللغة قبله، قد فصّل الحديث عن الدلالات الكونية قائلا في كتابه (الحيوان) ما يلي:" فالأجسام الخُرْصُ الصّامتة، ناطقة من جهة الدلالة ومعربة من جهة صحة

[1] - ينظر: الحياة السياسية والثقافية في عصر الإمام النووي. الفصل الأول من هذا البحث.

[2] - دار بن الجوزي. بيروت. 2004. ص:12. - مقدمة المجموع . الإمام النووي. شرح: الشيخ محمد صالح العثيمين.

الشهادة على أن الذي فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه، كما خبّر الهزال وكسوف اللون، عن سوء الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحسن النّظرة عن حسن الحال"[1].

ويقول الدكتور عبد السلام المسدّي في التعليق على هذا المصدر الدلالي الكوني عند الجاحظ، والذي كان فيه الإمام النووي متابِعا لمن سبقه من علماء أهل السنة والجماعة: "فالنّاظر في هذا الذي أسموه مرّة دلالة نصبة، ومرة دلالة الاعتبار، ومرة ثالثة دلالة الأشياء بذواتها، لم يكن مجرّد تنبيه إلى العلامة كيف تدلّ، وإنما كان تصورا فكريا كاملا يقوم على دفع الإنسان إلى إمعان النظر وتحريضه على تدبر الوجود انطلاقا من وقائعه الظاهرة"[2].

ويبدو أن الذهاب في ما وراء اللغو بحثا عن الخلفيات المعرفية هو مراد الإمام النووي عندما صدّر كتابه الموجز(الأصول والضوابط) بمسألة "مذهب أهل السنة والجماعة في القدر"، حيث قال فيه:" مذهب أهل الحق الإيمان بالقدر وإثباته وأن جميع الكائنات، خيرها وشرها، بقضاء الله"[3].

- اللغة: سبق الحديث في الفصل الأول من الباب الأول المتعلّق بسيرة الإمام النووي وخصائص شخصيته عن انحداره من بيئة بدوية فصيحة كان يترل بها أرباب البيان والبلاغة في القول، من القبائل المترحّلة طلبا للكلأ ومساقط الغيث بسهل حوران البعيد عن مراكز الحضارة. هناك في قرية تدعى "نوى" حيث ولد ونشأ، تفتقت أذناه على سماع الفصيح من كلام العرب بمختلف لهجاته. كما استوعب صدره في الفتوّة كتاب الله القرآن الكريم، حفظا وتدبّرا، بمختلف قراءاته. ومن ثمّة تشكّلت عقليته مبكرا على اعتبار السماع مصدرا أوليّا لتلقي اللغة العربية ألفاظا ومعاني، عبر الرواية الشفوية. وقد مرّ معنا الحديث عن مرور أحد أساطين الأدب العربي في العصر الجاهلي بها ونزوله بسهلها، وهو امرؤ القيس، صاحب المعلّقة الشهيرة.

[1]- الحيوان. الجاحظ. عثمان بن بحر. تح: عبد السلام هارون. ج:1. مطبعة البادي الحلبي. القاهرة. 1938. ص35.

[2]- ما وراء اللغة. بحث في الخلفيات المعرفية. المسدي. عبد السلام. مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع. تونس.1994. ص:75

[3]- الأصول والضوابط الإمام النووي. دار البشائر. بيروت. 1991.ص:6 . .

ولما رحل في شبابه. إلى دمشق لطلب العلوم الشرعية، وكان عمره تسع عشرة سنة تلقى علوم العربية على يد علماء أجلاء كابن مالك الأندلسي في النحو والصرف، والذي كان مرجعا لا مثيل له في علوم اللغة في القرن السابع الهجري. وهو يري أن اللغة العربية وسيلة أساسية لفهم دلالات القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث يقول في ذلك: "و بها يُعرف كتاب ربّ العالمين وسنّة خير الأولين والآخرِين"[1].

فحفظُ أشعار العرب وخطبهم ونثرهم يمكّن المتعلم من اللغة العربية. والتمكّن من اللغة يؤدي إلى حسن استغلال هذه الثروة في فهم دلالة القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث تكون مؤطّرة بمختلف علوم الآلة اللسانية بأصولها وقواعدها، كالصرف والنحو والبلاغة وغيرها. وذلك كلّه حتى يمكن استغلالها في فهم معاني النص أثناء الاجتهاد سواء أكان لغويا أو فقهيا. ويقول في ذلك: "بل شرطوها في المفتي والإمام الأعظم، والقاضي، لصحّة الولايات"[2].

والحفظ المتقن الذي تحصل به الملكة الراسخة للّغة عند الإمام النووي، لا يتمّ إلا بالسماع الموثّق. وقد حقق الإمام النووي السماع كأصلٍ لتلقّي اللغة بنوعيْهِ:

أ- السماع بالرواية الشفوية أخذا عن الأعراب في مطلع الشباب ببلدته حيث نشأ،

ب- السماع عن أهل الحضر، حيث نشأ 'بحوران' وقصبتها 'نوى' وخلال مخالطته للناس في دكّان أبيه خلال البيع والشراء حيث تُستَبَانُ اللهجات ويظهر الفصحاء من الأعاجم أو من اختاط بهم من أصحاب اللحن الجليّ.

[1].- الإمام النووي شيخ المحدّثين والفقهاء. كامل العويضة. سل: أعلام الإسلام. دار الكتب العلمي. بيروت.1995. ص:101

[2] - تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج1. المطبعة المنيرية. د.ت. ص:3. .

وإذا رجعنا إلى" السماع من الأعراب، فقد كان من طريقتين، إما برحلة اللغوي إلى البادية ليسمع من الأعراب فصاحتهم في موطنهم الفطري، أو حين يفد الأعراب إلى الأسواق مثل سوق المربد بالبصرة"[1].

وقد حقّق الإمام النووي الطريقتين معاً قبل ارتحاله لدمشق لمواصلة طلب العلم، والأمر على كلّ حال قرّره فطاحلة العربية في كتبهم المعتمدة كمراجع قبل ميلاد هذا الفقيه بأربعة قرون. وفي ذلك يقول ابن فارس المتوفى عام 395 ه في كتابه (فقه اللغة وسنن العربية):"نؤخذ اللغة اعتبارا كالصبي العربي، يسمع والديه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على ممرّ الأوقات. وتؤخذ تلقينا من مُلقّن، وتؤخذ سماعا من الثقات والرواة"[2].

وفي هذه البيئة العلمية الزاخرة، ضمّ إلى أصل السماع الذي تعلمه صغيرا في بادية حوران أصلا أخر كبيرا هو القياس، وذلك من خلال مقارنته بين مذاهب النحويين وطرق اجتهاداتهم لتحصيل وتخريج المسائل أثناء دراسته في دمشق.

ولمّا نبغ بعد ذلك وانتصب للتأليف يعد التبحّر والغوص في أعماق محبطات اللغو العربية التي يقول عنها في مقدمة كتابه (تهذيب الأسماء اللغات):" أما بعد، فإن لغة العرب لمّا كانت بالمحلّ الأعلى والمقام الأسمى، وبها يُعرف كتاب ربّ العالمين وسنة خير الأولين والآخرين وأكرم السابقين واللاحقين صلوات الله عليه وعلى سائر النبيّين والتابعين له بإحسان إلى يوم الدّين، اجتهد أولو البصائر والأنفس الزكيّات والهمم المهذبة العاليات في الاعتناء بها والتمكّن من إتقانها، بحفظ أشعار العرب وخطبهم ونثرهم وغير ذلك من أمرهم، وكان هذا الاعتناء في زمن الصحابة رضي الله عنهم مع فصاحتهم نسبا ودارا، ومعرفتهم باللغة استظهارا، لكن أرادوا الاستكثار من اللغة التي هالها ما ذكرنا ومحلّها ما قدمنا وكان ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم يحفظون من الأشعار واللغات ما هو من المعروفات الشّائعات. وأمّا ضرب عمر بن الخطب وابنه رضي الله عنهما

[1]- مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب. شرف الدين الراجحي. دار النهضة العربية. بيروت.1988. ص:44.

[2] - مصطلح الحديث وأثره في الدرس اللغوي عند العرب. المرجع نفسه. ص: 46.

أولادهما لتفريطهم في حفظ العربية فمن المقولات الواضحات الجليلة. وأما المنقول عن التابعين ومن بعدهم في ذلك، فهو أكثر من أن يُحصر، وأشهر من أن يُذكر، وأمّا ثناء أمامنا الشافعي رحمه الله وحثّه على تعليم العربية في أول رسالته، فهو مقتضى منصبه وعِظم جلالته"[1].

ولّما كان القياس في الاصطلاح هو:" حمل كلامنا على كلام سابق في صوغ المادة وفروعها، وضبط حروفها وترتيب كلماتها، وهذا لمجاراة كلام الأولين في طرائقهم اللغوية بحمل كلامنا على كلامهم، أي النسج على منوال كلام العرب من قياس الحاضر على الغائب، وبه نحصل المعلومات التي لم تكن حاصلة، فتصير حاصلة، أي معلومة، بإهمال العقل أي قبل استغلاله في الاجتهاد"[2].

وهذه الأسس التي يعتمد عليها القياس، والتي اتفق علماء اللغة والنحو عليها من:

أ- الحمل على كلام الأولين الفصحاء،

ب- مراعاة الاستقراء التام للمادة اللغوية أثناء الحمل،

ج- إعمال العقل جيدا أثناء استخدام أدوات القياس،

كلّ ذلك، نجد الإمام النووي يراعيه بدقّة متناهية وهذا ما يمكن استنتاجه من تحليل النص الذي قدم به معجمه(تهذيب الأسماء واللغات) والذي سبق ذكره.

ففي شرط إعمال العقل جيّدا لردّ الفرع للأصل بعد ضبط العلّة قياسا أو حصر المعنى العام اشتقاقا. يقول:" أما بعد، فإن لغة العرب لّما كانت بالمحل الأعلى والمقام الأسمى، وبها يُعرف كتاب ربّ العالمين[...] اشتهر أولو البصائر والأنفس الزّكيّات والهمم المهذبة العاليات في الاعتناء بها والتمكن من إنقاها"[3].

[1]- تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1. المطبعة المينيرية. القاهرة. د.ت. ص:3.

[2]- أصول النحو. صالح بلعيد. دار هومة. ط:2.الجزائر.2008. ص: 46.

[3]- تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. مصدر سابق. ص:3.

وفي شرط الحمل على كلام الأولين يقول:" بحفظ أشعار العرب وخطبهم ونثرهم[...] مع فصاحتهم نسبا ودارا، ومعرفتهم باللغة استظهارا"[1]، فهو يقصد أن الأوّلين ضمّوا إلى ملكة اللغة العربية السليقية فيهم، المادة اللغوية الأساسيّة حفظا في الصّدور لتوثيق المشافهة والسّماع. أما بالنسبة لمراعاة الاستقراء التام قبل القياس فيقول:" لكنْ أرادوا الاستكثار من اللغة التي حالها ما ذكرنا ومحلّها ما قدّمنا"[2].

من أمثلة استخدام الإمام النووي للاستقراء التّام للجزئيات اللغوية من خلال ضبط عمومها في السياق قوله:" كلّ موضع صلُح فيه "بين" قلت فيه "وسْط" بإسكان السّين، وإلا فوسَط بالفتح. ويجوز الإسكان على ضعفٍ"[3].

ويعتمد على عاملين اثنين لضبط علّة القياس قبل تطبيقه هنا في عذا الميدان:

- الأول: المشترك اللفظي كضابط للمعنى الواحد، حيث البينية هي نفسها الوسطية،

- الثاني: الصيغة الصرفية الواحدة في بنيتها الذاتية. وهي صيغة 'فعْل' بإسكان العين، المطابقة لوزن "بيْن" و "وسْط".

وإذا تعلّق الأمر بالتفرقة بين القياس والاشتقاق، يشير بدقّة لما يرفع اللبس كقوله "مشتقّ" أو "مأخوذ" مع مراعاة الضوابط التالية:

- الإشارة إلى المعنى الأصلي الكلّي الذي تمّ منه الاشتقاق، وهو اشتقاق فرع من أصل،

- ترتيب درجات الاشتقاق من حيث أولوية مصدره، وصحّة معناه العام. وهنا يلجأ باعتباره متخصصا في علم الحديث النبوي إلى مصطلحات هذا العلم ليحدّد درجات صحة الرواية المسموعة لألفاظ المعنى، والتي عن طريقها يضعّف أو يصحّح السند. فهو مثلا يستخدم صيغة

[1] - تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. مصدر نفسه. ص:3.

[2] - تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1. المطبعة المينيرية. القاهرة. د.ت. ص:3.

[3] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. دار ابن حزم. تحق: إياد الغوج. بيروت/ المكتبة المكية. مكّة.1996. ص:33.

التضعيف، وهي "قيل"، في المرتبة الثانية في ذكر المعنى العام للاشتقاق، وذلك كقوله:" السِّواك بكسر السين مشتق من "سَاكَ" إذا دلك. قيل من جاءت الإبل تَسَاوَكُ، أي تتمايل"[1].

وقد يستخدم مفهوم المخالفة- وهو من أصول لاجتهاد عند الشافعية-، فلا يذكر القياس، بل عكسه وهو الشذوذ كما في شرحه لمصطلح 'الودْيُ'، وهو مصطلح في فقه العبادات كما أنه لغويّ في آن واحد." و"الودْيُ" بإسكان الدّال المهملة، وحكى الجوهريّ أنه يكسرها مع تشديدها أي الودِيّ، وصاحب "المطالع" أنه بذال معجمة وهما شاذّان باطلان. و"ودى" و"أودى" و"ودّى" بالتشديد، وهو ماء ثخين كدر يخرج عقب البول"[2].

ورُوي عنه أصحاب التراجم باتفاق أنه حلب علوم اللغة نحوا وصرفا وصوتيات ومعجميّات، وبلاغة وأساليب، من ضرعين عظيمين هما: الشيخ أبو العباس جمال الدين أحمد بن سالم المصري النحوي، نزيل دمشق سنة 672 هـــ، حيث قرأ عليه كتاب إصلاح المنطق لابن السكّيت وكتاب سيبويه وكتاب ثالث في التصريف. كما لازم محمد بن مالك الأندلسي وقرأ عليه من تصانيفه كتابا، وعلّق عليه شيئا. هذه الكتب العمدة في تكوين عقليته اللغوية وكفى، زيادة على ما سمعه في عشرات مجالس العلم بدمشق، وما طالعه منفردا في مخطوطات المدرسة الرواحية الشهيرة التي كان مقيما بجوارها، حيث يقول عن كيفية تعامله مع هذه المصادر:" وكنت أعلّق جميع ما يتعلّق بها، من شرحِ مُشْكَلٍ، وإيضاحِ عبارةٍ، وضبط لغةٍ، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي وأعانني عليه."[3].

ومن خلال هذا النص نرى أنه كان يطبّق تراثه اللغوي على كلّ ما درسه ممّا كان يتلقّاه وهو مجموع اثنيّ عشر درسا يوميا في مختلف الفنون، كالأصول والفقه والحديث وأصول الدين، زيادة على ما سبق من علوم اللغة.

---

[1] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. ص: 34.

[2] - دقائق المنهاج. الإمام النووي.مصدر سابق. ص: 35.

[3] - الإمام النووي وأثره في الحديث.. عبد العزيز الحدّاد . رسالة ماجستير. جامعة أم القرى. منشورات جامعة المدينة المنورة. ص:255. و للتوسع ينظر كذلك : المنهل العذب الرويّ في ترجمة قطب الأولياء النووي. الحافظ السخاوي. دار الهدى. الجزائر. 1999..

ورغم كونه فقيها ومحدّثا، وهذا العلمان يحتاجان إلى الدقة العلمية والعبارات المركزة، والتي ربما ذهب معها الجانب الأسلوبي الفني في الكتابة العلمية بنا تحويه من جفاف ودقّة، إلا أنّه لم يقع في التعقيدات الاصطلاحية في عرضه لنختلف القضايا في كتبه. ولا يبرر ذلك إلا لتمكّنه من اللغة العربية وبيانها، كما شهد له بذلك أستاذه ابن مالك الأندلسي أثناء تدريسه له في دمشق تعليقا على كتابه (منهاج الطالين) في الفقه الشافعي، والذي طار ذكره في الآفاق في القرن السابع الهجري، حفظا ومدارسة وتداولا ونسخا، حيث " أثنى على حسن اختصاره وعذوبة ألفاظه حتى قال: والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت لا حفظته"[1].

و نتج عن جعله اجتهادات اللغوية في خدمة كتبه الفقهية والحديثية (كالمهذّب) و(النتبيه) و(الوسيط) و(الوجيز) و(الروضة) جملة من المميزات في دراسته لدلالة الألفاظ منها:

1- شرح الألفاظ الغريبة ذات الصلة بالاصطلاح الفقهي،

2- شرح الدلالة اللغوية للأعلام الواردة في النصوص انطلاقا من الأصول الاشتقاقية، سواء كانت حسية أم معنوية. وهو في ذلك مُتابع للعلامة اللغو باين دريد في كتابه (الاشتقاق) كأسماء الرجال والنساء من العقلاء والملائكة والجنّ والأماكن والمدن وغيرها، وذلك في كتابه تهذيب الأسماء واللغات.

3- شرح الألفاظ الأعجمية والمعربة،

4- الاهتمام بالجانب المعجمي والاشتقاقي والصرفي بتوسّع في جزء اللغات من كتابه (التهذيب)، والاختصار في الأسماء والأعلام.

5- توضيح المبنى الأساسي للفظ مع معناه الاصطلاحي،

6- بيان اللغات، أي اللهجات وشواهدها من القراءات،

[1]- الإمام النووي وأثره في الحديث.. عبد العزيز الحدّاد . مرجع سابق. ص: 256.

7- بيان ما يُنكر وما لا يُنكَر، والفصيح من غيره، ترجيحا في لغات اللفظ الواحد،

8- توضيح المقصور والممدود جوازا ومنعا، وكذا المذكر والمؤنث،

9- تحديد الترادف والتصريف المشترك والفروق الدلالية بينهما،

10- تفصيل الجانب الصوتي في هجاء الألفاظ عبر ضبط الحركات والتشكيل[1].

- الأعراف والعادات ضمن ضوابط الاستحسان:

أمضى إذن الإمام النووي زهرة شبابه في دمشق بعد أن ورد إليها من بلدته "نوى" بحوران وعمره يقارب البلوغ. ومع مرور السنين وزيادة النضج العقلي والمدني، واتساع علاقاته الاجتماعية، استوعب طبيعة عقلية الدمشقيين المتكونة في ذاك العصر، أي منتصف القرن السابع الهجري، من مختلف الأعراق والقوميات ومختلف المذاهب والديانات، سواء تعلق ذلك بداخل إطار الثقافة الإسلامية أو خارجها من مختلف المذاهب والديانات السماوية وغيرها، ولم تكن بيئته بجنوب دمشق، على مسافة مائة وستين كيلومتر، تحوي ذلك كلّه، إذ كان يغاب عليها الطابع العربي الأصيل بخصائصه البدوية السليقية التي يطبعها الهدوء الجغرافي والفكري، بعيدا عن صراع الطوائف، وذلك بقربها من بادية الشام، وصحراء الأردن حاليا.

هذا على المستوى الاجتماعي، أما على المستوى الشرعي المذهبي" فإن طبيعة المذهب الشافعي التي جمعت بين مدرستي أهل الرأي وأهل الحديث"[2] والتي قررها الإمام الشافعي في رسالته من خلال ما يعرف بمذهبيه القديم والجديد في كل من العراق ومصر جعلته يقرر في آخر رسالته مبدأ الاستحسان كمصدر من مصادر التشريع وأصل من أصول الفقه، ويقول فيه مبررا اللجوء إليه، باعتباره يضم الأعراف والعادات ومقررات العقول: " والاجتهاد لا يكون إلا على مطلوب،

---

[1] - هذه الملاحظات الاستنتاجية ألم بالكثير منها الأستاذ عبد العزيز الحداد في رسالته المذكورة سابقا من خلال معالجته للمادة اللغوية في كتابيّ الإمام النووي(تهذيب الأسماء واللغات) و(تحرير ألفاظ التنبيه). وقد نقلناها مع إضافات. وتصرف ينظر: : الإمام النووي وأثره في الحديث.. عبد العزيز الحدّاد . مرجع سابق. ص: 256.

[2] - المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. دار النهضة/ دار المشرق. دمشق. 2006. ص:15.

والمطلوب لا يكون أبدا إلا على عين قائمة تطلب بدلالة يقصد بها إليها، أو تشبيه على عين قائمة."[1].

ولكنه في فتحه لباب الاستحسان يشترط عدم مخالفته للكتاب والسنة كمصدري تشريع متفق عليهما لدى كل المذاهب. ويقول في ذلك مستطردا في باب الاستحسان:" وهذا يبين أن حراما على أحد أن يقول بالاستحسان، إذا خالف الاستحسان الخبر. والخبر من الكتاب والسنة - عين يتأحّى معناها المجتهد ليصيبه كما البيت يتأحَّاهُ من غاب عنه ليصيبه، أو قصده بالقياس"[2].

واستخدامه لمصطلح البيت ككناية عن الاستحسان فيه إيحاء بمراعاة الأعراف التي تسود العائلة داخل البيت كما تسود المجتمع في عمومه. وفي نص آخر يستخدم مصطلحا يدل على الميزة الأساسية للاستحسان الذي يستخدم في مراعاة الأعراف والتقاليد الراسخة فيقول:" وإنما الاستحسان تلذذ ، ولا يقول فيه إلا عالم بالأخبار، عاقل للتشبيه عليها"[3].

ويمكن أن نستخلص من الفقرتين السابقتين المثلّث الدلالي الذي يمثل هذا المنبع المعرفي عند الإمام النووي:

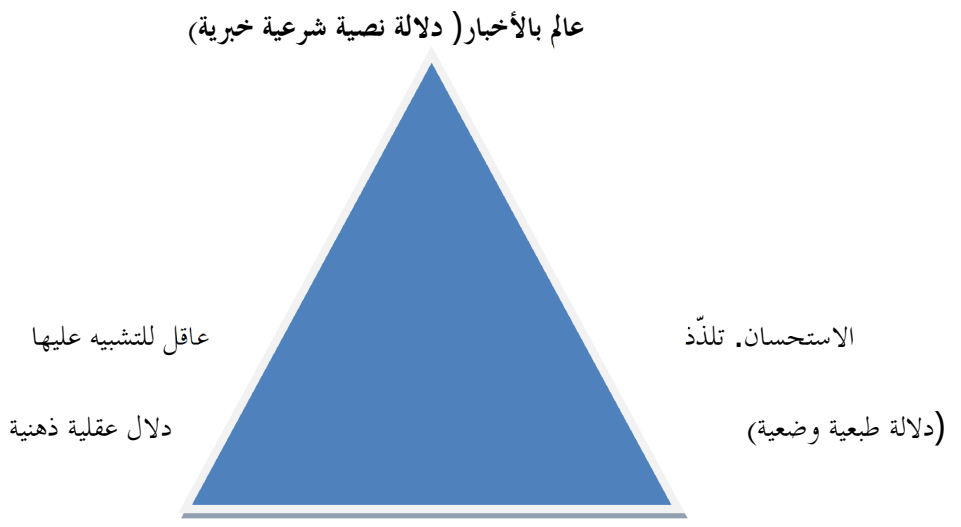

[1] - الرسالة. الإمام الشافعي. تحق: أحمد محمد شاكر. الدار العالمية للنشر والتوزيع. ط:2. 2016. ص:516.

[2] - المصدر نفسه.ص:516.

[3] -الرسالة. الإمام الشافعي. تحق: أحمد محمد شاكر. الدار العالمية للنشر والتوزيع. ط:2. 2016. ص:516. ص:519. -

- التعليق على المخطّط:

يمثل هذا المخطّط مختلف الدلالات الضابطة لمفهوم الاستحسان كأصل لمراعاة الأعراف والعادات في الاستدلال. ودلالات شرعية يمثلها الخبر، ودلالة طبعية يمثلها التلذّذ، ودلالة عقلية يمثلها القياس التشبيهي.

وانطلاقا من هذه الأصول النظرية من جهة، ومراعاة للأصول الاجتماعية من جهة أخرى، وهي ممثّلة في:

1- التفاوت الطبقي في عصره بين طبقة الممالك والأمراء والأتابك الأتراك والسلاجقة، وبين طبقات الشعب الأخرى، حيث كانت الأولى ثريّة وغالبية العامة في فقر مدقع.

2- اختلاط الأعراق والأجناس والعقليات دون تجانس وانسجام، وما ينتج عن ذلك من صراعات سلوكية بينها. فقد ضمت البيئة الدمشقية في عصره أعراقا كثيرة كالديلم والأكراد والفرس والزنج والأرمن والعرب وغيرهم.

3- التنوع الطائفي المذهبي وما ينتج عنه من متناقضات تقتضي مراعاتها جيدا عند الاجتهاد والترجيح، إذ ضمّت بيئته الشامية عشرات المذاهب والنحل، كاليهود والنصارى بمختلف طوائفهم، والشيعة والسنة بمختلف مذاهبهم كالإسماعيلية والإثني عشرية والنصرية، يصمّ لها المذاهب الإسلامية المعتمدة، كالشافعية والمالكية والحنابلة والحنفية التي كانت لها مدارس عديدة تمثل قلاعا للتعصب المذهبي.

الفصـــل الثـــالث

الدلالة الصوتية والصرفية

(أصول نظرية ونماذج تطبيقية)

- **المبحث الأول: الدلالة الصوتية في مستواها الفونيتيكي والأكوستيكي.**
- **المبحث الثاني: الدلالة الصوتية في مستواها الفونولوجي الوظيفي.**
- **المبحث الثالث: الدلالة الصرفية في أهم مؤلفات الإمام النووي (أصول نظرية ونماذج).**

الفصل الثالث:

الدلالة الصوتية والصرفية (أصول نظرية ونماذج تطبيقية)

- المبحث الأول: الدلالة الصوتية في مستواها الفونيتيكي والأكوستيكي.

تمهيد:

توزعت اهتمامات الإمام النووي بالدلالة الصوتية في مستوييها؛ الفونتيكي والفونولوجي:

أ – ففي المستوى الأول والمتعلق بعلم الأصوات النطقي ' الفونيتيك - Phonétique' - "و هو العلم ، الذي يعني بدراسة أعضاء النطق، وحركتها ، وتحديد مخارج كل صوت، وكيف ينتج هذا الصوت"[1] - نجده في هذا كله، متابعا لعلماء العربية والقراءات القرآنية قبله، في دراسة الأصوات البحتة عبر مخارجها وصفاتها تلفظا ونطقا ، ثم تلقيها سماعا وإصغاءً وتدبرا .

ب- أما المستوى الثاني الفونولوجي؛ والمتعلق بدراسة وظائف الأصوات وذلك، عندما تنتظم في كلمات؛ حروفا مرسومة، أو ألفاظا منطوقة ، من خلال تفاعل صفاتها تأثيرا وتأثرا سواء، أكانا ذاتيين داخليين كالإدغام والإخفاء ، أو خارجيين زائدين عبر ما يعتري بنية الكلمة، من صيغ صرفية أو حركات إعرابية؛ وما ينتج عن ذلك كلّه من تنوّع في اللهجات أو 'اللغات' كما يسميها في مباحثه في لغة العرب عامة، أو في النص القرآني بقراءاته المتواترة خاصة. ولقد أخذ القرآن الكريم الحظ الأوفر من دراسته للدلالة الصوتية باعتباره وحيًا منزّلا ونصًّا مقدسا متعبَّدا بتلاوته .

[1] - ملكة اللسان .أحمد دراج ، مكتبة الآداب العامة، القاهرة. 2006. ص: 116.

فقد خصص كتابا كاملا مستقلا هو، كتاب (التبيان في آداب حملة القرآن)،- والذي استوعب فيه معظم جهوده في دراسة الدلالة الصوتية- بحكم أن إتقان تجويده واجب شرعي واللحن فيه محرم [1].

وفي هذا الكتاب لمحات ذكية ومباحث منهجية من علم الصوتيات الذي يمثّل القاعدة الأساسية لمختلف المستويات اللسانية، حيث طابقت فيها آراؤه نتائج الباحثين المعاصرين، وإن كانت ممتزجة بالغالب بمباحث واسعة تتعلق بعلم وظائف الأصوات' الفونولوجيا Phonologie' ولهذا فهو يتحدث فيه عن الترتيل والتنغيم وغيرهما من الأحكام التي تعتري الصوت في مخرجه وصفاته العرضية والأصلية .

المطلب الأول: الجانب الفيزيولوجي للصوت وأثره الدلالي

يتطرق الإمام النووي إلى الصوت كظاهرة فيزيائية طبيعية خارج التداول اللفظي الذي يهدف قصدا إلى التبليغ والتواصل، فالإطار القرآني هو مجاله الأصيل فيما يتعلق بهذا المبحث.

فباعتباره عالَم شريعةٍ وفقيها مجتهداً، ألمحنا في الباب الأول السابق، ونحن نتحدث عن ترجمة حياته وخصائص عصره، من مختلف الجوانب مع التركيز على منابع الفكر الدلالي[2] عنده وعلى مرجعيته الأساسية في تراثه اللغوي والفقهي .

هذه المرجعية القائمة على الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر خيره وشره ، وأن كل ذلك من عند الله سبحانه وتعالى، وأن شريعة الإسلام المنزّلة في أصولها وفروعها قرآنًا وسنة صحيحةً ، ما هي إلا أثر لإرادة الله الشرعية المبنية على المحبة لخلقه وطلب هدايتهم، والتي تشملها إرادةٌ أكبر هي إرادة الله الكونية، أي مشيئته.

[1] - الفوائد المُفهِمة في شرح الجزرية المقدمة. الشيخ عبد الرازق موسي إبراهيم ، دار ابن حزم ، دار ابن عفان ، القاهرة. 2006.ص.ص: 12 -16 .

[2] - ينظر: الفصل الثالث من الباب الأول.

- لقد استنبط الإمام الشافعي أصول الفقه وقواعده في كتابه الرائد المؤسس لهذا العلم وهو (الرسالة) حيث بسط فيه القواعد العامة للاستنباط والاجتهاد تنظيرا وتقعيدا ، بينما يمثل كتابه (الأم) الميدان التطبيقي لهذه القواعد والأصول في التفريعات الفقهية الشافعية. – من نفس المنبع والمرجعية وتابعه تلميذه ومريده الإمام النووي في ذلك بعد خمسة قرون*.

وقد رسخ هذه المرجعية عنده كما مر معنا ، ما حل بالعالم الإسلامي عامة ، ومقام الخلافة وأرض الشام خاصة في القرن السابع الهجري، والذي حقت فيه "كلمة الله "*؛ أي قدره وقضاءه وسنته التي لا تبديل لها في الأمم، من تسلط للمغول الهمج الآتين من أقصي الشرق، والصليبين كذلك ومحاصرتهم لمركز الخلافة بعد تحطيمها حيث صار "التأويل" لأبسط الأحداث في مختلف المجالات الحيوية من أجل استكناه دلالاتها عقلية غالبة وثقافة مؤسسة عند العامة من الناس والعلماء مع ربط كل ذلك بعلامات الساعة وقرب حلولها [1].

ولم يكن للإمام النووي اهتمامٌ بالصوت كظاهرة فيزيائية طبيعية ، رغم كونه عاش في عصر تطورت فيه علوم الطبيعية والحياة كالطب والكيمياء، وخاصة في فترة الازدهار الحضاري في العصر العباسي الأول.

إن نظرته في هذا المجال تحكمها اعتبارات عقَدية مشدودةٌ إلى انتمائه الأشعري؛ إذ هو يفرّق، كما فرّق أئمة الأشعرية، بين:" الصوت من حيث هو جزئيات هوائية ، وبين الكلام باعتباره تركيبا، وقالوا فيهما: الكلام حروف، والقراءة صوت، والصوت غير الحرف "[2] .

ولعل سبب هذا التوجه هو الخلاف بينهم وبين السلف من أهل السنة حول كلام الله؛ إذ يرى الأشاعرة "أن كلام الله عز وجلّ معنى قائم بنفسه لا يتعلق بمشيئته، وهذه الحروف

* - عاش الإمام الشافعي القرن ق.2.ه (ت 150ه)، بينما عاش الإمام النووي ق. 7.ه (ت 676هـ).

** - كلمة الله، أي قضاءه وقدره، ولها دلالة أخري : أي وحيه في كتابه وسنة رسوله.

[1] - ينظر: الرسالة .الإمام الشافعي .تحق: العلامة أحمد محمد شاكر . دار الكتب العلمية . القاهرة. 2016.

[2] - ملامح الدلالة الصوتية في المستويات اللسانية، مكي درار، دار أم الكتاب، الجزائر، 2012. ص: 3.

والأصوات المسموعة مخلوقة لتعبير عن المعني القائم بنفس الله "[1]، بينما يجمع السلف على أن: "كلام الله تعالى قديم النوع ،حادث الآحاد . ومعني قديم النوع : أن الله لم يزل ولا يزال متكلما، ليس الكلام حادثا عنه بعد أن لم يكن. ومعنى حادث الآحاد :أن أحاد كلامه – أي الكلام المعين المخصوص – حادث ;لأنه متعلق بمشيئته ،متى شاء تكلم بما شاء كيف شاء "[2].

وإذا كان الإمام النووي قد أشار باختصار إلى الصوت في بعده الفيزيائي، فإنه فصّل القول نوعا ما في الحديث عن الصوت في مصدره الفيزيولوجي الإنساني، لا الطبيعي، حيث يتوفر ركن القصد والوضع وتتشكل الألفاظ الحاملة للمعاني ضمن جهاز النطق بأعضائه الفيزيولوجية الفاعلة وتتحدد مخارجه وتتميز صفاته.

ولنقدم أنموذجا تطبيقيا، اخترنا تعليقاته وملاحظاته في شرحه لحديث نبويّ صحيح من كتابه المعروف اختصارا ب(صحيح مسلم)، والمعروف تفصيلا ب(المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) [3].

وفي باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه [4] إشاراتٌ مُلفِتة إلى دور الأعضاء الفيزيولوجية في الجهاز التنفسي في تحقيق الأداء الصوتي ، وخاصة الحنجرة والحلق وغيرها، من خلال تعليقاته الدقيقة على الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه مسلم في صحيحه. وهنا نص الحديث:

((حدثنا يحي بن يحي قال قرأت على مالك عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صل الله عليه وسلم أقرأنيها فكدت أن أعجل عليه ثم تمهلته حتى انصرف ثم لبّبته بردائه فجئت به رسول الله صل الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول

[1] - لمعة الاعتقاد. ابن قدامة المقدسي. شر: الشيخ محمد صالح العثيمين. دار ابن الجوزي . القاهرة. 2008 ، ص:36.

[2] - مرجع سابق . ص: 38.

[3] - شرح صحيح مسلم. مج :3. ج: 5 .دار الغد الجديد ، القاهرة ، 2008. ص: 88.

[4] - المرجع السابق، ص88-89 مج 5-6

الله صل الله عليه وسلم أرسله يقرأ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله صل الله عليه وسلم: هكذا أنزلت " ثم قال لي "اقرأ " فقرأت فقال " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه))[1].

إن مفتاح الدلالة المحورية في هذا الحديث يتمثل في لفظين مميزين هما 'لبّبته' و'أرسله'، حيث بدأ الإمام النووي شرحه في الحديث بالتقاط الفعل : لبّب حيث قال على حاشية المتن في الشرح: 'لبّبته بردائه' هو بتشديد الباء الأولى معناه : أخذت بمجامع ردائه في عنقه وجررته به ، مأخوذ من اللبّة بفتح اللام لأنه يُقبض عليها.

وفي ما سبق من السياق يأتي بالمعني الدلالي لِللبّة. وهي العنق، أي منطقة عناق الرقبة بأسفل الرأس[2].

و هذه المنطقة هي "المنحر" كما شرحها صاحب مختار الصحاح فقال: "و اللبّة :بوزن الحبة المنحر"[3].

وهي توافق في التشريح الفيزيولوجي للجهاز الصوتي والتنفسي معًا ما يعرف بالحنجرة، والتي تعدّ الجزء الأعلى من القصبة الهوائية. وهي غرفة أوسع منها قطرا، والجزء العلوي منها أشبه بالمثلث في شكله، وتحيط بأجزائها الداخلية الحسّاسة غضاريف تحميها"[4].

و بالعودة إلى تحليل الحديث النبوي الشريف نجد أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما لبّب الصحابي هشام بن حكيم بن حزام بردائه، وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم ليقرأ سورة الفرقان عليه، قال له الرسول (ص) أرسله يقرأ، أي : فُكّ الخناق عن عنقه. وعلق الإمام النووي

---

[1] - صحيح مسلم :مج 5-6 ،ص.ص: 88-89.

[2] - شرح صحيح مسلم .الإمام النووي. مصدر سابق. مج: 3. ج: 5. ص: 88.

- شرح صحيح مسلم. رقم: 818 ، وأخرجه البخاري وأبو داوود والترمذي والنسائي .

[3] - مختار الصحاح. أبو بكر الرازي، باب اللام ، مادة لبب (لب). دار الفكر، بيروت. 2009. ص: 242.

[4] - المختصر في أصوات اللغة العربية . محمد محمد حسن جبل ،ط: 5 . دار مكتبة الآداب ، القاهرة ، 2008، ص:34.

على فعل الرسول صلي الله عليه وسلم قائلا : "و لأنه إذا قرأ وهو يلبث لم يتمكن من حضور البال، وتحقيق القراءة تمكن المُطلق "[1].

والمُطلق طليقُ الحركة. ولعل طلاقة اللسان التي تتم بها الفصاحة مشتقّة منها حيث تؤدي القصبة الهوائية والحنجرة المرتكزة عليها من الأعلى وظائفهما الفيزيولوجية والصوتية بكامل الحرية.

فانطلاقا من هاذين العضوين، الحنجرة والقصبة الهوائية، يبدأ تخلّق وتجمّع المادة الخام بمختلف الأصوات بمخارجها المتنوعة .

أما القصبة الهوائية ف"دورها في إحداث الصوت أنها توصل الهواء الخارج من الرئة إلى الحنجرة وما فوقها، حيث يحدث بمروره في الحنجرة وما فوقها الصوت والاحتكاك اللذان يسمح بهما جرس الحروف. كما أنها تعد غرفة رنين الصوت حين يحدث في الأجزاء العليا منها "[2].

وبالنسبة للحنجرة، فإن بها الوتران الصوتيان "وعندما يتاح للهواء المندفع من الرئة إحداث انفراج دقيقٍ بين الغشاءين الصوتيّين المذكورَيْن، فإن شدّة اندفاع الهواء من الرئة مع ضيق المنفذ بين الغشاءين أمامه يجعل حافتي العشاءين الصوتيين تتذبذبان بقوة حين مرور الهواء من بينهما ، فيتولد صوت، أي زمير ، هو ما نسميه زمير الجهر "[3].

إن هواء الجوف بالرئتين، إذا اعترض بالخناق في الرقبة حيث الحنجرة والقصبة الهوائية، توقف حدوث الصوت تماما أو خفوته وعدم تمييزه لانعدام جرس الحروف، ولهذا طالب النبي صلي الله عليه وسلم بـــ"إرساله" ليزول ضغط اليد والرداء اللذين يمنعان من تحصيل القراءة المتمكنة، وذلك لانعدام أداء الأعضاء الفيزيولوجيه. وهو ما فسره الإمام النووي رحمه الله ب"التلبث" : أي التوقف شبه التام. كما علل النوويّ دلاليا قول النبي صلي الله عليه وسلم:

---

[1] - صحيح مسلم ،ص.ص: 86 -89.

[2] - المختصر في أصوات اللغة العربية ، مرجع سابق ،ص 33

[3] - المختصر في أصوات اللغة العربية ، مرجع سابق ، ص:36 .

"أرسله يقرأ" بتمكن المُطلق، بمعنى الطليق " ولأنه إذا قرأ وهو يلبث لم يتمكن من حضور البال وتحقيق القراءة تمكن المطلق "[1].

وهذا النموذج التطبيقي غيضٌ من فيضٍ مما فصل المؤلف في كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن).

ولعله في هذا يشارك علماء التراث العربي الإسلامي في القراءات القرآنية واللسانيات، ويحقّق قصب السبق تاريخيا في التأسيس لما عرف بعلم الأصوات التجريبي الذي قامت دعائمه على " الملاحظة المباشرة والتجربة الذاتية" [2] .

و اعتمادا على هذه المعطيات الصوتية، في بعدها الوظيفي الفيزيولوجي، نجد الإمام النووي رحمه الله في منهجيته المعجمية القائمة على التحليل الصوتي: [3]

1- يذكر الكلمة،
2- ثم يبين ما يريد مما يدخل تحت مادتها بدون أن يقصد بها الفعل أو الاسم،
3- يفضل ذكر مادة الكلمة بحسب حروفها ،
4- ثم يتكلم على ما وقع في الكتب من الأسماء والأفعال،

أي أنه اتبع نظام الجذرية، أي إرجاع المُدخَلات إلى أصولها البنائية .[4]'و الأصول البنائية هي الحروف الصحيحة غير الزائدة في بنية اللفظ أو الكلمة' .

وكنموذج تطبيقي متناسق مع ما ذكرناه سالفا عن المدرج الصوتي انطلاقا من القصبة الهوائية، فالحنجرة؛ نجد المؤلف في معجمه (تهذيب الأسماء واللغات)، عند وصوله إلى حرف **العين** يقرر ما يلي: (حرف الغين: وهو الحرف الذي اعتمده الخليل بن أحمد، وبدأ به كتابه وتابعه

[1] - شرح صحيح مسلم .الإمام النووي. مج 5 . ص:88.
[2] - ملكه اللسان. د أحمد فراج ، ص: 120.
[3] - معجم تهذيب الأسماء واللغات .الإمام النووي. ج:2. تحق: الإدارة الخيرية. دار الكتب العلمية ، بيروت. د.ت.ص: 14.
[4] - الألمعية في الدراسات المعجمية. مشري بلا عدة القلعي، دار الوعي للنشر والتوزيع. مركز الثعالبي للدراسات ونشر التراث. الجزائر.2005. ،ص 101.

الناس عليه. قال الأزهري: قال الليث قال الخليل : لم يأتلف الغين والعين في شيء من كلام العرب)[1].

فالإمام النووي هنا يشير إلى أول الحروف الحلقية وهو العين كمخرج محقق منضبط عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، والذي يرى أن عدد المخارج سبعة عشر مخرجا، ومن تبعه من المحققين، كالحافظ ابن الجزري وغيره .

فقد جعل في الجوف واحدا، وفي الحلق ثلاثة، وفي اللسان عشرة، وفي الشفتين اثنين، وفي الخيشوم واحدا [2].

وإن اتفق أهل القراءات، واللسانون العرب من أهل التراث على أن أول المخارج العامة هو مخرج الجوف، والذي يشمل حروف المد الثلاثة (الألف والواو والياء)، إلا أنهم اختلفوا حول أول المخارج قربا للجوف، حيث يتحرك الهواء بلا مخرج محقق ثابت الحيز .

" فالخليل ومن تبعه من المحققين، كالحافظ ابن الجزري وغيره ، جعلوا أقصى الحلق للعين ثم الهاء[3].

"بينما سيبويه ومن تبعه ، كالشافعي وابن بري رضي الله عنهما ، قد أسقطوا مخرج الجوف الذي هو مخرج حروف المد الثلاثة ، ووزعوا حروفه على مخارج الحلق واللسان والشفتين ، فجعلوا مخرج الألف من أقصي الحلق مع الهمزة ، والياء من وسط اللسان والواو من الشفتين"[4].

و قول الإمام النووي تعليقا على ترتيب الخليل: " وبدأ به كتابه، ' أي حرف العين '، وتابعه الناس عليه ، يوحي بترجيح الإمام النووي لهذا الترتيب، على ترتيب سيبويه وإمامه الشافعي.

و يُفهم من قوله 'تابعه الناس عليه " أنه يقصد جمهور أهل اللغة، وهو ما أكده شيخ القرّاء بعده الإمام ابن الجزري من *بعده(قرن 751هـ -833هـ) - إذ، في نقله لملاحظات الخليل

---

[1] - معجم تهذيب الأسماء اللغات، المرجع السابق، مج:2، ص: 2 .

[2] - الفوائد التجويدية في شرح المقدمة الجزرية ،عبد الرزاق علي إبراهيم موسي ،دار بن القيم ، دار ابن عفان ، ط:2، 2007،ص: 30.

[3] - المصدر نفسه ، بتصرف طفيف ، ص 30 .

[4] - المصدر نفسه ، بتصرف طفيف ، ص 30 -31.

*الإمام إبن الجزري: شيخ القراء ، ولد بدمشق في 25 رمضان سنة 701ه، رحل في طلب القراءات لبلاد كثيرة حتى تبحر في استيعابها ، توفي سنة 833ه من أشهر مؤلفاته النشر في القراءات العشر ومتن المقدمة الجزرية .

مسندة الرواية جريا على منهج المحدثين في تحقيق الأخبار والأسانيد، وذلك في باب العين، نراه يتحدث عن الائتلاف وعدمه بين الحروف، وهو المتعلق أصلا بالمخارج والصفات من حيث القرب والبعد أي : من حيث التقارب أو التماثل والتجانس. وهو معنى قوله " لم يأتلف الغين والعين في شيء من كلام العرب" وكأنه ينبه إلى ما به " تمتاز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها من سعة مدرجها الصوتي ، سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها ، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعا عادلا يؤدي إلى التوازن والانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي[1].

ومن ذلك كله، تبرز الدلالة الصوتية وما توحي به من معاني، من الإيحاء بالمعنى عبر جرس الصوت ونبره وتنغيمه [2]، من خلال التناسب التقابلي بين الحروف ومعانيها ، كما يرى ابن جني وغيره قديما، ومن خلال الاستبطان النفسي عند المتلقي إيحاءً من خلال التحليل البنيوي للمورفيمات والفونيمات كما يرى المحْدثون من علماء اللسانيات عربا وعجما.

وقد انتبه إلى ذلك السلف من علماء اللغة واستخرجوا بعض هذه القواعد الصوتية التي راعها العرب في تأليف الألفاظ من الحروف، وذلك كتجنّبهم جمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال؛ والجيم مع القاف والظاء والسين والضاد والذال؛ والجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والضاد. وقد نبّه إلى ذلك الجاحظ في (البيان والتبيين)؛ والحاء مع الهاء، والهاء قبل العين، والخاء قبل الهاء ، والنون قبل الراء، واللام قبل الشين، ونبه إلى ذلك العبقري اللغوي ابن جني في الخصائص [3].

وأما ما يتعلق بما أهمل من الحروف، فإنه يقول:" أما إهمال ما أُهمل مما تحتمله صنعة التركيب في بعض الأصول المُتصوّرة أو المستعملة، فأكثره متروك للاستثقال وبقيته ملحقة به

---

[1] - فقه اللغة وخصائص العربية. محمد المبارك ، ط 2، دار الفكر، بيروت لبنان، 2002، ص:251.

[2] - ينظر رسالتنا المقدمة لنيل شهادة الماجيستر بجامعة ابن خلدون، تيارت ، والموسومة بعنوان: حرف النون بين دلالة البنية المعجمية ودلالة المعاني النحوية ، الفصل الثالث ، ص.ص: 74 – 137 .

[3] - الخصائص. أبو الفتح عثمان ابن الجني ، مج2 ، ط.1 دار الكتب العلمية ، بيروت، 2006، ص: 432 وما بعدها . وينظر أيضا: سر صناعة الإعراب. مقدمة المؤلف. ط2 . دار القلم ، دمشق، 1993 ، ص.ص: 3-7.

ومقفاة على أثره . فمن ذلك ما رُفض استعماله لتقارب حروفه نحو سص وصس وطت وتط وصش وشص لنفور الحس عنه والمشقة على النفس لتكلّفه وكذلك قج وجق وكق وقك وكج وجك "[1].

ثم يأتي ابن جني - 392هـ- على حروف الحلق التي أخذنا نموذجا منها من إشارات الإمام النووي ليعلل بُعد الائتلاف فيها فيقول: "و كذلك حروف الحلق هي من الائتلاف أبعد لتقارب مخارجها من معظم الحروف وإن جُمع بين اثنين منها يقدم الأقوى على الأضعف نحو أهل وأحد وأخ وعهد، وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما إلا بتقديم الأقوى منهما "[2].

المطلب الثاني : الجانب الأكوستيكي (السمع والتلقي):

لقد فتح الأمام النووي رحمه الله سمعه المرهف في هدوء البادية ببلدته 'نوى' منجذبا بفطرته نحو القرآن الكريم حيث كان يتلهف لسماعه وتلاوته وحفظه وهو لم يتجاوز العشر سنين من عمره، حتى لاحظ ذلك عليه أصدقاء والده حيث كان الفتيان من أقرانه يُكرِهونه علي اللّعب معهم فلا يستجيب لهم زيادة على إهماله لدكان والده عندما كان يتركه لينوب عنه في التجارة لينصرف عن ذلك كله إلى تلاوة القران وترديد حفظه، حتى نصح الوليّ الصالح يوسف المراكشي أباه بدفعه للتفرغ لحفظ القرآن وإتقان تلاوته وقراءاته السبع المتواترة [3].

ففي هذه السنين العشر من عمره المبارك، وهو فتى يافع، استطاع النووي أن يستوعب المستوى القاعدي الأول للدلالة الصوتية في الكلام الرباني المعجز، وهو القرآن الكريم؛ ولأنه، كما قلنا في تحليل الجانب الثقافي والعلمي من شخصيته عند ترجمة حياته أنه علم من أعلام الفقه والتصوف والزهد في المذهب الشافعي خاصة، وكذا في علوم السنّة عامة، فإن البعد التربوي الصوفي يلح عليه في ضرورة تجلية المعاني الروحية عند تدبر القرآن، والتي تولّد الخشوع والورع عند تلاوته.

---

[1]- المصدر السابق ، ص: 432 وما بعدها .

[2] - المصدر السابق ، ص: 432 وما بعدها .

[3] - ينظر: ترجمته في كتاب الإمام السيوطي، المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، وكذلك ترجمته المختصرة في كتاب رياض الصالحين. النووي. دار الجيل. بيروت.1987. كما ينظر: روضة الطالبين. النووي. تح: محمد بن رياض الأحمد. المكتبة العصرية. صيدا: بيروت.2012.ص.ص: 54 وما بعدها.

كما يلح عليه البعد الاجتهادي الفقهي في ضرورة تجلية المعاني التشريعية الربانية حيث يدفعه كل ذلك، انطلاقا من عقليته العلمية، ليربط بين تدبر القرآن الكريم والمعاني الدلالية المحورية سواء أكانت روحية أو تشريعية.

و قد أشار إلى ذلك، في كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن) بشيء من التفصيل غير المملّ وقال رحمه الله: " فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر وأظهر من أن تذكر. فهو المقصود المطلوب وبه تشرح الصدور، وتستنير القلوب"[1]، أي بعد اتضاح الدلالات لها.

قال الله عزّ وجل: ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ**﴾ {النساء/82 }وقال تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَبَّرُوا آيَاتِه ولِيَتَذكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾ {ص /29} ، والأحاديث فيه كثيرة، وأقاويل السلف فيه مشهورة .[2]

وفي موضع آخر ينقل عن الإمام أبي حامد الغزالي "البكاء مستحب مع القراءة وعندها وطريقه في تحصيله أن يحضر قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك ".[3]

و التأمل هو تدبر الدلالات والمعاني القرآنية الظاهرة أو الخفية، والتي يمكن أن تفوته حيث تُحصر وتضبط عبر الوعد والوعيد المتعلقين بالجانب التربوي الروحي والمواثيق والعهود المتعلقة بالجانب التشريعي الفقهي. ذلك أن استجلاء هذه المعاني المتكاملة لا يتم بتدبّر الحروف عبر التقطيع الإفرادي على شكل وحدات صوتية منفصلة تُدعى الفونيمات، أو حتى الألوفونات والمورفيمات، والتي تمثّل المقاطع الصوتية سواءً أكانت ذات معنى، أم غير ذات معنى، لمعرفة المخارج والصفات حقّا ومستحقا كما يقول علماء التجويد في التراث العربي.

---

[1] - القصد المطلوب يريد به المؤلف في الاقتباس السابق من كتابه: تحصيل المعاني والدلالات من ألفاظ القرآن الكريم.

[2] - التبيان في آداب حملة القرآن، النووي. ص 59 .

[3] - المرجع السابق، ص 62.

إن البعد الأكوستيكي لا يتم "بدراسة الأصوات اللغوية مفردةً، أي غير المركبة في الكلام"[1]، بحيث يتم التركيز على الصوامت لا الصوائت، إذ إن هذه الأخيرة لا مخرج لها محققاً في المدرج الصوتي حتى يمكن أن نستجلي حيّزه. ولهذا، فهي تبعًا لحركات الحروف الصحيحة عند مدّها. وهذا يعني أن الجانب الفونولوجي هو الذي يحقق الجانب السماعي الأكوستيكي حيث تنتظم الحروف في بنيتها اللفظية ويكون لها جرسُ ونبرُ وتنغيمُ وإيقاعٌ تتم به الدلالة كنبرِ الاستفهام أو التقرير، والضابط لمعني السياق[2].

وكلّ هذه الجوانب التي أشرنا إليها باقتضاب على المستوى الفونيتيكي البحت، لها مبرراتها الحضارية والثقافية في عصر الإمام النووي. ذلك أن الفترة التي عاش فيها في القرن السابع الهجري -631ه/676ه-، " كانت الفترة التي ركدت فيها حياة الأدب، وأنشأ فيها الأدباء يحرصون علي الزينة اللفظية دون نظرة واعية إلي الفكرة أو المضمون، وكان من أثر ذلك عندهم أن جدّوا في التصنيع، أي الصناعة اللفظية، وأسرفوا في التماس أسبابه، وحاولوا أن يشققوا القول فيه، فظهر في صورة أخرى عير الصورة التي عرفناه عليها أيام نهضة الأدب العربي وقوته [3].

المبحث الثاني: الدلالة الصوتية في مستواها الفونولوجي الوظيفي

في ظلّ هذا الانحطاط الأدبي المريع بعد عصور الازدهار العباسي انتهى الأمر إلى "اضطراب الذوق، وكدّ الذهن، وبلادة الحس أحيانا"[4]. وقد تمّ تجاوز هذا الضعف اللغوي تزامنا مع الإصلاحات السياسية التي قادها ملوك بني أيوب في عصر الإمام النووي بعد التحدي الذي فرضه المغول والصليبيون معا على الأمة الإسلامية في مصر والشام، حيث تم الرجوع إلى إحياء القرآن والسنة النبوية حفظا وتفسيرا وتلاوةً وقراءاتٍ، وذلك من خلال عشرات المدارس التي

[1] - المختصر في أصوات اللغة العربية. دراسة نظرية وتطبيقية . محمد حسن حسن جبل،ط:5. مكتبة الآداب. القاهرة.2008. ص: 21.

[2] - ينظر: مبحث الدلالة الصوتية في كتاب دلالة الألفاظ إبراهيم أنيس. المكتبة الأنجلو مصرية.1958.

[3] - المدخل لدراسة البلاغة العربية . أحمد خليل، ط ، دار النهضة العربية، بيروت. 1982، ص: 6.

- البديع أحد علوم البلاغة الثلاث مع علمي البيان والمعاني ويقصد المؤلف بأيام نهضته ازدهاره على يد احد رواده الأوائل ابن المعتز .

[4] - المدخل لدراسة البلاغة العربية. أحمد خليل. مرجع سابق . ص:7.

بنوها في مصر والشام لإحياء منهج أهل السنة بعد أن أماته الشيعة الفاطميون قبل سقوط دولتهم في القرن الرابع الهجري .

وهكذا، تمت محاصرة الدراسات الكلامية والفلسفية الممتزجة بالمنطق اليوناني، والتي شتّتت فكر الأمة وبلبلت عقيدتها، مما أضعفها أمام أعدائها حكاما وشعوبا.

وكان من رواد هذا الإحياء الإمام النووي تدريسا وتنظيرا في القرن السابع من خلال كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن) لتجاوز هذا المرض الفكري واللغوي المتمثل في المبالغة في الزينة اللفظية وأشكال البديع نثرا وشعرا، وذلك بالعودة إلى تلاوة القرآن وتجويده على الطريقة الحقّة وتخليصه من هذه الشوائب التي تسرّبت إليه في عصر الضعف .

وهكذا، تطرق في كتابه ذاك إلى الانحرافات الناتجة عن المبالغة في الألحان المحرمة.

ففي الباب الرابع والثلاثين: باب "استحباب تحسين الصوت بالقرآن" من شرحه القيم لصحيح مسلم في الحديث النبوي الشريف[1].

استفتح الباب بحديث رواه أبو هريرة يبلغ به النبي صل الله عليه وسلم ((ما أَذِن الله لِشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن))[2] حيث يشير في شرحه لهذا الحديث بطريقة رائعة إلى الصوت القرآني ودلالته في تطابقهما:

أ – الصوت القرآني المقدس المبارك في أحرفه عندما يبلغ درجة التغني به، بمعنى تحسين الصوت به إلى أقصى حدّ عبر أداء المخارج والصفات في الحروف من طرف القارئ أو المرتل أو التالي المجوّد.

ب – دلالته المطابقة عندما تكتمل آياته وسوره فيكون معنى التغني به كما نقل معناه عن أحد فطاحلة علوم السنة النبوية والبيان، وهو الإمام سفيان بن عيينة رضي الله عنه، قال: " وعند سفيان بن عيينة يستغني به "شرحه لكلمة يتغنى بالغنى لا الغناء"، قيل: يستغني به عن الناس، وقيل

[1] - شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي. دار الغد الجديد ط: 8 ، مج: 5-6، تحق: محمد بيومي، القاهرة.2008. ، ص 71.

[2] - المصدر نفسه. ص:71

عن غيره من الأحاديث والكتب، قال القاضي عياض: القولان منقولان عن ابن عيينة، قال: يقال تغنّيتُ وتغانَيْتُ بمعنى استغنيْتُ"[1].

فالاستغناء هنا، بمعانيه وحقائقه الشاملة الكاملة، أي التخلي عن غيره مما يقوله الناس أو تحمله الأحاديث أو الكتب مما هو ليس بوحي تمثله هذه الأصوات القرآنية المتلوّة.

وقد نقل رحمه الله أن من معاني التغني بالقرآن الكريم سيطرة صفات صوتية معينة أي تغليبها عند القراءة سواء أكانت أصلية كالتفخيم والترقيق والجهر والهمس، أو عارضة ثانوية كالمُدُود والغنات وغير ذلك، بحيث تتلاءم إيحاءات الجرس بنبره وتنغيمه مع التحزين في آيات الموت والعذاب والوعيد عموما والتحسّر على ما فات، بينما يلجأ إلى التفخيم عند التحريض في آيات الجهاد والمسارعة إلى الخيرات، والحذر من كيد الشيطان دون الوقوع في عيوب القراءة البدعية المحرّمة كترعيد الحروف وترقيصها وغير ذلك. وهكذا، تتناسق إيقاعات القراءة مع جوّ المعنى وإيحاءاته في النص والسياق.

وهذا ما كان يحقّقه النبي صلي الله عليه وسلم في حياته تدبّرا وتمييزا بين قراءات أصحابه المرتبطة بظروفهم النفسية والملابسات الاجتماعية التي عاشوها كذكريات الدخول في الإسلام والابتلاء والفتنة بأعداء الله والثبات في الجهاد والغزوات.

لقد روى مسلم في صحيحه الحديث النبوي التالي: ((إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين)) [2] وكذلك استحبابه قراءة ابن مسعود وابن عباس فقد استفسر ابن عباس متعجبا كمل في الحديث الصحيح ((كيف أقرأه عليك يا رسول الله ؟، وعليك انزل ؟ ! وفقال عليه الصلاة والسلام إني لأحب أن أسمعه منك))[3].

---

[1] - شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي. دار الغد الجديد ط: 8 ، مج: 5-6، تحق: محمد بيومي، القاهرة.2008. ، ص 71..

[2] - شرح صحيح مسلم مرجع سابق ،رقم الحديث 4455 ،

[3] - شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي. دار الغد الجديد ط: 8 ، مج: 5-6، تحق: محمد بيومي، القاهرة.2008. ، ص 71.

و قد نقل الإمام النووي عن شيخه الإمام الشافعي وموافقيه : وترقيقها ، أي القراءة ، معناه تحزين القراءة .

ورجحوا التحزين على الألحان لكون القران جاء للخشوع والتدبر، فالدلالة الصوتية بمستواها الوظيفي الفونولوجي تنشأ من تضامّ الحروف في كلمات ملفوظة، ثم في آيات مَتْلُوّة، ثم في سور مقروءة ذات وحدة موضوعية عامة وحدي الربط في ذلك كلّه عدم إخراج الكلام عن موضعه لتحقيق عدم تغيير موضوعه ودلالته، ومن ثّمة، تحقق الدلالة لفظا ومعنى.

الضابـــط:

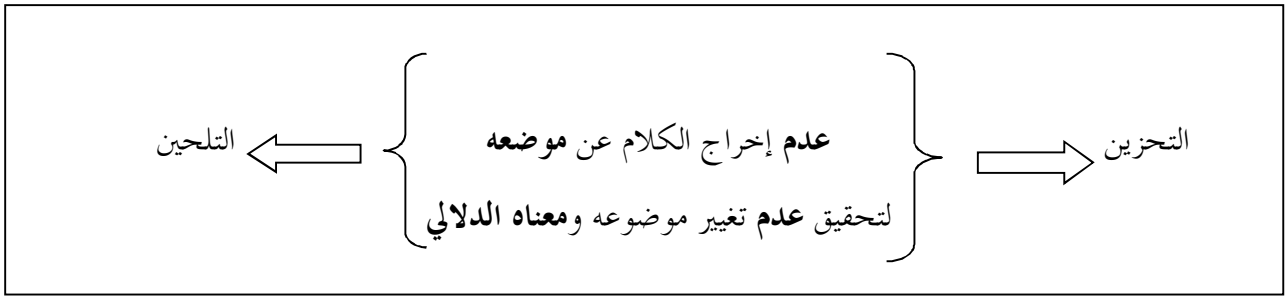

ويقصد بالموضع هنا البنية أو الصيغة أو الهيئة التي وجد عليها اللفظ أو الكلمة ابتداءً حتى تؤدي وظيفتها الفونولوجية كمورفمات أو ألوفونات كما تقرّرُ ذلك اللسانيات الحديثة انطلاقا من تأصيلات دوسوسير' Dessaussure ' إلي التفريعات التطبيقية التوزيعية لتشومسكي 'Chomsky' ويقصد بموضوع المعاني : كل ذلك مع الاحتراز المتيقظ ، من الوقوع في الاختلالات الصوتية عبر الزيادة والنقصان كما قال تعالى في كتابه الكريم محذرا الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداءً، من ذلك الانحراف ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيل لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِين** ﴾ **{الحاقة /45 }**

حيث يؤدي التحزين أو التلحين إلى الزيادة أو النقصان في الحروف القرآنية، كالخطأ في المُدُودِ من حيث كمياتها الصوتية والخلط بينها وعدم ضبطها:

- قصرا ،حركتان، يرمز لهما في علم القراءات سيميائيا بإشارة الإصبعين،

- أو توسّطا، أربع حركات، ويُعبّر عنهما سيميائيا بإشارة الأصابع الأربعة مع تنكيس الإبهام،
- أو طولا، ست حركات، ويعبر عنهما سيميائيا بإشارة اليد اليمني مضافا لها إبهام اليد اليسرى وكذلك الخطأ في الإدغام بغنة أو بغير غنة إلى غير ذلك.

وزيادة على هذا الاهتمام الفائق بالدلالة الصوتية التي هي الوحدة البنائية الأولى للدلالة الصرفية والاشتقاقية، والدلالة المعجمية، وذلك في إطارها التلفّظي المسموع، فإنه يهتم كذلك بصورة الصوت في الخط ؛كتابةً ورسمًا حيث يقول في عبارات دقيقة "و لا يهتم بتحسين الخط، بل بتصحيحه"[1]، لأنه – آنذاك، أي حتى عصر الإمام النووي في القرن السابع للهجري كانت الكتب تنسخ أو تستنسخ بيد من طرف الغير في ما يسمي منذ عصر الجاحظ بحوانيت الوراقين حيث تكتب بيد من طرف الخطّاطين بطلب ممّن يريد اقتناءه.

وكان الشيعة الفاطميون أثناء إقامة دولتهم الفاطمية الإسماعيلية الشيعية بمصر - حيث اتخذوا القاهرة عاصمة لهم في القرن الخامس والسادس الهجريين مع هيمنتهم علي بلاد الشام -، كانوا قد فرضوا الخط الكوفي على دواوين الوزارات ، ومدارس التعليم الشيعية ، وأشاعوا استخدامه لما **للكوفة** عندهم من قداسة خاصة.

وهذا الخط يتميز بذيول الزخرفة في رؤوس الحروف مع غموض النقط والإعجام فيه. و لم يتراجع استخدامه إلا بعد قيام الدولة السلجوقية والإصلاحات التي قام بها نور الدين زونكي ثم الأيوبيون بعده حيث بدأ تعميم خط النسخ الواضح في الحروف والتنقيط والإعجام.

ولهذا نبه الإمام النووي على هذا المشكل الذي ينتج عنه تغيير رسم صورة الحرف في الخط، أو الخطأ في الإعجام، ممّا ينتج عنه طمس هوية الكلمة بتغيير حروفها الأصلية بزيادة أو حذف أو تصحيف مما يؤدي إلى تغيير المعني الدلالي.

[1] - شرح مقدمة المجموع للإمام النووي. محمد صالح العثيمين، ط:1 ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ،2004 .ص: 254 .

ولهذا نجده -في غير النص القرآني- الذي حفظت حروفه بالرسم العثماني وجهود علماء القراءات مصداقا لقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونْ﴾ {الحجر/ 8} ، نجده في بقية الألفاظ البشرية المنسوخة خاصة أول ما يعتني به الضبط والشكل بالحركات والنقط ثم الميزان والشكل حتى تتضح له هوية الكلمة وصيغة بناءها، ومن ثمّة الوصول إلى طريقة النطق بها تلفّظًا وما ينتج عن ذلك من نبر وتنغيم وجرس له إيحاءاته الدلالية المشاركة في تحقيق المعني المراد سواء في حالة الوقف عليها، أو وصلها بغيرها.

ولعل الجدول التالي يوضح التناسق الموجود بين وجهي المنطوق والمكتوب في الدلالة الصوتية :

الضبط	العلاقات الصوتية	المرجعية الموجهة للدلالة ومجال التطبيق	طبيعة الصفات والمخارج
الضبط بالشكل والتنقيط	**ضبط الفونيمات (الصوتونات) سوءا كانت صوامت أو صوائت (حروف صحيحة أو حروف علة)**	**القراءات القرآنية** **علم التجويد** **مجال التطبيق** : كتاب **"التبيان"** ، كتاب **"شرح صحيح مسلم"** ، كتاب **"المجموع"** في الفقه الشافعي والمقارنة	**الصفات الصوتية الذاتية (رسما هي حروف الهجاء الأبجدية)**
الضبط بالفظ والميزان	**ضبط المقاطع الفونولوجية (المورفيمات) عبر القياس بالميزان الصرفي علي كلمات مماثلة لها في الحركات والسكنات والأحرف الأصلية والزائدة**	مصادر علم الإشتقاق والصرف العربي **المجال التطبيقي : الكتاب** الرائد الموجه لعقلية النووي وهو **"إصلاح المنطق "** لبن السكيت ، وكتاب **التصريف** من ألفية ابن مالك الأندلسي	**الصفات الصوتية الذوقية وهي : الصفات العرضية الثانوية الناتجة عن تفاعل الصفات الذاتية تأثيرا وتأثرا داخل حروف الكلمة الواحدة أو خارجها مع غيرها كتفخيم والإدغام والغنة.....الخ**

وفي الباب الخامس المتعلق بآداب حامل القران الكريم يورد الإمام النووي نصًّا مأثورا نفهم من خلال دلالاته وإيحاءاته أنه رحمه الله كان ينظر لنص القرآني كخطاب متكامل الأركان تماما كما توصلت اليه وصاغته اللسانيات الحديثة في العالم الغربي عبر نظرية رومان جاكبسون Romand JACKOBSON الرباعية الأبعاد وهي المرسل والمستقبل المتلقي، والرسالة، والمحتوى المعنويّ وهو ما يسميه الأصوليون الحنفية بـــ"فحوى الخطاب" و"مفهوم المنطوق "كما يسميه الأصوليون والفقهاء الشافعية في قواعد مذهبهم .

ينقل في" رواية عن الحسن بن علي رضي الله عنهما " أن من كان قبلكم، رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار" [1].

- التدبر ⟵ يمثل دلالة لفظية (سماع) + دلالة عقلية (فهم)،

- التفقد ⟵ يمثل دلالة حسية وضعية (من خلال الممارسة التطبيقية لما تم فهمه + ملاحظة مسار العمل.

المعنى المُتصوّر في الذهن كمرجع للدلالة

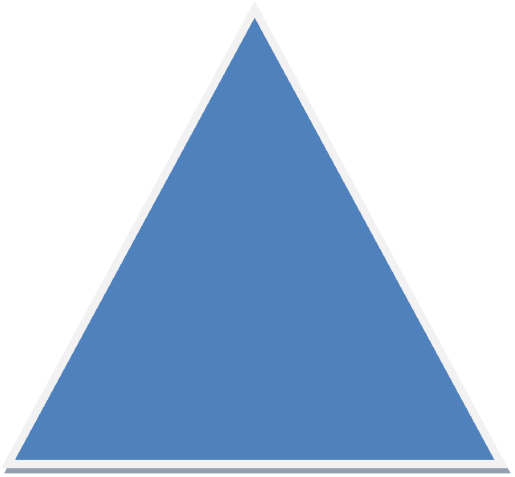

(المثلث الدلالي للنظرية الإشارية. نظرية معنى المعنى لأوغدن وريتشارز)[2]

ولهذا فهو يورد نصوصا كثيرة في استحباب ترديد الآية للتدبر.[3] ، أي تكرار ألفاظها عدّة مرات مع التركيز الذهني على التوغل أكثر في طلب المعنى المراد .

و يضاف إلى ذلك استحباب الترتيل حيث نقل المؤلف هذا القول "و الترتيل مستحب للتدبر وغيره"[4].

---

[1]- التبيان : مرجع سابق. ص 60 ،

[2]-علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي. عبد الجليل منور. دار الكتاب الحديث. القاهرة. ص: 75. - ينظر:

[3] - التبيان في آداب حملة القرآن، ص: 60.

[4] - المصدر نفسه، ص 62.

وينبه كذلك إلى الاستعانة بشكل ملحّ منه بأوجه القراءات القرآنية لاستجلاء المعاني والدلالات الراجحة عند تدبره، لأن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضا. يقول في هذا الصدد: "وتجوز قراءة القرآن بالقراءات السبع، المجمع عليها، ولا يجوز بغير السبع، ولا بالروايات الشاذة وإن كانت منقولة عن القرّاء السبعة [1].

وتتضافر القراءات السبع عند الإمام النووي من أجل تحقيق الدلالة في النص القرآني بهاذين الضابطين كحدّين جامعين مانِعيْن كما يقول المناطقة:

1 – أن تكون متواترة لأن الشاذ فقد حجته، فهو ليس من حروف القرآن وألفاظه على الغالب الراجح، فاعتماد معناه الدلالي تحريفٌ للقرآن فلا يجوز إذن، لا للتدبر ولا للتعبد. قال رحمه الله:" لو قرأ بالشواذ في الصلاة بطلت صلاته إن كان عالما "[2]. وذلك مراعاة لاكتمال النظم الذي يتم به المعنى العام، أو ما يسمي في علم التفسير بالوحدة الموضوعية للسورة ضمن النسيج اللغوي القرآني، وذلك عند الشروع في التلاوة والتدبّر بقراءة سبعية.

ويقول مستشهدا بنص آخر: " إذا ابتدأ بقراءة أحد القراء، فينبغي أن يستمر على القراءة بها ما دام الكلام مرتبطا، فإذا انقضى ارتباطه فله أن يقرأ بقراءة أحد من السبعة والأَوْلى دوامه على الأُولى في هذا المجلس "[3].

وهو ما يسميه بارتباط الكلام، أو ما سمّاه عبد القاهر الجرجاني في (أسرار البلاغة) قبله بالتعلق وارتباط الكلم بعضه ببعض نسقا وسياقا مراعاة لمعاني النحو؛ لأن دخول قراءة على أخرى، في ثنايا النظم الواحد ، يخلّ بالوحدة الموضوعية للسورة أو الدلالة الكلية للآية ، حيث يَلجأ إلى ما يعرف بالتوجيه النحوي للقراءات من أجل ترجيح المعنى الملتبس بسبب تعدد أوجه

[1] - التبيان في أدأب حملة القران . الإمام النووي، ص: 66.
[2] - المصدر السابق، ص: 66.
[3] - المصدر السابق، ص: 67.

الإعراب للّفظة الواحدة من خلال موقعها في الآية، أو تعلقها بما قبلها ،أو ما بعدها في ثنايا التراكيب القرآنية والسياق العام لها.

وعودًا على بدء ، من حيث انطلقنا ، من البعد الفيزيولوجي أولا ، نختم به في نهاية هذا المبحث حيث أثبتت "التحاليل العلمية المخبرية للجهاز الصوتي أن الوترين الصوتين يتحركان مع التفكير في كل صوت سوء أرسله الناطق أم لم يرسله ، فكمية اهتزاز الوترين الصوتيين، مع صوت –الباء- مثلا ثابتة مع كل صوت مُرسل مسموع أو خفي مكتوم ، وذلك لأن الصوت نتاج الفكر والتفكير " [1].

ويتوافق هذا مع ما نقله الإمام النووي في كتابه (التبيان) من حديث أم سلمة رضي الله عنها : ((أن قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مُفسرة حرفا حرفا))[2]. وقد نقل الإمام أبو حامد الغزالي وغيره من العلماء انطلاقا من الاجتهاد في هذا الحديث كما نقل النووي عنه : " فإن لم يخف الرياء فالجهر ورفع الصوت أفضل "[3]، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى غيره والمتعدي أفضل من اللازم " ومحل الشاهد في هذا النص الذي له علاقة باهتزاز الوترين الصوتين بالفكر أي المعني الدلالي المنبثق في الذهن قوله بعد ذلك " ولأنه يُوقظ قلب القارئ ، ويجمع همه إلى الفكر فيه" أي القران[4] .

[1]- ملامح الدلالة الصوتية في المستويات اللسانية ، د مكي درار .دار أم الكتاب ، مستغانم. 2003 .ص: 5.

[2]- التبيان في آداب حملة القرآن :مصدر سابق ص 72

[3]- التبيان في آداب حملة القرآن :مصدر سابق ص 72.

[4]- مصدر سابق. ص: 72.

المبحث الثالث: الدلالة الصرفية في أهم مؤلفات الإمام النووي (أصول نظرية ونماذج تطبيقية)

- المطلب الأول: الأصول النظرية للدلالة الصرفية

توطئة:

إن أول كتاب تلقاه الإمام النووي في اللغة العربية دراسة ومدارسة في مرحلة الطلب للعلوم اللغوية والشرعية، بعد قدومه دمشق في ريعان شبابه سنة 651ه هو كتاب (إصلاح المنطق) لابن السكيت - 186ه/244ه- [1].

وقد تشكلت عقليته اللغوية في فقه هذه اللغة الشريفة، صرفا واشتقاقا ودلالة من خلال التمرينات الصرفية التي كان يتدرب عليها فيه، بعد استيعابه لكتب الصرف النظرية كتاب (التصريف) المازني الكوفي وغيره ؛ إذ قد وجدت "منذ فترة مبكرة من تاريخ النص اللغوي، المؤلفات التي تنبه على لحن العامة وأوهام الخاصة وأغلاطهم وما ليس من كلام العرب"[2].

وقد كان الإمام النووي قد تتلمذ على كتاب ابن السكّيت (إصلاح المنطق) وقرأه مرات عديدة على مشايخه، كما درّسه إعادة على تلاميذه، وقد مر معنا أنه اتخذه ميدانا فسيحا للتطبيقات الاشتقاقية، أثناء ترسيخ ملكته اللغوية في فترة الطلب قبل أن يبدع معاجمه الغنية بالشواهد الاشتقاقية .

وأغلب الظن، أن الإمام النووي قرأ نسخة إصلاح المنطق من نسخة مكتوبة من: "أصل من الأصول العالية المعتمدة قُرئت في سنة 372 ه على الإمام الكبير أحمد ابن فارس أستاذ الصاحب ابن عباد ومؤلف المعجم الشهير (مقاييس اللغة) و(الصاحبي في فقه اللغة) و(المجمل) وغيرها، حيث أن اللافت للنظر، أن الإمام النووي يحيل كثيرا على كتاب (المقاييس) لابن فارس في

---

[1] -ينظر: إصلاح المنطق. ابن السكيت، شر/تحق: محمد شاكر. عبد السلام هارون. دار المعارف. القاهرة. 1970.

[2] - بناء الجملة العربية، د حماسة عبد اللطيف ، دار غريب. القاهرة.2003 . ص:9.

كتابيه الشهيرين لغة وفقها حيث درس بتوسع الدلالات الصرفية والاشتقاقية للألفاظ وهما : (معجم تهذيب الأسماء واللغات) " و(شرح صحيح مسلم) معتمدا على هذا المرجع كثيرا في توثيق أصول اجتهاداته الاشتقاقية زيادة على كتاب (إصلاح المنطق) لابن السكيت، والذي انتفع بقواعده الصرفية استنباطا لا تقريرا من خلال التمرن ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- كيفية التلفظ والنطق الفصيح للكلمات المفردة،
- دلالة الصيغ الصرفية والتفرقة بين عمومها وخصوصها كدلالة اللفظ على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، أو دلالة على بعضها[1].
- التفرقة بين الدلالات الحقيقية والمجازية،
- التفرقة بين الدلالات المحورية والهامشية،
- التمييز بين جذري*العلاقة الاشتقاقية في حالتي البعد والقرب، والحقيقة والمجاز بين أصلها وجذرها الاشتقاقي، وفروعها المتولدة.
- منهجية دراسة الدلالات الصوتية والصرفية ضمن النصوص والتراكيب حتى يتضح بها السياق بقرائنه والاشتقاق بعلاقاته .

ولهذا فإن كل مطالع لمحتويات الكتاب (أي إصلاح المنطق)، يجد فصوله مصدّرة بكلمة تقول في كذا كذا وقال في كذا كذا ويقال في كذا كذا حيث تدل:

- صيغة المبني للمعلوم موجهة للمخاطب (تقول) على سند الرواية اللغوية وصحتها القوية وبالتالي تدال على فصاحة الكلمة المسرودة،

[1]- ينظر: الصفحة 290 وما بعدها من كتاب (إصلاح المنطق).

* - الجذران : المقصود بهما ، المشتق ، أو الأصل والفرع.

- بينما تدل صيغة قال ،و يقال، على صيغة التضعيف والتمريض التي يشترك فيها المحدثون مع اللغويين والتي تدل ربما على ضعف الرواية أو شذوذها، أو إنفرادها وغرابتها وبالتالي عدم فصاحة اللفظة نطقا ودلالة.

ويدل مصطلح القول هنا على أن الإمام النووي كان يدرس مستويات الألفاظ في بنيتها التركيبية سواء أكانت صوتية أم صرفية أم معجمية دلالية أم نحوية بلاغية أم أصولية فقهية، وذلك بوصفها خطابا متكاملا كما تقول لسانيات النص حديثا. ويؤكد ذلك نحوًا ما رسخ في ذهنه من شيخه العلامة الفائق الشهرة، الجلي بالذكر محمد بن مالك الأندلسي الذي تتلمَذ عليه في دمشق في فترة الطلب حيث يقول في مقدمة ألفيته :

كَلاَمُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ إسْمٌ وفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ

وَاحِدُه ُكَلِمَةٌ والقَوْلُ عَمَّ وكِلْمَةٌ بِهَا كَــلاَمٌ قَــدْ يُؤَمْ[1] .

نلاحظ كيف أن اللفظ لأهميته، هو مصدر من الناحية الصرفية أريد به المفعول. والمصدر هو قاعدة إنتاج الكلام، أي مصنع لساني تنحت فيه الأصوات وتركب.

1- لتكوين الدلالة الأصلية للمسميات، أو لما يتعلق بها من حوادث مقترنة بالزمن (أفعال وصفات).

2- للتبليغ : لأن المعنى اللغوي لكلمة لفظ بمعنى طرح ورمى توحي كذلك بالحركة المقصودة للتلفّظ أي معنى التبليغ والتواصل اللساني وهو ما يقودنا إلى الثنائية اللسانية لدوسوسير اللغة ≠ كلام .

فالمصدرية في الإطار الصرفي تحيل إلى اللغة كمخزون لساني عام في ذاكرة الأمة ككل، وفي هوية الشخص كذلك.

والمفعولية المُصَاغة من المصدرية والدلالة الإيحائية للطرح والرمي توحي بمنتوج الكلام الذي هو حاجة لسانية فردية يتحكم فيه القصد والوضع نسقا وسياقا إفرادا وتركيبا.

[1] - إرشاد السالك. شرح ألفية ابن مالك. عبد المجيد الشرنوبي، المكتبة العشرية.صيدا/ بيروت ، الجزائر ،2012. ص: 10

المطلب الثاني :طرق تناول الدلالة الصرفية الخاصة

1. إذا كان الإمام النووي قد ركز في دراسة الدلالة الصوتية التي ألممنا بملامحها في الفصل السابق على الميدان القرآني المتعلق بقراءات والتجويد من خلال كتابه التبيان في (آداب حملة القران) لارتباط ذلك بمصدر التشريع الأول في المنظومة الإسلامية باعتباره قطعي الثبوت، متواتر بلفظه ومعناه، ومتعبد بتلاوته، فإنه فيما يخص الدلالة على المستوي الصرفي والاشتقاقي؛ فهو أكثر ارتباطا بمتن اللغة خارج النص القرآني من خلال شرحه وتعليقه على بنية الألفاظ وصيغها وهيئاتها، وهي داخل نسيجها التركيبي في النصوص، كما فعل في شرحه ل(صحيح مسلم)،و كذلك في شرحه الموسوم بعنوان (المجموع في شرح المهذب) للشرازي، حيث يبدو الاهتمام جليّا بالدلالة الصرفية لمبررات عقلية وشرعية قوية تتمثل في كون صحيح مسلم يمثل الكتاب الثالث الأصح كمصدر للشريعة في السنة النبوية بعد القرآن الكريم وكتاب (صحيح البخاري).

أما بالنسبة لكتاب (المجموع) ، فهو أشبه بالموسوعة الشاملة في الفقه المقارن لمختلف المذاهب انطلاقا من المذهب الشافعي، فالأمر فيه يحتاج إلى العودة إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية من أجل الاستدلال والقياس، ثم الترجيح بين أقوال أئمة المذاهب سلفا وخلفا.

2. كما تناول الدلالة الصرفية للألفاظ وهي منفصلة عن تراكيبها الحقيقية في كتبها الأصيلة، مع الاحتفاظ بسياقاتها الزمنية والمكانية سردا في المعجم ،وذلك من خلال التراجم المضافة للأعلام والتوضيحات اللغوية لها كما في(معجم تهذيب الأسماء واللغات).

3. أو من خلال فصلها عن تراكيبها الأصلية في النص، وعن سياقاتها فيه، مع جعلها قريبة من النص في الهامش مباشرة كما هو الحال في كتابه الشهير (رياض الصالحين) [1] حيث توضع الألفاظ التي تحتاج إلى شرح وضبط، أو إلى ضبط صرفي فقط، لتوجيه معناه حتى يتّضح من خلال الصيغة الاشتقاقية في الهيئة المعدّلة. وسندلل على ذلك من خلال النماذج التطبيقية التي سنعالجها من هذا الكتاب.

[1] - اعتمدنا علي طبعة دار الجيل ،بيروت التي راجعها د، محمد جميل غازي.

4. قد يقوم المؤلف بجمع الألفاظ- المراد ضبط صيغتها الصرفية، وهيئتها البنائية في ملحق بذيل الكتاب المستقاة منه؛ حيث تبدو منفصلة ببعد واضح عن تراكيبها الأساسية، وجملها في نصوصها الأصلية في الكتاب، وكذلك عن سياقاتها، إلا أنها ضمن دفتيّ الكتاب نفسه بحيث يسهل الرجوع إلى معناها بعد الضبط الصرفي لهيئتها الاشتقاقية وحروفها البنائية، أو التمييز بين أوجه نطقها إذا كانت من 'اللغات' كما يسميها، أي اللهجات العربية المعتبرة للقبائل المعترف لها بالاستشهاد اللغوي .

5. و قد استخدم هذه الطريقة نفسها في ضبط ألفاظ كتاب (المنهاج) في الفقه الشافعي، والذي لم يُتمّه حيث توفي رحمه الله ،بينما نرى أنه يلجأ في كتيّبه (دقائق المنهاج) إلى ضبط إضافيّ زيادة على الضبط الأصلي في الشرح الكبير من خلال تصيّد ألفاظ معينة لفتت انتباهه، جمعها في هذا الكتيّب لرفع اللّبس الموهم في معانيها، أو لتوضيح الفروق الدلالية بينها وبين ألفاظ المتن المشروح، ومن أجل ربطها بتراكيبها ومضانّها في كتبها الأمهات، لتتضح سياقاتها الموجهة لدلالتها المحورية أو الهامشية لذلك فإنه يذكر في (دقائق المنهاج) أن اللفظ ورد في باب كذا من باب الصلاة، أو باب البيع كما سندلل على ذلك في نماذج تطبيقية.

- نماذج تطبيقية من كتاب رياض الصالحين :

إن الدلالة الصرفية والاشتقاقية ، قليلة في كتاب (رياض الصالحين) لكون المؤلف قام فيه بتوضيح وشرح بعض الألفاظ المفتاحية التي تتعدد أوجه ضبطها وبالتالي معناها، وذلك تماشيا مع طبيعية الكتاب ؛ كما قال عنه مؤلفه في المقدمة: "فرأيت أن أجمع مختصرا من الأحاديث الصحيحة مشتملا على ما يكون طريقا لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلا لآدابها الباطنة والظاهرة "[1].

فطبيعة الكتاب وعظية إرشادية، لذا صدر أبوابه بآيات قرآنية مُعينة على صنع الجو العام للموعظة ،ضمن السياق المؤطر لتفعل الأحاديث- بعدها - فعلها الهادي في نفس المتلقي.

[1]- رياض الصالحين ، الأمام النووي، مرجع سابق ، ص: 04.

ولو أخذنا نموذجا تطبيقيا منه الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ((من يُرِدْ الله به خيرا يُصب منه))[1] .

و يعلق رحمه الله تحت الحديث مباشرة على كلمة 'يصب' فيقول : " وضبطوا يصب بفتح الصاد وكسرها، فينبه على صيغة الفتح يُصب حيث ينتقل الفعل من صيغة المبني للمعلوم يُصِب إلى صيغة المبني للمجهول ، والمعني الدلالي الناتج عن تغيير حركة حرف الصاد، بفتح أو كسر هي:

- أن حركة الفتح : يُصَب تدل على التهويل
- وأن حركة الكسر يُصب تدل على التقليل

1 - ذلك أن الفعل المبني للمجهول يُصب له تعلق باسم الجلالة على المجاز لا على الحقيقة عقيدة وتوحيدا لقوله تعالى ﴿**وَ مَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينْ**﴾ {التكوير/29 }، ولقوله تعالى ﴿**وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾{الشورى/30}.

والعفو عن الكثير في الآية الكريمة، يتوافق مع من التبعيضية الداخلة على الفعل المضارع، والدالة على التخصيص والتقييد والجزئية والفعل المضارع هنا : مبني للمعلوم وهو الفعل 'يُصِب'.

2 – وفي صيغة المبني للمجهول وكأن الفاعل مجهول لكثرة المصائب المًطِيشَةِ بالعقل وإن كانت لا تؤدي إلى الهلاك التام، فلا يدري المرء لمن ينسبها، وذلك كما هو واضح في الحديث الآخر في نفس الباب:

- **باب الصبر**: والذي أوردناه مقدما بصفحات، عن الحديث المدروس سالفا ونصه: عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صل الله عليه وسلم قال ((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)). [2].

[1]- رواه البخاري- تحت رقم 15 /40.

[2] - حديث متفق عليه.

وإذا جئنا إلى الأسماء فإنه يعلق على كلمة 'الصُرف بالضم' تمييزا له عن الصَرف بالفتح بمعني الإبعاد والتجنيب كما في قوله تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذِينَ يَتَكَبّرُونَ فِي الأَرْضِ**﴾ {الأعراف/146}.

وهذا المعنى لغويّ بحت، وهناك المعنى الاصطلاحي عند فتح الصاد، أي الصَرف وهو" علم يبحث فيه عن أحوال الكلمة من حيث التجرّد والزيادة، والصحة والإعلال، والجمود والاشتقاق وغيرها[1].

ثم هناك 'الصِرْفُ' بكسر الصاد : وهو المجرد الخالص من كل شيء. فلو لم تضبط حركة هذا الاسم المثلث الدلالة لالتبس المعنى.

و نأخذ نموذجا تطبيقيا ثالثا من الباب نفسه، وهو الصبر في الحديث النبوي الشريف ((ليس الشديد بالصُرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب)) على وزن فُعل، حيث ينتقي المؤلف الكلمة المفتاحية وهي 'الصُرعة' بضم الصاد وفتح الراء، وأصله عند العرب: من يصرع الناس كثيرا .

- **التحليل**:

أ - فهنا نراه زيادة على ضبط الصيغة الصرفية للحركات .

ب – يشير إلى المأخذ الاشتقاقي بالمعني، أي الاشتقاق المعنوي لا اللفظي ويذكر فيه المصدر الاسمي ويقول هو من يصرع الناس.

ج – ثم أخيرا يشير إلى دلالة الصيغة الصرفية الصُرعة على وزن فُعلة كهُمزة، وهي المبالغة في دلالاتها الصرفية العامة وقد تعني التضاعف.

[1] علم الصرف العربي. أصول البناء وقوانين التحليل، صبري متولي ، دار غريب . القاهرة. 2004. ص:10.

وكنموذج رابع؛ ففي رياض الصالحين يتطرق في أحد الأحاديث إلى الفعل" يَنَهَزَه" بفتح الهاء والياء والزّاي ثم يأتي بالدلالة المعجمية دائما بعد الضبط الصرفي فيقول: أي يخرجه وينهره وضبطه لهذا الفعل هو هنا استعمال ثان، على غير القياس، أي على وزن فعل يفْعُل بينما الشائع المشهور لهذا الفعل هو نهز ينهِز، وبالتعدية للمشاركة انتهز ينتِهز بكسر الهاء فيه فينبه على ذلك دون ذكر الوزن ليوضح الفرق بين الدلالة المذكورة وفق مفهوم المنطوق الذي تستخدمه الشافعية كثيرا والذي يفهم ما خفي أو غاب بمفهوم المخالفة، وهو ضابطٌ أصوليّ آخر عند الشافعية في أصولهم يضاف إلى دلالة الاقتضاء بقرينة الذكر أو الإشارة. وهو ما استخدمه النووي في ذكر صيغ الأفعال ما انْقَاسَ منها وما شذّ سواءً أكانت فَعَلَ يَفْعُلُ بضم العين، أم فَعَلَ يَفْعِلُ بكسر العين، أمْ فَعُلَ بضم عين الماضي يَفْعُلُ وهي الأفعال الدالة على الجبلة كجَبُنَ وحَسُنَ بضم الباء والسين.

فنَهَزَ ينَهِزُ الفرصة بمعنى اغتنمها والشائع منها اِنتْهَزَ ومن اشتقاقاته المعاصرة في التداول الحديث " الانتهازية". **أي** الانتفاع بغير وجه حق.

أما في سياق آخر، فإنه يحدّد الدلالة اللفظية المفردة طبقا لورودها في التركيب، فيتوجه مباشرة إلى معناها في السياق متجاوزا دلالتها الصرفية المعجمية. ومن ذلك قوله في (رياض الصالحين): " والصعيد هنا الأرض البارزة"[1].

فاستخدامه لكلمة 'هنا'، أي في سياق النص، تمييزٌ لهذه الدلالة العامة الأصلية الحسية عن الدلالة الخاصة الفقهية الرمزية ،و هي المستخدمة في كتب الفقهاء بمختلف مذاهبهم في باب الطهارة بمعنى الصعيد الطاهر أي الذي تصح الصلاة فيه واستخدامه قبل ذلك للتيمم كالتراب وغيره.

[1] - رياض الصالحين. مرجع سابق. ص :2.

حوصلة النتائج :

إن الدلالة الصرفية والاشتقاقية قليلة في كتاب (رياض الصالحين) لكونه اهتم بتوضيح وشرح بعض الألفاظ المفتاحية التي تتعدد أوجه ضبطها، وبالتالي معناها، وذلك تماشيا مع طبيعة الكتاب كما قال عنه مؤلفه في المقدمة " فرأيت أن أجمع مختصرا من الأحاديث الصحيحة، مشتملا على ما يكون طريقا لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلا لآدابه الباطنة والظاهرة "[1].

فطبيعة الكتاب وعظية إرشادية، ولهذا صدره في كل باب بآيات قرآنية مُعِينة على صنع الجو العام للموعظة، ومُشكّلة للسياق وإطاره لتفعل الأحاديث فعلها ثم يشرح الألفاظ ملتبّسة المعنى.

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية في التحليل الصرفي

أ- **إنه** يبدأ بضبط تغيرات الحركة عند تحديد نطق اللهجة بالإشارة إلى الوجهين: كسر الهمزة وفتحها. وبدأ بالمكسور رغم أن المثال الأول بالفتحة 'أَنِيٌ' ثم 'إِنِيٌ' لأنها أخفّ الحركات نطقا أنين وإنين مفرد أنا.

ب- **ينتقل** بعدها إلى ضبط الحروف بعد الحركات، مع الإشارة إلى ما اعتراها من قلب أو إعلال فيقول 'و إِنِيٌ ، إِنوٌ ' بياء في الكلمة الأولى، وواوٍ في الصيغة الثانية، وهمزة مكسورة في الصيغتين، فيشير إلى الإعلال الحاصل دون تفسيره، وذلك بين الياء والواو في لام الكلمة. والشيء نفسه يفعله عند الحديث عن كلمة **آلاء** السابق ذكرها، والتي يقصد بها النعم. ويقول ' ففي واحدها أي مفردها ': أربع لغات، أَلِيٌ، وإِلِيٌ، وأُلْيٌ، وإِلوٌ، والملاحظ هنا أنه رحمه الله يلجأ إلى الرسم الكتابي بالحروف لرفع اللبس عن النطق الصوتي ولتحديد الوظيفة الفونولوجية للكلمة فيقول هكذا في مفرد آلاء: أَلِيٌ وإِلِيٌ وأُلْيٌ وإِلوٌ . فلمّا حدث قلبٌ وإعلالٌ في لام الكلمة من حرف الألف المقصورة

[1] رياض الصالحين للإمام النووي،: مرجع سابق، ص 4.

المقدرة فيها الحركة إلي الياء الصحيحة الحية كياء ضيف وصيف والمضبطة بالحركة، لم يجعل رحمه الله همزة القطع رسما فوق الألف لكي لا تلتبس 'إليٌ' بالياء الحية كحرف صحيح ب "إِلى" بالألف المقصورة كحرف علة لا كحركة عليه [1].

ت- إذا كانت الصيغ الصرفية المستعملة ليست لغات أصيلة، فإن الإمام النووي في هذه الحالة لا يشير بالنص الصريح إلى كلمة لغة، بل يأتي بصيغة التمريض الدالّة على التضعيف كما يقول المحدثون؛ وعلى أن هذه اللفظة بهذا الوصف والصيغة مهملة ، أو استعمالها محمد و لم ترق إلى أن تكون لغة بمعنى لهجة مشهورة متواترة كلهجات تميم أو طيء أو غيرها .

[1] - ينظر: التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق.. ص: 131 .

الفصـــل الرابـــع

دلالة الألفاظ في ضوء النظريات الدلالية الحديثة

- المبحث الأول: دلالة اللفظ عند النووي بين المنهج والنظرية في الدراسات المعاصرة.

- المطلب الأول: ملامح النظرية الإشارية في التراث الدلالي للإمام النووي.
- المطلب الثاني: ملامح النظرية التصورية في التراث الدلالي للإمام النووي.
- المطلب الثالث: ملامح النظرية السلوكية في التراث الدلالي للإمام النووي.
- المطلب الرابع: ملامح النظرية السياقية في التراث الدلالي للإمام النووي.
- المطلب الخامس: ملامح النظرية التحليلية في التراث الدلالي للإمام النووي.

- المبحث الثاني: الجهود الدلالية عند الإمام النووي في ضوء نظريات القراءة المعاصر

- المطلب الأول: مستوى الأداء القرائي في كتاب (التبيان) .
- المطلب الثاني: مستوى الحفظ القرائي في كتاب (التبيان).
- المطلب الثالث مستوى الفهم القرائي في كتاب (التبيان).
- المطلب الرابع: مستوى التذوّق القرائي في كتاب (التبيان).

الفصل الرابع

دلالة الألفاظ في ضوء النظريات الدلالية و القرائية الحديثة

- المبحث الأول: دلالة اللفظ عند النووي بين المنهج والنظرية في الدراسات المعاصرة

توطئة:

وبعد أن تناولنا مختلف مستويات التحليل الدلالي للألفاظ المفردة بمنهجية تراتبية، وبنا تسمح به طبيعة البحث، من المستوى الصرفي إلى المستوى المعجمي مع ذكر نماذج تطبيقية من المؤلفات المدروسة، نحاول الإجابة على السؤال المنهجي والآتي:

ما مدى تحقّق المعطيات التي أتت بها بعض المناهج والنظريات الدلالية المعاصرة في مؤلفات الإمام النووي، ولو من باب التلميح لبعض عناصرها وأركانها في كتبه اللغوية والفقهية والحديثية؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال الذي نراه مهما، نشير إلى جهد بعض الباحثين الأكاديميين في ميدان الدلالة في التفريق بين النظرية والمنهج، ومنهم الدكتور عبد الجليل منقور الذي يفرق في كتابه (علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي) بين المناهج الدلالية والنظريات الدلالية، حيث يُفهم من سياق كلامه أنه يجعل المناهج أصلا للنظريات. فالمناهج تعالج المدلولات من البنية والسياق والخطاب، بحيث أنها تؤطر النص في كلّيته، بينما النظريات تعالج عناصر المعنى من خلال الربط بين الدوال والمدلولات بحثا عن مرجعها ومتعلقاتها[1].

[1]- علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي. دار الكتاب الحديث.. الجزائر. 2011. ص: 73 وما بعدها.

كما أن النظرية تتميز بأن لها مرجعيتها الفكرية والتاريخية وما يتبعها من تصورات ومعالم وقواعد تخصّ عمق الخطاب وبنيته، بينما المنهج هو مجموعة خطوات للمعالجة والتأطير.

وإذا نظرنا إلى الإمام النووي ضمن هذه المعطيات، نجد أنه انطلق، كما مرّ معنا سابقا، من نظرية فقهية متكاملة هي نظرة الأصل والظاهر التي تبيّن لنا ، كما سيأتي، أنها قد استوعبت مختلف عناصر النظريات الحديثة في دراستها لدلالة الألفاظ واستخدامه لها في معالجة مختلف المستويات كما بيّنا ذلك في النماذج التطبيعية من مختلف مؤلفاته.

وسنتناول في هذا المبحث من هذا الفصل حضور العديد من الأفكار التي أتت بها النظريات الدلالية الحديثة في خطابه الفقهي واللغوي سواء تعلق الأمر بالنظرية الإشارية، أم النظرية التصورية، أم النظرية السلوكية، أم النظرية السياقية التي هي أكثر تمظهرا في تراثه الدلالي.

المطلب الأول: ملامح النظرية الإشارية في التراث الدلالي للإمام النووي

إن إلمام الإمام النووي ببعض العناصر التي أتت بها النظرية الإشارية، يظهر من خلال اهتمامه الكبير بالمستوى الصوتي كمستوى قاعديّ أوّلي في التحليل الدلالي لبنية الألفاظ والتراكيب. وقد خصّص لتحليل الألفاظ والتراكيب القرآنية كتاب (التبيان في آداب حملة القرآن)[1]، وفيه حلّلنا نماذج كثيرة للتمثيل التطبيقي.

ولما كانت هذه النظرية " تشكل في مسار علم الدلالة الحديث أولى مراحل النظر العلمي في نظام اللغة، بل إلى أصحابها يرجع الفضل في تمييز أركان المعنى وعناصره، معتمدين في ذلك على النتائج التي نوصل ليها فيرديناند دو سوسير في أبحاثه اللسانية التي خص بها الإشارة اللغوية باعتبارها وحدة لغوية متكونة من دالّ ومدلول"[2].

[1]- التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. تحق: عبد العزيز السيروان. ط:4 . دار النفائس.2005. وينظر: الفصل الثالث من الباب الأول من هذا البحث .

[2] - علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي. دار الكتاب الحديث.. الجزائر. 2011. ص: 74.

ونص فيرديناند دو سوسير الأصلي هو:" L' Unité linguistique est composé d'un signifiant et d'un signifié "[1] .

وينتج عن العلاقات بين الدّال والمدلول رسالة خطاب تنتقل من المرسل إلى المتلقي، حيث تصل الكلمة الصوتية المبثوثة إلى المتلقي لتتحول إلى إدراك نفسانيّ في ذهنه وإلى مدلول يستوعبه يمثل فكرة مركزية باعتبار وجودها في الذهن وإلى فكرة محورية باعتبار مجموعة الأفكار الهامشية التي تقترن بها وبالدّال"[2] .

لقد تطرق الإمام النووي للإدراك النفساني للكلمة الصوتية من جانبين اثنين أولهما:

- ذكر روابط السياق الثقافي والاجتماعي الذي يحدث فيه التلقي سماعاً من أجل تحقيق الدلالات الهامشية التي تسميها النظرية الإشارية بأركان المعنى وعناصره وذاك في الخطاب المتفاعل بين المرسل وهو الشيخ المقرئ والمتلقي وهو التلميذ الناشئ. ففي المجال النفسي المتعلق بتلقي النص القرآني دون مقررات، يقول عن المتعلّم:" ويدخل على الشيخ كامل الخصال[...] فارغ القلب من الأمور الشاغلة"[3]. ويقول عن المتعلم:" وألاّ يقرأ على الشيخ في حال شغل قلبه، وملله، واستيفازه، وروعه، وغمّه، وفرح، وعطشه، ونعاسه، وقلقه، ونحو ذلك ممّا يشقّ عليه من كمال حضور القلب والنشاط"[4].

أما ثانيهما المتعلق بالمدلول أو الفكرة، فإنه يضبطه في الألفاظ مفردةً كانت أو مركّبة من وجهتين، إحداهما داخلية والأخرى خارجية. فالداخلية تتعلق ببنية اللفظ وما تشير إليه إما إشارة صوتية عبر نبر الحرف وإيحائه، أو إشارة صرفية للمعنى من خلال صيغ الاشتقاق، أو إشارة معجمية للمعنى ثابتةً أو متطوّرة، محورية أو هامشيّة، عامة أو خاصة.

---

[1] - DESSAUSSURE. Ferdinand. Cours de linguistique générale. Ed : Casbah. Alger. 2003.

[2] - ينظر: علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي. دار الكتاب الحديث.. القاهرة. 2011. ص: 74

[3] - التبيان في آداب حملة القرآن. مصدر سابق. ص:38.

[4] - التبيان في آداب حملة القرآن. مصدر سابق. ص:39.

وقد عالج كلّ ذلك في شواهد مطوّلة تفوق الحصر في معجمه الكبير (تهذيب الأسماء واللغات). وقد تناولنا منها نماذج تطبيقية في الباب الأول بفصوله الثلاثة السابقة. والوجهة الثانية في الدلالة الإشارية، يلجأ إليها عند الضرورة عند تناوله للتراكيب الأصولية والنحوية، وخاصة هذه الأخيرة عندنا يعالج اللفظ في التركيب أو الجملة من خلال موقعه الإعرابيّ فيها، بالتقديم أو التأخير، أو الحذف أو الذكر وما يتبع ذلك من حركات إعرابية توجّه الدلالة الإشارية كدلالة الحال على أوصاف الأشياء، ودلالة التمييز على خصائص الأشياء، وكالفاعلية والمفعولية أو الظرفية.

وعموما، فإن الإمام النووي، خارج القرآن الكريم، يضبط الكلمة وشكلها عبر توجيه الحركات الصرفية والإعرابية ضمن دائرة التنوع اللهجي، وصولا إلى ترجيح الأفصح. ولترسيخ الإدراك النفساني للكلمة الصوتية يلجأ إلى التنبيه الملح على إتقان أحكام التجويد وتوجيه القراءات القرآنية بالنسبة للشيخ المرسل خاصة ليحقّق الدّال أثره كاملا، وهو اللفظ المنطوق. كما يلح على التدبر والتفكّر لدى القارئ والمتعلم ليتحقّق المدلول بكلّ أركان المعنى وعناصره.

ولما كان الباحثون قد انقسموا في ما يخص معنى الكلمة أو المفردة وما تشير إليه إلى رأيين "أ: رأي يرى أن معنى الكلمة هو ما تشير إليه. ب: رأي يرى أن معنى الكلمة هي العلاقة بين التعبير وما يشير إليه. فدراسة المعنى على الرأي الأول تقتضي دراسة جانبين من المثلث، وهما جانب الرمز والمشار إليه. وعلى الرأي الثاني تتطلب دراسة الجوانب الثلاثة، لأن الوصول إلى المشار إليه يكون عن طريق الفكرة أو الصورة الذهنية"[1].

ويبدو أن الإمام النووي، باعتباره أصوليا وفقيها، يأخذ بالاتجاه الثاني الذي يشمل جوانب المثلث الدلالي الثلاثة في دراسته لدلالة الألفاظ مفردة ومركبة، أي الكلمة كرمز ملفوظ، وما تشير إليه في الخارج، ومحتواه الفكري في الذهن. ولذا ، فهو يربط دائما في مؤلفاته الفقهية والحديثية بين

[1] - علم الدلالة. أحمد مختار عمر. ط:2.دار عالم الكتب. بيروت. 1988. ص: 55.

المعنى اللغوي والمعجمي والمعنى الاصطلاحي، شرعيا كان أو وضعيا عرفيا. وعند إنزال الحكم الشرعي على الواقع لتحقيق المناط، ينبه إلى الشيء الخارجي الذي يشير إليه اللفظ رابطا الدّال بالمدلول.

المطلب الثاني: ملامح النظرية التصورية في التراث الدلالي للإمام النووي

تعتمد النظرية التصورية على " مبدأ التصوّر الذي يمثله المعنى الموجود في الذهن **[...]** حيث أطلق بعض الباحثين على هذه النظرية اسم النظرية الفكرية، لأن الكلمة تشير إلى فكرة في الذهن، وأن هذه الفكرة هي معنى الكلمة"[1].

وإذا كان التصور كمرجع أساسيّ يعتمد عل الرؤية الوجودية الكلية للكون والحياة والإنسان، والتي تشكّل كما يسميه الإمام النووي مذهبا، لا بمعناه الفقهي الضيّق، ولكن بمعناه الفلسفي العقدي، فإنه أسس في دراسته لدلالة الألفاظ اللغوية والفقهية، إفرادا وتركيبا، لجذور هذه النظرية في تراثه الدلالي كما سنأتي بالشواهد على ذلك من أهم مؤلفاته.

وقد مرّ معنا سابقا أن تأصيل مرجعيته الفكرية العامة قد بدأه في كتابه (الأصول والضوابط) بالحديث عن القدر كمنبع معرفيّ عام، سواء تعلق الأمر بسننه الكونية في عالم الشهادة، أو بأوامر الله التشريعية الآنية من عالم الغيب.

وقد عبر عن ذلك بقوله:" مذهب أهل السنة والجماعة في القدر أن الكائنات جميعها خيرها وشرها بقضاء الله وقدره"[2].

وقد أشرنا في الفصل المتعلق بالمنابع المعرفية للإمام النووي، أنه كان مُتابِعا في ذلك للإمام الشافعي، قدوته في المذهب فينا ذكره في الرسالة. فبقدرة الله ينشأ الخلق والخلائق، وعلى رأسها

[1]- علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي. دار الكتاب الحديث. القاهرة. 2011. ص: 76.

[2]- الأصول والضوابط. الإمام النووي. مصدر سابق. ص:5.

الإنسان الذي يجب أن تحكنه شريعة الرحمن في عباداته ومعاملاته ضمن أصول وضوابط لمثّل قواعد فقهية تستوعبها نظرية الأصل والظاهر[1].

والاجتهاد من الفقهاء في القضاء والفتوى عبر الردّ إلى الله الرسول (ص)، وما ينتج عن ذلك من علوم آلة لمعالجة الدلالة تمثّل شروط الاجتهاد كاللغة والنحو والأصول وغيرها، والمستخدمة في ضبط الأحكام ومصطلحات الألفاظ. كلّ ذلك يؤول إلى الأفكار التصوريّة بوصفها مرجعا للدلالة في هذه النظرية. ويكون ذلك عبر تجليات الأفكار والمعاني بالشرح لينجلي الغَبَش على التصوّر.

ولذا، يستخدم الإمام النووي كثيرا مصطلحات التحرير والتهذيب والدقائق والإشارات ولو أخذنا تعليقاته على اسم آدم عليه السلام من كتابه (التهذيب) في جزئه الأول[2]، لوجدناه يحلّل البنية التصورية لهذا اللفظ العلم إلى ثلاث حقائق تصوّرية يرتبها في شرحه كالآتي:

1- الحقيقة التصورية القدرية: " كنيته أبو البشر ويقال له أبو محمد، خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وأسكنه جنّته"[3].

2- الحقيقة التصورية الرساليّة: " واصطفاه وكرّم ذريته وعلمه جميع الأسماء وجعله أول الأنبياء، وعلمه ما لم يعلم الملائكة المقربين"[4].

3- الحقيقة اللغوية الاشتقاقية: " فأما اشتقاق اسمه، فقال الإمام أبو الحسن على بن أحمد الواحدي، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض. وهكذا قاله أهل

[1] - ينظر: نظرية الأصل والظاهر في الفقه الإسلامي. محمد سماعي الجزائري. دار ابن حزم. بيروت. 2005. ص:135، وكذلك ص:175 وما بعدها.

[2] -تهذيب الأسماء واللغات. المطابع المنيرية. القاهرة. ص:95.

[3] - تهذيب الأسماء واللغات. المصدر نفسه. ص:95.

[4] - تهذيب الأسماء واللغات. المطابع المنيرية. القاهرة. ص:95.

اللغة في ما حكاه الزجّاج. قال الزجاج: قال أهل اللغة: آدم مشتقّ من أديم الأرض لأنه خلق من تراب. وأديمُ الأرض وجهها"[1].

- المطلب الثالث: ملامح النظرية السلوكية في التراث الدلالي للإمام النووي

إن الإيغال المفرط للنظرية التصورية في تتبع الأفكار المجرّدة كمرجع للبحث الدلالي أدى إلى ردّ فعل قوي ومعاكس لها متمثلا في ظهور النظرية السلوكية المؤسسة على البحث العلمي الواقعي التجريبي[2]. وكان لشيوع أفكار هذه المدرسة في الدراسات النفسية لفهم السلوك الإنسان البشري وخاصة في أمريكا الجديدة من خلال توظيف التجارب البافلوفية لتقرير مبدأ المثير والاستجابة أثر كبير في ظهور النظرية السلوكية، إذ كان العالم اللساني الأمريكي بلومفيلد أول من هجر المدرسة التصورية إلى السلوكية"[3].

إن هذه النظرية السلوكية قائمة على متابعة الحدث الكلامي وما يتعلق به من أفعال في خطاب المتكلم أو المتلقي، "و لكي ينم تحديد دلالة صيغة لغوية تحديدا دقيقا، وجب حصر جميع المقامات التي صاحبت استعمال الصيغة في الحدث الكلامي، ومعرفة شاملة لكل ما يشكّل عالم المتكلم"[4].

ولمتابعة هذا الفعل الكلامي عبر المشاهدة والرصد كسلوك لدى الباثّ أو المتلقي، فصل الإمام النووي الحديث عنه في كتابه (التبيان). وقد مثّلنا لذلك بتطبيق له في المستوى الصوتي عموما والفونولوجي خصوصا[5].

أما بالنسبة للمقامات المولّدة للمواقف، وقد عالجها في معجمه الكبير (تهذيب الأسماء واللغات) وخاصة في الجزء الأول الخاص بتراجم الأعلام، حيث تطرّق إلى المقام والحال لكلّ

---

[1]- تهذيب الأسماء واللغات. المطابع المنيرية. القاهرة. ص:96.

[2]- علم الدلالة. أحمد نختار عمر. عالم الكتب. القاهرة. 1998. ص:65 وما بعدها.

[3] - ينظر: علم الدلالة العربي. أصوله ومبحثه في التراث العربي. دار الكتاب الحديث. القاهرة.2010. 78 وما بعدها.

[4]- مدخل إلى علم الدلالة. سالم شاكر. تر: محمد يحياتن. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1992.ص:26.

[5] - ينظر: الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث.

شخصية مترجم لها من خلال تفصيل الحديث عن السياق الزّماني والمكاني في التاريخ، والذي صاغ سلوكاتها وحرّك مواقفها مبتدئا بضبط الفعل الكلامي لها من خلال آلية الإحالة المتمثّلة في قوله: "ورد ذكره في كذا" أو "المذكور في كذا".

وإذا أردنا التمثيل بذلك من (معجم التهذيب) في ترجمته لنبي الله أيوب عليه السلام، مجده يقول: " أيوب النبي صلى الله عليه وسلم مذكور في المهذب في الوقف وفي الأيْمان"[1]، فهو يحيل إلى كتاب (المهذّب في الفقه الشافعي) للإمام الشيرازي راسما بذلك إطار المقام الخاص، ثم يقوم بالإحالة ثانية إلى مواطن ذكره في القرآن الكريم راسما إطار المقام العام له في مصادر التشريع المتفق عليها، إي القرآن الكريم والسنّة النبوية.

وقد استشهد الإمام النووي بآية واحدة من ثلاث ذكرها وهي قوله تعالى: ﴿**وَ أَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ**﴾ {الأنبياء/83}، ويستشهد بحديث نبويّ نصّه: ((وروينا في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينما أيوب يغتسل عريانا، إذ خرّ عليه جراد من ذهب..إلى أخر الحديث))[2].

ومن الميادين التي خاض فيها الإمام النووي بحكم التخصّص، وألمّ فيها بما جاءت به النظرية السلكية فيما بعد من مبادئ متعلقة بعلم الدلالة المعاصر، ميدانُ الحديث النبوي وعلوم السنة من خلال علميْ مصطلح الحديث والجرح والتعديل، وذلك في كتابه (التقريب والإيضاح. شرح مقدمة ابن الصلاح) الذي شرحه الإمام السيوطي الذائع الصيت (تدريب الراوي . شرح تقريب النووي)[3]، حيث يضبط مقام الحال الحافّ بالسلوك الدّال من خلال فصول كاملة خصّصها لشرح ذلك.

[1]- معجم تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1. المطلعة المنيرية. القاهرة. د.ت. ص:130.

[2] - ذكره في تهذيب الأسماء واللغات. مج:1. باب: إياس وأيمن وأيوب. ص:130. وأصله في صحيح مسلم.

[3] ينظر: نسخته التي حققها أحمد بن على . دار الغد الجديد. القاهرة. 2013. ص:231.-

وقد ختم الجزء الأول من (التقريب) بالنوع الثالث والعشرين بعنوان صفة من تُقبل روايته، وذلك بسلامته من خوارم المروءة التي تجرحه وترفع الثقة عنه، وتبيّن سلوكه. وذلك كأن يكون قليل الحفظ أو مجهول الحال. وكما في النوع الثاني عشر والثالث عشر، حيث تطرق كغيره من كبار المتحدّثين إلى التدليس[1] في الرواية والشذوذ ومعرفة المنكر[2].

وفي مراحل الجرح التعديل المتفق عليها لدى المحدثين كسلّم للتقييم ترد مصطلحاتها كأفعال كلامية بصيغة الماضي والمصارع ضابطة للسلوك الدلالي لأصحابها مثل صيغة 'حافظ'- 'ضابط'- 'ثقة'- 'هو يهم'-' ضعيف'- 'شديد الضعف' – 'مجهول الحال'. فكل المقامات السلوكية لها أفعال كلامية بتعبير لسانيات الخطاب تدل عليها وتمثل اصطلاحات تصنيفية متفق عليها لدى علماء الحديث النبوي روايةً ودرايةً.

المطلب الرابع: ملامح النظرية السياقية في التراث الدلالي للإمام النووي

السياق والمعنى اللغوي: جاء في معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس، مادة 'س وق' : السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حذو الشيء. يقال ساقه يسوقه سوقا. والسَّيْقَةُ ما استبق من الدّواب. ويقال: سُقت إلى امرأة صداقها، وأسقته، والسوق مشتقّة من هذا"[3].و ابن منظور كابن فارس لا يورد في معجمه (لسان العرب) لفظة السياق، بل يأتي باسم مشتق من مادة س وق، دالّ على المشاركة كدلالة صرفية عامة. وهو المساوقة فيقول: "و المساوقة المتابعة كأن بعضها يسوق بعضا، وعن الأصمعي: السّيق من السحاب ما طردته الريح. وهي صفة مشيه عليه السلام. كان يسوق أصحابه، أي يتقدمهم ويمشي خلفهم تواضعا"[4]. ويتميّز اللغوي محمد مرتضى الزبيدي في قاموسه (تاج العروس) عن غيره بالإشارة الصريح لكلمة السياق، حيث قال: " أصل السياق

[1]- ينظر: تدريب الراوي. السيوطي ز مرجع سابق. ص: 153.

[2]- ينظر: تدريب الراوي. السيوطي. مرجع سابق. ص.ص:171-179.

[3]- مقاييس اللغة. أبو الحسين ابن فارس. مادة : س وق. دار الحديث. القاهرة. 2008.

[4]- لسان العرب. ابن منظور. مادة . س وق. دار صادر. بيروت. 1990. :

سِوَاقٌ. قلبت الواوُ ياءً لكسرةِ السّين. والسّاقَةُ جمع سائق. وهم الذين يسوقون الجيش ويكونون من ورائه. وساق الماشية سوقا وسِياقةً، بالكسر، ومساقاً "[1].

و مدار التعريفات اللغوي السابقة للفظة السياق قائم على تسيير حركة الجموع وهدايتها في طريق انتقالها سواء تعلق ذلك بالجموع العاقلة كسوق الجيوش، أو غير العاقلة كسوق الماشية. وبتحديد المسار حسيًّا يتمّ الأخذ بعين الاعتبار لكل ما يحيط به ويعترضه ومكانا وحالا. وهذا ما يتطابق مع التعريف المجازي الذي صار اصطلاحيا فيما بعد. "و لعل العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة السياق تتجلّى في أن استخدام مصطلح السياق نابع من الظروف المحيطة بالكلام- سواء منها ما يتعلق باللغة وتركيبها، أو بالملابسات الخارجية- أعدّ وكأنها تسوق الكلام؛ لأن هذه الظروف نكون مصاحبة له. ولهذا جعلت وكأنها تقوده أو تسوقه أمامها، ولهذا يكون خاضعا لهذه الظروف"[2].

ولّما كان السياق من أشهر المحاور وأوسعها في ميدان الدلالة، لا باعتباره نظرية دلالية استأثرت بالاهتمام وحسب، بل باعتباره حقيقة لغوية وأدبية ضاربة بجذورها في أعماق التراث النقدي العربي منذ القرن الثالث الهجري. ولذا، آثرنا التوسع فيه أكثر لكونه يعكس وجهيّ الأصالة والمعاصرة. فما هو السياق في المفهوم الاصطلاحي؟ وما هو الأساس الذي تقوم عليه نظرية السياق؟ إنها "تقوم على فكرة ما عُرف قديما لدى علماء البلاغة؛ لكلّ مقام مقال. وإذا كان علماء البلاغة قد تمثّلوا تماما فكرة المقام وحكّموها في كثير من أحكامهم النقدية والبلاغية؛ فإن علماء البلاغة المحدثين كانوا أكثر التفاتا للتفاصيل التي تحيط بالمقام والسياق ودورها في تحديد الدلالة لأنهم أدركوا أن من طبيعة المعنى المعجمي التعدّد والاحتمال، لأنه إذا تعدّد معنى كلمة تعددت بالتالي احتمالات القصد والمعنى لتعدّد السياق الذي لا يمكن أن يُعزل بحال"[3].

[1] - تاج العروس. محمد مرتضى الزبيدي. مادة: س وق. دار مكتبة الحياة. بيروت. د.ت

[2] - السياق وأثره في المعنى. مهدي إبراهيم الغويل. أكاديمية الفكر الجماهيري. بنغازي. 2011. ص:15.

[3] - دراسات في علم الدلالة والمعجم. رجب عبد الجواد إبراهيم. دار غريب. القاهرة. 2001. ص: 24.

وإذا كان التعريف السابق أكثر ميلا للتراث العربي القديم، فما هو التعريف الحديث للسياق. ابتداء نقول1 إن التعريفات المعاصرة ليست متفقة في مصطلحاتها ودلالاتها من خلال تعريفها للسياق كنظرية لسانية أو دلالية، وذلك بسبب اختلاف مدارسها ومنطلقاتها. كما 2 أنها تتميّز بأنها تعريفات غير جامعة ولا مانعة في حدودها كما يقول المناطِقَة القدامى. فهي مقتبسة من نصوص ومؤلفات ومستلّة استلالا من كلب ومؤلفات دون النظر إلى ما قبلها أو ما بعدها، لذا تظهر غامضة وناقصة." يقول أندريه مارتينيه: خارج السياق لا تتوفر الكلمة على المعنى"[1]. ويصرّح اللساني ويتغنشتاين قائلا : " لا تفتّش عن معنى الكلمة، وإنما عن الطريقة التي تستعمل بها"[2].

ويعرّف فيرث، أحد مؤسّسي مدرسة لندن السياق بمفهومه الاصطلاحي اللساني قائلا: "المعنى لا ينكشف إلا من تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة. فالمعنى عنده يُفسّر باعتباره وظيفة في السياق"[3].

وقد اشتركت هذه التعريفات المختلفة 3 للسياقات- بسبب توجهاتها الثقافية- مع النظريات الدلالية الحديثة في تصنيف هذه النظريات إلى سياقات مختلفة أشهرها وأكثرها استخداما السياقات الأربعة التالية:

1- السياق اللغوي بمختلف مستويات تحليله لبنية اللفظ والتركيب من المستوى الصوتي إلى المستوى النحوي البلاغي، حيث يستمدّ من المنهج النسقي لدراسة النص معظم معطياته.

2- السياق العاطفي الذي يلجأ إلى المنهج النفسي في تحليل المعطيات التي تتيحها "الظروف والخلفيات المحيطة بالنّص سواء منها ما يتصل بالمخاطِب أو المُخَاطَب"[4] ويقصد بهما المُرسِل المبدع والمتلقي القارئ.

---

[1] - علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي. عبد الجليل منقور. دار الكتاب الحديث. القاهرة. 2010. ص: 79.

[2] - علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي. مرجع سابق.ص:79.

[3] - علم الدلالة. أحمد مختار عمر. عالم الكتب. القاهرة. 1998. ص:68.

[4] - السياق وأثره في المعنى. مهدي ابراهيم الغويل. مرجع سابق. ص:15 .

وانطلاقا من ذلك كلّه، فإن التوغل في فهم شخصية صاحب الخطاب اللغوي الفنّي يؤدي إلى فهم بنية الخطاب نفسه، والإجابة عن سرّ انتقائه للألفاظ وسرّ طريقة نظمها في أسلوبها. " فالسياق العاطفي الانفعالي يحدّد دلالة الصيغة أو التركيب من معيار قوّة أو ضعف الانفعال. فبالرغم من اشتراك وحدتين لغويتين في أصل المعنى، إلا أن دلالتهما تختلف مثل الفرق بين دلالة الكلمتين "اغتال" و"قتل". فبالإضافة إلى القيم الاجتماعية التي تحدّدها الكلمتان، فهناك إشارة إلى درجة العاطفة والانفعال الذي صاحب النص. فإذا كان الأول يدل عل أن المغتال ذو مكانة اجتماعية عالية، وأن الاغتيال كان لدوافع سياسية، فإن الثاني يحمل دلالات مختلفة عن الأول"[1].

وفي ظل هذا التصنيف والتمييز لنفسيّة شخصية للباثّ المُرسِل ولنفسيّة شخصية المتلقي سامعا كان أم قارئا، وما في دخيلتيهما من مقررات عاطفية وفكرية متراكمة في سنين حياتهما وكشف الحمولة الانفعالية للوحدات اللغوية المكوِّنة لرسالة الخطاب الساري بينهما تتضح الغاية من هذا النوع من السياق. حيث إنها " تتمثل في التمييز بين المعنى النفسي والمعنى المنطقي. فالمعنى النفسي يختلف باختلاف الأفراد. فهو ذاتيّ بخلاف المعنى المنطقي الذي يتميّز بالموضوعيّة. ويعدّ المنهج النفسي أحد المذاهب المعروفة في مجال الدراسات الأدبية. ومن أهم المبادئ التي يقوم عليها هذا الاتجاه أن التعبير الفني صياغة لتجربة تحكنها مثيرات وحوافز داخلية وخارجيّة. كما أن هذا التعبير أو العمل لا ينفصل عن شخصية مُبدعِه"[2].

3- السياق الثقافي: "ويمثل القيم الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالكلمة، إذ تأخذ ضمنه دلالة معيّنة"[3]. ويسميه بعضهم السياق الاجتماعي باعتبار" أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأن النشاط اللغوي يتوازى دائما مع النشاط الاجتماعي. فالمجتمع وألوان النشاط فيه تترك كثيرا من

[1]- علم الدلالة. أصوله ومباحثه في التراث العربي. عبد الجليل منقور. مصدر سابق. ص:81.

[2]- السياق وأثره في المعنى. مهدي إبراهيم الغويل. مرجع سابق. ص:112.

[3] - علم الدلالة العربي. أصوله ومباحثه في التراث العربي. عبد الجليل منقور. مرجع سابق.ص:81 .

الانطباعات التي يمكن تمثّلها في النشاط الفنّي كذلك"[1]. كما أن بعض الباحثين المعاصرين يطلق عليه "سياق الموقف"[2].

ففي هذا النوع من السياق يكون المعنى الدلالي لتراكيب النص متوقف على الموقف المثير الذي تصنعه مختلف العوامل الثقافية والاجتماعية بضغطها في لحظة معيّنة متأزّمة تصنع بها ما يعرف عند النقاد بمخاض الإبداع وخاصة في الشعر. ومعظم الباحثين بفصل ويميز بين السياق الاجتماعي الثقافي وسياق الموقف أو المقام كما يُنعتُ بتميُّز. فهو، إذا، ليس الظروف الثقافية والاجتماعية المتنوعة وكيف يشارك كل واحد منها انطلاقا من فاعليته الذاتية في توجيه سياق النص، ولكن المقام بحقّ، كما يقول أحد الباحثين المتخصّصين في دراسة، أنه يمثّل " حصيلة الظروف الواردة في الوقت الذي تمّ فيه المقام وما يعتري الموقف من ملابسات لها تأثير في الحدث اللغوي"[3]، وليس هو مجرّد الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة فتتغيّر دلالتها تبعا لتغيّر الموقف.

وإذا عدنا إلى الإمام النووي لنأخذ نماذج من تراثه اللغوي لنتلمّس فيها ملامح النظرية السياقية فإنّنا نجده يتميّز:

- باستعماله لمصطلحات خاصة في الإشارة إلى السياق منها مصطلح الموضع فيقول: هذا اللفظ مذكور في كتاب الصلاة من باب العبادات، أو يقول: ذكر في كتاب كذا من الكتب التي شرحها أو علّق عليها. ومن ذلك قوله في (التبيان): " وكما إذا كان اللفظ مشتركا في معانٍ فعُلِمَ في موضع أن المراد أحد المعاني، ثمّ فُسِّرَ ما جاء به، فهذا كلّه تفسير بالرأي . وهو حرام، والله أعلم[4]. والمقصود بـــ"المُراد" في اصطلاحه الدلالةُ المحورية المركزية.

أما في ما يخص تناوله للسياق الاجتماعي والسياق النفسي فإنه أكثر ما يستخدمهما في الحديث والتعليق والشرح على القرآن والسنّة كقوله بخصوص قراءة القرآن: " إذا ابتدأ بقراءة أحد

---

[1] - السياق وأثره في المعنى. مهدي إبراهيم الغويل. مرجع سابق. ص:137.

[2] - دراسات في علم الدلالة والمعجم. رجب عبد الجواد إبراهيم. دار غريب القاهرة.2001. ص:26.

[3] - السياق وأثره في المعنى. مهدي إبراهيم الغويل. مرجع سابق. ص:130.

[4] - التبيان في آداب حملة القرآن . الإمام النووي. دار النفائس. بيروت. 2006. ص:110.

القرّاء، فينبغي أن يستمر على القراءة بها ما دام الكلام مرتبطا"[1]. وهو يقصد بهذا حضور السياق والمحافظة عليه دون انقطاع حتى يكتمل المعنى. ثمّ يعقب قائلا:" فإذا انقضى ارتباطه فله أن يقرأ بقراءة أحد من السبعة. والأَوْلى دوامُه على الأُولى"[2].

إن الخلط بين القراءات في السورة الواحدة، وإن كانت سمعية يؤدي إلى اختلاف طرق أداء الألفاظ، وبالتالي إلى خرق السياقات وتغيير المعاني، بعكس القراءة الواحدة في السورة الواحدة.

فالقارات السبع تتضافر في تحقيق الدلالة في كامل سور النص القرآني بهذين الضابطين وهما:

1- أن تكون صحيحة متواترة لأن الشاذّ فقد حجته، وهو ليس من حروف القرآن وألفاظه على الراجح الغالب. فاعتمادُه تحريف للقرآن، ومن ثمة ، فهو لا يجوز للتدبّر ولا للتعبّد. قال في (التبيان):" لو قرأ بالشواذ في الصلاة بطلت صلاته إن كان عالما"[3].

2- مراعاة احتمال النظم في النسيج اللغوي القرآني عند الشروع في التلاوة والتدبّر بقراءة سمعية، وهو ما يسمّيه بارتباط الكلام. وهو نفس ما يطلق عليه الإمام عبد القاهر الجرجاني قبله في كتابه (أسرار البلاغة) وكذلك (دلائل الإعجاز) بتعلق الكلم وارتباط بعضه ببعض طبقا لمعاني النحو.

وذلك لأن دخول قراءة على أخرى في ثنايا النظم الواحد يخلّ بالوحدة الموضوعية للصورة أو بالدلالة المحورية الكليّة لها، وذاك من خلال تغيّر الدلالات الهامشية بتغيّر التوجيه النحوي للقراءة.

وفي كتاب (تهذيب الأسماء واللغات نراه يجمع بين المنهجين النسقي والسياقي في دراسة الألفاظ سواء كانت لغوية بحتة أم أسماء أعلام، حيث تتنوع هذه الأعلام بين شخصيات نبوية أو علمية أو صحابة وتابعين وغيرهم.

وممّا يُلفتُ النظر في هذا المجال أنه يقدم في عنوان الكتاب الأسماء على اللغات، فعنوان معجمه (تهذيب الأسماء واللغات) نجده يقدم أسماء الأعلام على الألفاظ اللغوية العادية. وهو تقديم له علاقة قوية بالمنهج السياقي. فالشخصيات المقدّمة هي شخصيات فاعلة في المحتوى العام

[1] - التبيان في آداب حملة القرآن . الإمام النووي. مصدر سابق. ص:67..

[2] - التبيان في آداب حملة القرآن . الإمام النووي. مصدر سابق. ص:67.

[3] - التبيان في آداب حملة القرآن . الإمام النووي. مصدر نفسه. ص:67.

للنصوص. ولهذا فهو يستخدم ما يعرف بالسياق النفسي من خلال متهج الجرح والتعديل في تشريح هذه الشخصيات الفاعلة في توجيه النصوص بإنتاجها ومواقفها، بحيث يتّضح من كلّ ذلك مقام النص. وفي ذلك يقول: " اعلمْ أن لمعرفة أسماء الرجال وأحوالهم وأقوالهم ومراتبهم فوائد كثيرة منها معرفة مناقبهم وأحوالهم فيُتأدّبُ بآدابهم، وتُقتبس المحاسن من أكثرهم، ومنها مراتبهم وأعْصارُهم، فيُترَلون منازلهم"[1].

ونراه يشير في كتابه (دقائق المنهاج) إلى القرائن الحافّة بالسياق اجتماعيا ولغويا من خلال مقارنة ألفاظ النص الشارح مع ألفاظ النص المشروح، بحيث تتضح الفروق وتتميّز السياقات. مما يذكره في السياق النفسي الخاص بالمتلقي عند تلاوته للنص القرآني دون مقرّرات داخلية أو خارجية. يقول عن المتعلم: " ويدخل على الشيخ كامل الخصال [...] فارغ القلب من الأمور الشاغلة"[2].

ويقول في إشارته إلى سياق المقام في تداخله مع السياق النفسي: " وألا يقرأ على الشيخ في حال شغل قلبه، ومللله، واستيفازه، وروعه، وغمّه، وفرحه، وعطشه ونعاسه وقلقه، ونحو ذلك ممّا يشقّ عليه من كمال حضور القلب والنشاط"[3].

وفي مجال السياق الاجتماعي والثقافي خلال المدارسة بين الطرفين يقول: " وأن يكف يديه في حال الإقراء عن العبث، وعينيه عن تفريق نظرهما من غير حاجة، ويقعد على طهارة مستقبلا القبلة، ويجلس بوقار، وتكون ثيابه بيضاء نظيفة[...]، ويستحبّ أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد"[4].

---

[1]- تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1. المطبعة المنيرية. القاهرة. د.ت. ص: 11.

[2]- التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق. ص:38.

[3]- التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. المصدر نفسه. ص:39. -

[4] - التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. المصدر نفسه. ص:56.

إن هذه الإشارات السيميائية تمثّل قرائن سلوكية خاصّة لضبط الدلالة عند المتلقي من داخل شخصيته. أمّا من خارجها، فتتجمّع القرائن المُلحّ عليها، والمتعلقة بتحديد وجهة التلقي، وهي استقبال القبلة، حيث يؤدي استحضارها في القلب مع التلاوة المتدبّرة إلى استرجاع الملابسات التاريخية لنزول الوحي بمكّة، حيث القبلة، أول مرّة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم.

أما ارتداء الثياب البيض النظيفة، والتلاوة في مكان نظيف في المسجد، فلتوليد إيحاء نفسيّو اجتماعيّ زمكاني مشابه تقريبا لزمن النزول. وهذا ما أكّده بعد ذلك بسلعة قرون من موت الإمام النووي المفكرُ سيّد قطب كسياق ضروري في هذا العصر لفهم القرآن الكريم، إذ يقول:" إن المسألة في فهم هذا القرآن، ليست هي شرح ألفاظه وعبارات آياته؛ بل هي تلقّيه في جوّ يسبه الجوّ الذي نزل فيه، وأن يعيش المتلقي له نفس الملابسات والظروف المختلفة التي صاحبت نزوله، بحيث يتكوّن لديه رصيد من المشاعر النفسية يشابه مشاعر ومكابدات من خُوطِبوا به أوّل مرّة. وهنا فقط، بفتح القرآن كنوزه ويشيع عطره"[1].

وبعد أن أشرنا إلى بعض القرائن المكانية الموجّهة للسياق، والتي فصل فيها القول الإمام النووي في الجزء الأول من كتابه (تهذيب الأسماء واللغات)، حيث ينصرف معنى الأسماء إلى الأعلام والشخصيات، كما يتضمّن أماكم جغرافية ومدنا شهيرة عاش فيها أنبياء وأئمة، وكانت حاضنة للسياقات الاجتماعية والثقافية الفاعلة في نصوصهم التي أنتجوها.

أما في يتعلّق بالقرائن الزمانية المشاركة في رسم السياق فيقول رحمه الله: " دواء القارئ خمسة أشياء، قراءة القرآن للتدبّر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرّع عند السحر، ومجالسة الصالحين"[2]. ويؤكد على الفترة الزمنية المتعلقة بالليل بالاستشهاد بالأحاديث النبوية منها((شرف المؤمن قيام الليل)).

[1] - ينظر: خصائص التصور الإسلامي. سيد قطب. دار الشروق. بيروت/ القاهرة. 1992.ص:5 . .

[2] - التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. المصدر نفسه. ص:60. -

ويعلّق الإمام النووي على هذه الأحاديث قائلا: " وإنما رجَحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشّاغلات والملهيات والتصرّف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المُحبِطات"[1]. ممّا استشهد به من أقوال الزاهد إبراهيم النخعي" اقرؤوا من الليل ولو حلْبَ شاة"[2]. ويقول كذاك: " وأما القراءة في غير الصلاة، فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول"[3].

المطلب الخامس: ملامح النظرية التحليلية في التراث الدلالي للإمام النووي

إن النظرية السياقية باتساع مجالها وتنوع معطياتها في التراث العربي القديم واللساني الحديث، جعلها تكون قاعدة عريضة لنشوء نظريات دلالية أخرى لم تأخذ شهرتها ولا تطبيقاها. ممّا تمّ توليده من النظرية السياقية ما يسمى بالنظرية التحليلية القائمة على فكرة " الرصف، وهو يعني مراعاة وقوع الكلمات مجاورة لبعضها، حيث يعدّ هذا الوقوع أحد معايير تحديد دلالة الكلمة. إذ إن تسييق الصيغة اللغوية يعدّ المنفذ المهم لتحديد مجالها الدلالي. ولا يمكن أن ترد الصيغة اللغوية بمعزل عن السياق النفسي أو الاجتماعي الثقافي، بل يحصل التجاور بين مجموع الصيغ اللغوية داخل التراكيب. وهو ما يمكن التعبير عنه بمصطلح النظم"[4]

ولّما كنّا لجأنا إلى مؤلفات النووي الأخرى لتأطير مستويات التحليل الدلالي، وأخذ نماذج تطبيقية منها كما هو بالنسبة ل(معجم تهذيب الأسماء واللغات) كمصدر أساسيّ للدلالات الصرفية والمعجمية الاشتقاقية للفظ المفرد، وكذلك شرحه المسمّى (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجّاج) كمصدر رئيسي للدلالات المركبة على المستوى الأصولي الفقهي، ثم على المستوى النحوي البلاغي، لذا، فإننا عدنا إلى هذا الكتاب المتميّز، الذي تلقته الأمة بالقبول، لنلقي

[1] - التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. المصدر نفسه. ص:60.

[2] - التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. المصدر نفسه. ص:60.-

[3] - التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. المصدر نفسه. ص:100.-

[4] - علم الدلالة . أحمد مختار عمر. عالم الكتب. القاهرة. 1998. ص: 76.

نظرة ثانية عليه مكمّلةً للأولى في المستويين الصوتي والصرفي، بحيث نحلّل محتويات فصوله وأبوابه على ضوء نظريات القراءة المعاصرة.

وضمن هذه الأجواء المعرفية تولّدت النظرية التحليلية المتمركزة حول تفكيك بنية النظم بما يحوي من جمل وتراكيب ونصوص، وذلك وصولا إلى تحليل الكلمات إلى مكوّنات وعناصر. "وقد قدّم كاترو وفورد تحليلا مميّزا للكلمات ودلالاتها، وأحصيا في ذلك ثلاثة عناصر اتخذت كمفاتيح لتحليل وتحديد المؤلّفات التي تشكّل الكلمة، وذلك لتعيين دلالتها. وهذه العناصر هي: المحدّد النحوي والمحدّد الدلالي والمُميِّز، أي الكاشف للبنية على المستوى الصوتي والاشتقاقي"[1].

ولمّا كانت النظرية التحليلية تركز على تفكيك بنية اللفظ أو الكلمات إفرادا وتركيبا داخل النظم وخارجه وصولا إلى" طاقم الملامح أو الخصائص التمييزية لها"[2]، لذا فإننا سنختم هذا المبحث بتلخيص خصائص البنية في الفكر الفلسفي واللساني الحديث كما حدّدها المنهج البنيوي وصولا إلى سرد إشارات عامة ممّا يسمح به مقام البحث تتعلّق لموقع جهود الإمام النووي الدلالية ضمن تفاصيل هذه النظرية.

ويلخص الدكتور زواوي بغورة خصائص البنية في الفكر اللساني الحديث وفق هذه العناصر التالية:

1- "البنية غير الواقع التجريبي وإنما هي النموذج المستمد من هذا الواقع، فالبنية نتعرف عليها انطلاقا من نماذج معيّنة.

2- العلاقات الاجتماعية هي المادة الأولية التي تصنع منها النماذج، وقد نصل إلى البنية من خلالها إذا كان أساس التواصل في هذه العلاقات اللغة بكلماتها"

3- البنية المتخفية غير المرئية باطنية لا شعورية، أي ذات طبيعة عقلية،

---

[1]- علم الدلالة. أصوله ومباحثه في التراث العربي. مرجع سابق. ص:82.

[2]- علم الدلالة . أحمد مختار عمر. مرجع سابق. ص: 126.

4- تشكّل البنية منهجا[...] وتنتهي إلى أشكال تحليل بنيوي مستعملة في مجالات أخرى فالبنية أداة منهجية أخرى، أو كما قال صلاح فضل :" البنية أداة منهجية في نفس الوقت الذي تعدّ فيه خاصية لواقع، أداة يتم تكوينها منطقيا، وتكشف لنا عن محور الوقائع وطبيعتها العميقة.

5- البنية في نظر ليفي شتراوس حاضرة في الموضوع لكنها متخفية[...] والخطوة الأساسية لاكتشافها هي معرفة ارتباطها المباشر بالنموذج المبني، وغاية النماذج هو الإفصاح على البنية وإبرازها" [1].

وقد آثرنا نقل مجمل هذه الخصائص نظرا لكونها تمثل أدوات ضرورية تستخدمها النظرية التحليلية المعاصرة.

وفي ربط أركان وخصائص النظرية التحليلية بالتراث الدلالي للإمام النووي، نحيل على متن هذه الرسالة بكل فصولها في بابيها الرئيسيين، حيث نجد الكثير من تحليلاته للألفاظ اللغوية والفقهية، وذلك من خلال ضبط شكل بنية الألفاظ خارجيا بالحركات، وداخليا بالصبغ الصرفية والأصول الاشتقاقية، ثم تصنيفها إلى نماذج في إطار فقه اللغة التراثي مع استخراج دلالاتها كدلالة الترادف والاشتراك والتضاد والتصاقب عبر استبدال بعض حروف الكلمات الثلاثية مع تشابه الباقي فيها ممّا أشار إليه ابن جنّي سابقا في الخصائص كالفارق الدلالي بين ' نضح' و'نضخ' في أبواب الفقه المتعلقة بالطهارة في كتابيه الروضة ج1 ودقائق المنهاج.

وكذلك فعل في الألفاظ الفقهية والأصولية كالمحكم والمتشابه والعم والخاص، والظاهر والأصل، والمبهم وخفي الدلالة وغيرها، فكان بحقّ جامعا في جهوده اللغوية بين النظرية السياقية ومنهجها التاريخي المعتمد على علم الحديث دراية ورواية، والنظرية التحليلية القائمة على تفكيك بنى التراكيب والألفاظ في المنهج النّسقي الداخلي.

[1] - المنهج البنيوي. بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات. زواوي بغورة. دار الهدى. عين مليلة. 2001. ص: 92.

المبحث الثاني: الجهود الدلالية عند الإمام النووي في ضوء نظريات القراءة المعاصرة

إن اعتمادنا على كتاب (التبيان في آداب حملة القرآن) في تجلية ملامح الدلالة الصوتية في المجهود اللغوي للإمام النووي، على المستويين الفونيتيقي والفونولوجي، لا يعني أن هذا الكتاب لا يحوي إشارات كثيرة متميّزة لبقية مستويات التحليل الدلالي في إطار اللفظ المفرد أو التراكيب المتنوعة.

وإذا كانت للقراءة في معناها المعجمي دلالتان، فهي ترد بمعنى ' القَرْءُ' بمعنى الجمع أو المحلّ الذي يجتمع فيه الماء مثلا. وقد ترد بمعنى الربط والضم للمتفرق من الأشياء والمعاني. فهي من القران أو الاقتران. ولا يحصل ذلك إلا بتفحص دقائق الأشياء وتمييزها ثم ترتيبها وتصنيفها. وكذلك في النصوص اللغوية والأدبية، فهي من معنى القران أو الاقتران بعد التفحّص.

أمّا في الاصطلاح " فهي آلية تفكيك الشيّفرة اللغوية المتمثلة تداخل شبكة العلامات والإشارات اللغوية ضمن سياق في النص محدّد نعد الجملة وحدته الأولى، وبما يكفل الوقوف على بنية النص الأساسية والتي يقسمها العالم اللغوي ناعوم تشومسكي إلى بنيتين: إحداهما فوقية سطحية والأخرى تحتية عميقة"[1].

و يجعل د.عبد الجليل مرتاض لهذه القراءة الاصطلاحية مستويات أربعة اعتمدنا عليها كنقاط ارتكاز في تتبّع الفعل القرائي ومميزاته عند الإمام النووي في كتابه (التبيان) مع إضافات لما ورد في مقدمة كتابه (المجموع، شرح المهذّب). وهذه المستويات الأربعة هي: مستوى الأداء ومستوى الحفظ ومستوى الفهم ومستوى التذوّق.

وقد استخرج هذه المستويات من منتهج المدارس البنيوية، حيث يرى أن ضوابط التحليل البنيوي تتألف من:

[1]- ينظر: حول اللسانيات وعلاقتها بالدلالة والقراءة. عبد الجليل مرتاض. محاضرة مخطوطة ألقيت على طلبة الماجستير. تخصص علم الدلالة. كلية الآداب. جامعة بن خلدون. تيارت.

1- القراءة، سريعة كانت أم عميقة أم فاحصة.

2- التحليل المبسّط،

3- التفسير والتأويل،

4- حلّ الشيفرة وفكّ الرموز،

5- القولبة (Stéréotypie)"إضافة النماذج وتصنيفها إلى مفاهيم[1].

المطلب الأول: مستوى الأداء القرائي في كتاب (التبيان)

1 – مستوى الأداء: وفيه يقول الأستاذ عبد الجليل مرتاض:" وغايته أن يؤدي القارئ الأصوات أو الصور الصوتية أو الرمزية بدون إبدال واضح للمعاني عند الأطفال والمذيعين، أو المنشدين، أو المتسلّين"[2].

وفي شبه تطابق مع هذا المستوى ، يورد الإمام النووي الحديث النبوي الصحيح ونصّه: ((وقد روينا عن أبي هارون العبدي قال: كنّا نأتي أبا سعيد الخذري رضي الله عنه فيقول: مرحبا بوصيّة رسول الله (ص) قال: إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا.))[3].

إن استشهاد الإمام النووي بهذا الحديث في مجال القراءة على الشيخ يحمل قرائن لفظية صريحة على أن المستوى القرائي المقصود هو المستوى الأول، أي مستوى الأداء، ففي مطلعه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن النّاس لكم تبّع" ولم يقل العرب، أهل الحضر منهم وأهل المدر والفصيح وغير الفصيح، بل قال: الناس، أي الأعاجم. ففي الدلالة اللغوية للفظ الأعجميّ كلّ من ليس بعربيّ على السليقة، والأعجميّ يكون، وفق نظريات القراءة المعاصرة، وخاصة نظرية

[1]- في عالم النص والقراءة. عبد الجليل مرتاض. ديوان المطبوعات الجامعية. ط:2. 2011. ص: 50.

[2]- حول اللسانيات وعلاقتها بالدلالة والقراءة. عبد الجليل مرتاض. محاضرة مخطوطة. مرجع سابق. كما ينظر: في عالم النص والقراءة. مرجع سابق. ص.ص: 38-40.

[3]- رواه الترمذي وابن ماجة. ينظر: التبيان في أدب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 32.

التلقي، مستقبلة للخطاب القرآني في مستوى الأداء. وغاية هذا المستوى، كما سبق تعريفه، أن يؤدي القارئ الأصوات أو الصور الصوتية أو الرمزية بدون إبدال واضح للمعاني.

ثمّ يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بالتركيب نفسه للجملة الاسمية قائلا:" وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض". فتحديده (ص) للمجال الجغرافي الواسع بأقطار الأرض، مع استثناء جزيرة العرب، يُفهم من منطوقه الأجناس غير العربية من عجم وموالي، والتي يستدعي دخولها للإسلام الشروع في ممارسة المستوى القرائي الأول، أي تعلّم الأصوات والحروف بمخارجها وصفاتها بتعبير القدماء من علماء التراث، أو بصورها الصوتية والرمزية بتعبير المعاصرين كما جاء في التعريف.

و يتزامن ذلك كلّه بالرفق بالمتعلمين في هذا المستوى، حيث يقول:" وينبغي أن يرفق بمن يقرأ عليه"، أي يراعي مستواه الأوليّ، الأداء فما فوقه كما يقول:" وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله"[1]. وقول الإمام النووي' بحسب حاله' فيه مراعاة لمختلف المستويات التي يتضمنها الحال.

المطلب الثاني: مستوى الحفظ القرائي في كتاب (التبيان)،

وقد لخصه الأستاذ عبد الجليل مرتاض، حيث قال إنّه:" يقوم على قراءات متتالية أو منقطعة أو متصلة، فيهتم بالعلاقات الصوتية والمعنوية ويثبّت صورها الحركية أو الصوتية. وهي شائعة في المدارس ومسارح التمثيل"[2].

وينبّه الإمام النووي إلى هذا المستوى في كتابه (التبيان) ملمّحا تارةً، ومصرّحا تارةً أخرى، أن هذا المستوى لا يتمّ تطبيقه كاملا إلا بجملة شروط يبدأ تنفيذها من الشيخ المقرئ أثناء شروعه في تحفيظ الطلاب. ومنها:

أ- " حرصه عليهم وإيثاره إياهم بالمصالح والأوقات"[3].

---

[1]- التبيان في أدب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 32

[2] - حول اللسانيات وعلاقتها بالدلالة والقراءة. عبد الجليل مرتاض. محاضرة مخطوطة ألقيت على طلبة الماجستير. تخصص علم الدلالة. كلية الآداب. جامعة بن خلدون. تيارت. وينظر: في عالم النص والقراءة. مرجع سابق. ص.ص: 75-100.

[3]- التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 35.

ب-" إفراغه قلبه حال الجلوس لإقرائهم، من الأسباب الشّاغلة كلّها، وهي كثيرة معروفة "[1].

وهو ما يعرف بالتركيز أثناء القراءة لتحقيق أهم أهداف هذا المستوى القرائي كما مرّ معنا، وهو الاهتمام بالعلاقات الصوتية والمعنوية. وقد عبر الإمام النووي عن ذلك بقوله:" وأن يكون حريصا على تفهيمهم"[2]، أي الطلاب المتعلمين، بحيث يستوعب المعاني التي تؤديها الأصوات أثناء الترتيل والحفظ، بعد تجاوزهم للمستوى القرائي الأول الذي هو مستوى الأداء، حيث يقتضي التهجّي بإتقان نطق مخارج الحروف وصفاتها بدون تدبّر.

ولّما كان مستوى الحفظ هذا، يتعلّق بحفظ الألفاظ القرآنية مؤدّاةً على الوجه الشرعيّ، و من جهة أخرى، حفظ معانيها مقترنة بها في الذهن، وكلّ ذلك، كما معروف في المناهج التربوية، يتعلّق بكفاءة الاستيعاب.

وشخصية بحثنا يراعي ذلك كلّه في كتابه (التبيان)، حيث يقول في ذلك: " وأن يعطي كلّ إنسان منهم ما يليق به، فلا يُكثر على من لا يحتمل الإكثار، ولا يُقْصِر لمن لا يحتمل الزيادة، ويأخذهم بإعادة محفوظاتهم"[3].

والجملة الأخيرة أكثر تطابقا مع مستوى الحفظ القرائي في أبرز خاصية له وهي تثبيت العلاقات الصوتية والمعنوية في الذاكرة الحركية أو الصوتية. كما حثّ قائلا ' ويأخذهم بإعادة محفوظاتهم'. فالإعادة المعينة في هذا النص هي التكرار المعروف عند طلبة القرآن الكريم لتمتين الحفظ وتثبيته. وهو مصطلح شائع منذ قرون طويلة في المغرب العربي والأندلس.

أما ما يتعلق بالذاكرة الحركية كمصطلح مدعّم للحفظ، كما استخدمته اللسانيات النصيّة المعاصرة، فهو معروف عند الطلبة بتحريك نصف الجسم الأعلى إلى الأمام والخلف بالتنسيق مع تكرار المحفوظ وإعادته أثناء الجلوس للقراءة في اللوح.

ويشير الإمام النووي في التبيان إلى ذلك بصريح النص قائلا: " ويقعد بين الشّيخ قعْدة المتعلمين لا قعْدة المعلمين، ولا يرفع صوته رفعا بليغا من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يكثر الكلام من غير حاجة"[4].

---

[1] - التبيان. المصدر السابق. ص: 35.

[2] - التبيان. المصدر نفسه. ص: 35.

[3] - التبيان. المصدر نفسه. ص: 36.

[4] - التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 39.

يربط الإمام النووي في هذا النص العلاقات الصوتية والمعنوية للذاكرة الحركية للجسد وأعضائه من خلال المنهيات التي يذكرها في قوله: " ولا يضحك، ولا يكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده ولا بغيرها، ولا يلتفت يمينا ولا شمالا من غير ما حاجة، بل يكون متوجها إلى الشيخ مصغيا إلى كلامه"[1].

ويردف قائلا: " وأن يعطي كلّ إنسان منهم ما يليق به، فلا يُكثر على من لا يحتمل الإكثار، ولا يُقْصر لمن لا يحتمل الزيادة"[2].

وحديثه عن التحفيظ على حسب قدرة الاستيعاب لدي كلّ طالب قائم على مراعاة الفروق الفردية التي قررها علم النفس التربوي وأثبتتها اللسانيات التطبيقية والتعليمية(Didactique). فهو ينبه إلى ضرورة الموازنة بين المكافآت والعقوبات من حيث المقدار والأثر على حسب المواهب والكفاءات اللسانية لدى كل طالب، فيقول في ذلك: " ويثني على من ظهرت نجابته ما لم يُخشَ عليه فتنة بإعجاب أو غيره، ومن قصّر، عنّفه تعنيفا لطيفا ما لم يُخش عليه تنفيره"[3].

المطلب الثالث: مستوى الفهم القرائي في كتاب (التبيان)

ويقوم هذا المستوى "على قراءة واعية متأنية تلتمس معاني التراكيب والألفاظ والعبارات والعلاقات النحوية والفنية وإدارة الحركة الجزئية في النص، والحركة الكلية التي توحّد جوانبه بواسطة التحليل والتركيب، وهي قراءة المتعلمين في المدارس المتقدمة وفي الجامعات وفي الحياة العامة"[4].

والمصطلح الأقرب في المعنى لمفهوم القراءة المتأنية التي تحاول الإحاطة بدلالة المعنى في بنية الألفاظ والتراكيب هو مصطلح التدبّر الذي ورد في العديد من آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى ﴿**أَفَلاَ**

[1] -التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 39.

[2] - التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 36.

[3] -التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 35.

[4] -حول اللسانيات وعلاقتها بالدلالة والقراءة. عبد الجليل مرتاض. محاضرة مخطوطة ألقيت على طلبة الماجستير. تخصص علم الدلالة. كلية الآداب. جامعة بن خلدون. تيارت. وينظر كذلك.: في عالم النص والقراءة. عبد الجليل مرتاض. مرجع سابق. ص: 69. وكذا فصل(مستويات وصفية للقراءة). المرجع نفسه. ص: 95.

يَتَدَبَّرُون القُرآن أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾{محمد/24}، وكذلك قوله تعالى ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُون القُرآن ولَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلافًا كَثِيرًا﴾**{النساء/82}.

كما يستخدم القرآن مصطلحا آخر يمثل ثمرة التدبّر وهو مصطلح العقل الذي يرابط بالمنهج اللساني الغربية كآلية قرائية لا مناص منها. ومن الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونْ﴾**{ يوسف/2}، وكذلك قوله تعالى﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**(193)**عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**(194) **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين**(195)﴾{ الشعراء/193/194/195}.

وينقل الإمام النووي في ذلك نصّا يتوافق تماما مع المفهوم اصطلاحي للقراءة كما يراها أصحاب نظرية التلقّي، " والتي تؤمن بأن القارئ يشارك في كتابة النص، وهي عملية نفسية حركية تختص بإعادة الأثر الأدبي، أو النص، إلى مدركات أولية عبر إعادة تفكيك الإشارات اللغوية، وموازنة العلاقة بين مجموعة الدوال مع المدلولات في الجملة الواحدة، ومن ثمّ النص كاملا"[1].

و في حقيقة نلقي المقروء كخطاب أصيل متكامل تُجمع له كلّ السياقات الزمانية والمكانية والنفسية لفهم إيحاءاته وأبعاده أثناء القراءة أو السماع، يقول الإمام النووي في ذلك ما نصّه: "وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال: إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار"[2].

والدلالة المشتقة من تفقدها في النهار؛ تَبَيُّنُ إشاراتها في الأنفس وفي آفاق الكون والعمل بمقتضياتها في واقع الحياة سلوكا وتعبدا بها لله عزّ وجلّ. ويتضح بهذا سبق الرؤية النووية للفعل القرائي لكتاب لله عز وجلّ إذا نحن استدعينا معطيات ما يعرف الآن بعلم القراءة اللسانيّ وعلم القراءة السيميولوجيّ، وهما الأكثر حداثة في هذا المجال. وبصددهما يطرح الأستاذ عبد الجليل مرتاض السؤال التالي: هل من علمِ قراءةٍ لسانيّ ؟ ثم يحاول الإجابة عنه قائلا:" وبناء على هذا

---

[1]- حول اللسانيات وعلاقتها بالدلالة والقراءة. عبد الجليل مرتاض. محاضرة مخطوطة ألقيت على طلبة الماجستير. تخصص علم الدلالة. كلية الآداب. جامعة بن خلدون. تيارت.

[2]- التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 35.

التنبيه، فإن القراءة والقارئ يمكن أن نعالجهما من الوجهة الألسنية مثلما نعالج اللغة واللسان والكلام كما جاء عند سوسير، واليوم نرى أنه بات مباحاً أن نبحث عن علم القراءات اللسانيّ الذي يجب أن يكون في خصوصيته مستقلا عن علم اللسانيات العام. فأوجه القراءة الدالّة على ذاتها ولذاتها حقلُها الآثار والتراث سواء كانت ملفوظة أم مسموعة أم مرئيّة. وهي قارّة في 'هو' الغابر ومتمثلة في 'أنا' الحاضر. وإن التباين فيها لا يحدث منها بقدر ما يصدر عن الفئات المتعاملة معها من الخارج، وعلى قدر هذا التعامل المجحف أو العادل يكون هذا التباين. وأما غير الملفوظة، أو المسموعة مثل المرئية، فيمكن إدراجها في سلّم لا يزال غائبا هو علم القراءة السيميوطيقي أو السيميولوجي، حسب طبيعة الإشارات والعلاقات القرائية:

القراءة
- ← **ملفوظة** ← **قارئ** ← **نص لسانيّ مكتوب**
- ← **مرئية** ← **سيميوطيقيا** ← **إشارات أو علامات غير لسانية**
- ← **مسموعة** ← **سامع** ← **نص لسانيّ شفويّ "**[1]

ولقد نقلنا النص، رغم طوله، لأننا نرى أنه يمثل توطئة ضرورية، بما فيها من تفاصيل، لفهم هذا المخطّط في ربط العلاقات بينه وبين المعطيات القرائية التي أوردها الإمام النووي في كتابه (التبيان)، حيث أورد المؤلف نص الحديث الموقوف على الحسين بن عليّ كرّم الله وجهه: "إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم وكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار"[2].

فما أورده المؤلف في خطاطته حول القراءة المرئية السيميوطيقية يتوافق تماما مع ما أورده النووي في نص الحديث، وهي جملة 'يتفقدونها في النهار'. وهو ارتباط في شبه تطابق دلاليّ لأن النهار هو مجال الأشياء الحسيّة في الأرض والسماء التي نُشاهَد وتُتفقّدُ بالحواس الخمس، حيث توحي بإشاراتها السيميوطيقية. وهي تمثل المقابل الماديّ لمعاني القرآن الكريم كآيات مبثوثة في الكون. وعملية الربط والاعتبار هي التي تؤدي في النهاية إلى القراءة المرئية السيميوطيقية.

[1] - عالم النص والقراءة. عبد الجليل مرتاض. مرجع سابق. ص: 39.

[2] - التبيان . الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 43.

ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في قواه تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الذينَ يذْكُرُون اللَّهَ قِيَامًا وقُعُودًا وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار**﴾{آل عمران/101}.

أما التأني مع الوعي المؤديين إلى التماس معاني التراكيب والألفاظ والعبارات والعلاقات النحوية والفنية، فإنه ينبّه إلى ذلك في مباحث عديدة من كتابه (التبيان)، وذلك كترجيحه قول العلماء الذي صاغه بصيغة الإفراد 'قال العلماء' للجلالة على أنه راجح ومجمع عليه. يقول في ذلك: " قال العلماء: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة، ثم البقرة ثم آل عمران [...]، ويستحبّ إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها، و دليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جُعِل لحكمة، فينبغي أن يُحافظ عليها إلا في ما ورد المشرّع باستثنائه"[1]. وترتيب المصحف وقفيٌّ من الرسول صلى الله عليه وسلم، وترتيب السور في القراءة والتلاوة يحقّق مراعاة المناسبة بين الآيات والذي هو أحد علوم القرآن الكريم المهمة. " ولعل المفسرين لم يبالغوا حين قدموا أحيانا ذكر المناسبة بين الآيات على معرفة سبب نزولها، كلّما رأوا هذه المناسبة هي المصحِّحة لنظم الكلام، ولعلهم بلغوا ذروة التحقيق العلمي حين أوجبوا البداءة بذكر سبب النزول حين يكون وجه المناسبة متوقفا على ذكر الأسباب"[2].

ولتحقيق الهدف القرائي الثالث ممثلا في مستوى الفهم، فإن الإمام النووي لا يكتفي في كتابه (التبيان) بعلم مناسبة الآيات وعلم أسباب النزول ودورهما في تحقيق الدلالة، بل يضمّ لذلك علما قرآنيا ثالثا يكتمل به المثلّث الدلالي المحقِّق للفهم وهو علم القراءات القرآنية ممثلة في القراءات الساعية المتواترة بشروطها الثلاثة المجمع عليها وهي:

أ- صحة الإسناد،

[1]- التبيان . الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 67.

[2]- مباحث في علوم القرآن. صبحي الصالح. ط:13. دار العلم للملايين. بيروت. 1981. ص: 150.

ب- عدم مخالفة وجه من أوجه النحو والعربية،

ج- عدم مخالفة الرسم القرآني العثماني الموقوف على إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقول في ذلك:" وتجوز قراءة القرآن بالقراءات السبع المجمع عليها، ولا يجوز بغير السبع، ولا بالروايات الشاذة المنقولة عن القرّاء السبعِ"[1].

إن المستوى القرائي الثالث المتعلق بالفهم منضبط حصرا بين هذه العلوم القرآنية الثلاثة الضابطة لنصّه في سوره وآياته:

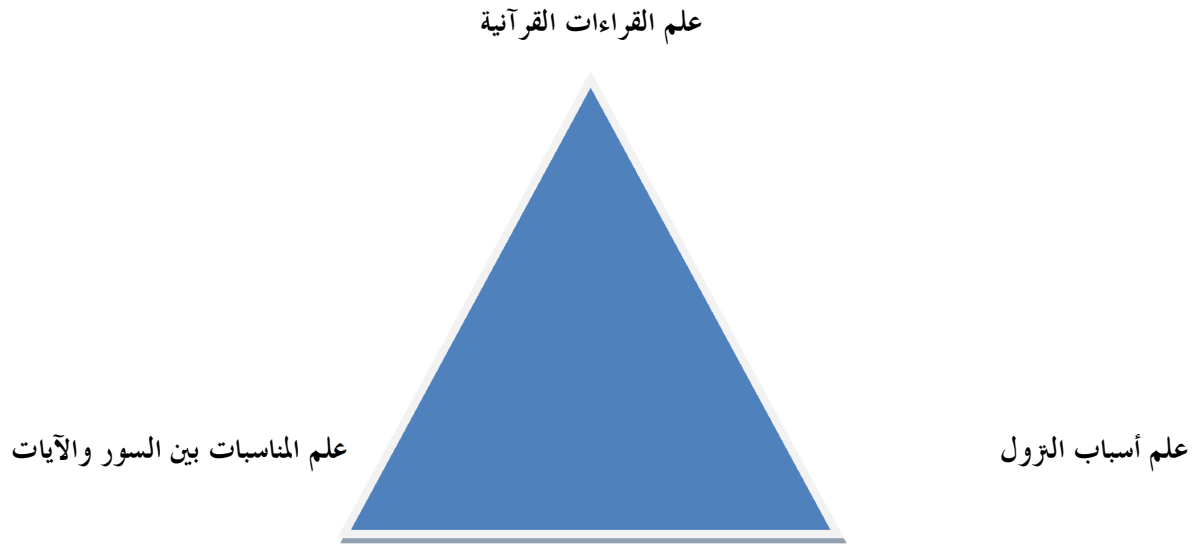

العلوم الضابطة للمستوى القرائي الثالث وهو مستوى الفهم

وتعتبر المعطيات السيميولوجية في وقتنا الراهن المقاربة الأكثر تداولا كآلية حديثة في تحليل الخطاب اللغوي اللساني عامة، والخطاب الأدبي الفني خاصة. وقد أدى بنا عمق التفحّص لتوجيهات وإشارات الإمام النووي في هذا المجال في كتابة(التبيان) إلى اكتشاف سبقه المبكّر في الربط بين القراءة الملفوظة والمرئية السينيوطيقية والسمعية الآكوستيكية كما وضحنا ذلك في المخططات السابقة من هذا المطلب.

[1] - التبيان . الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 67.

ففي القرن السابع الهجري الموافق للثالث عشر الميلادي، يشير مؤلف (التبيان) -ضمن الرؤية القرآنية التي هي أوكد مصادر عالمه الدلالي كما مرّ معنا - إلى كيفية تجاوز المأزق اللساني السيميائي الذي أشار إليه تصريحًا قادة عقاق في دراسته (مأزق السيميائية)[1] ، والذي أشار إليه تلميحا عبد الجليل مرتاض في كتابه (علم النص والقراءة) بقوله: " والبوم نرى أنه بات مباحا أن نبحث عن علم القراءات اللساني الذي يجب أن يكون في خصوصيته مستقلا عن علم اللسانيات العام، فأوجه القراءة الدالّة على ذاتها ولذاتها حقلها الآثار والتراث سواء كانت ملفوظة أم مسموعة أم مرئية[2].

إن هذا التباين المؤدي إلى ما يشبه الأزمة الإيبستمولوجية المعرفية التي زادها العالم السيميائي تعقيدا بغموض إشاراته وتوع تأويلاته، وتضارب مدارسه، راجع إلى غياب التصور الشامل الكامل المتوازن للوجود برمّته، لا في بعده الأنطولوجي الكوني، بل حتى في بعده الغيبي الميتافيزيقي. وهو نباين يصدر فعلا عن الفئات المتعاملة مع النص عند قراءته بعد تفكيك بنيته بالمناهج الحداثية، حيث تنشطر "الأنا" التي يشير إليها عبد الجليل مرتاض في نصّه السابق، وإن حضرت مبتعدة عن "الهو" الغابر المتمثل في جذوره التراثية والوجودية. ولعله يشير إلى التناقضات القائمة بين البنى السطحية والعميقة في اللسانيات التوزيعية التحويلية التي انتهت بالنظرية القرائية الأكثر شيوعا الآن، وهي نظرية موت المؤلف وبقاء النص بلا هوية ولا مرجعية يصبّ في هذا المجال." وإذا كانت الغاية من القراءة هي الكشف عن عالم النص وتحديد مقصديته، فإن هذه ليست ميسور، إذ قد تعترض طريقها صعوبات وعوائق كثيرة منها على سبيل المثال ما يلي:

1- نفتح النص على الاحتمال والتعدد في المقصدية:

2- هوى القارئ ومحاولته تسخير النص لأغراضه

[1]- ينظر: مأزق السيميائية. قادة عقاق. قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومي والإجرائي. مجلة سمات. جامعة المنامة. البحرين. مج:2. ع: 2. ماي. 2014. ص:5 وما بعدها.

[2] - عالم النص والقراءة. عبد الجليل مرتاض. مرجع سابق. 39.

3- محاولة إخضاع سلطة النص لسلطة القارئ

4- تقييد القارئ بشروط وأحكام مسبقة وظروف خاصة لا يستطيع التخلي عنها

5- عدم مراعاة عامل الزمن في قراءة النص الواحد

6- عدم اتفاق القراء على مبدأ تحرير النص من أوهام المؤوّل

7- التحامل على النص القرآني ومحاولة تجريده من أزليته" [1].

ولعله في ظل كل تلك الصعوبات والعوائق، يقترح صاحب كتاب (في عالم النص والقراءة) سلّما قرائيا ما زال غائبا، ويسميه بعلم القراءة السيميوطيقي، حيث يقول في اقتراحه: "و على قدر هذا التعليل المححف أو العادل يكون هذا التباين. وأما غير الملفوظة أو المسموعة مثل المرئية، فيمكن إدراجها في سلّم لا يزال غائبا هو علم القراءة السيميوطيقي أو السيميولوجي حسب طبيعة الإشارات والعلاقات القرائية"[2].

ولتعد الآن إلى نص الإمام النووي الملخِّص لكل هذه الإشكاليات في عبارات موجعة مركّزة فيقول: " قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فتجتمع القراءة والنظر هكذا؛ قاله القاضي حسين من أصحابنا وأبو حامد الغزالي وجماعات من السلف"[3].

فلماذا كان يرى أن القراءة من المصحف أفضل؟ والجواب على هذا السؤال المنهجي هو : لتركيز البؤرة الدلالية السيميولوجية عبر النظر في رسوم الحروف وما تنطوي عليه من إيحاءات يدعّم معانيها الترتيل المسموع، أو كما قال في نصه السابق' فتجتمع القراءة والنظر هكذا'. وهنا،

[1] - جدلية الفعل القرائي عند علماء التراث. دراسة دلالية حول النص القرآني. أحمد عرابي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2010. ص:5.

[2] - في عالم النص والقراءة. عبد الجليل مرتاض. مرجع سابق. ص:39.

[3] - التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 79.

تتوحد وسائل تلقّي النص كما توحد النص بوصفه مصدرا لتلقي الحقائق بعيدا عن التأويلات القرائية التي تتعدّد مداخلها كما رأينا.

إن القراءة المرئية في حالة النظر في المصحف تزيد في توسيع المعاني الدلالية للقراءة اللفظية السمعية لمن ما زال في المستوى القرائي الثالث، وهو مستوى الفهم، ليترقي عبر الجمع بين القراءتين إلى المستوى القرائي الرابع والأخير وهو مستوى التذوّق. والشاهد من كلام النووي المتعلق بذلك في كتابه(التبيان) هو : " ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص، فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبّرُه في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر قلب"[1].

إن استواء الخشوع والتدبّر لا يكون إلا بالارتقاء من المستوى الثالث، مستوى قراءة الفهم، إلى المستوى الرابع والأخير، وهو مستوى التذوّق.

المطلب الرابع: مستوى التذوّق القرائي في كتاب (التبيان)

ويتحقّق هذا المستوى في " قراءة متتالية متأنية تحلّل البنى السطحية والعميقة والأصلية والفرعية، ورصف المعاني الإنمائية الدقيقة لتعزيز الفكرة الأساسية وتتبّع المقويات الدلالية والمعجمية والمجازية والفنية والخاصة ونحيط بامتداد النص وتبرز عمقه، وتكتشف أبعاد التفكير والتعبير والتصوير وترابط أجزائه بالبيئة اللغوية والاجتماعية والفكرية، والبنية الفنيّة. وبذلك تتمثل الظلال والحوادث والأفكار والانفعالات والآثار النفسية الجمالية، فينفعل القارئ بنا توحي به من عواطف وصور الجمال. وهذه هي قراءة الدارسين والمحلّلين للنصوص الأدبية وغيرها"[2].

إنه آخر مستوى رفيع يمثل نهاية الغايات لتذوّق النص ويقف عنده فكر الإمام النووي في تصوره لمعنى القراءة ضمن دائرة مرجعيته الثقافية الشرعية المنطلقة ، كما مرّ معنا، من النظرية

[1] - التبيان. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 79.

[2]- حول اللسانيات وعلاقتها بالدلالة والقراءة. عبد الجليل مرتاض. محاضرة مخطوطة ألقيت على طلبة الماجستير. تخصص علم الدلالة. كلية الآداب. جامعة بن خلدون. تيارت.

الفقهية العامة، نظرية الأصل والظاهر التي سبق تفصيل معالمها في ارتباطها بعقيدة القضاء والقدر، حيث تكتمل بؤرتها الدائرية من جهتين اثنتين: أمر الله الكوني وأمره التشريعيّ، أو قضاؤه السُّنني في الحياة والبشر من جهة، وقضاؤه الحكمي في رسالات أنبيائه المرسلين[1]. إن هذه النظرة هي التي أكدّها الإمام الشافعي، مؤسس المذهب، في كتابه (الرسالة) كما دلّلنا على ذلك في إثبات علاقات الارتباط المرجعية بينه وبيت الإمام النووي ضمن دائرة المنابع السالفة الذكر. فانطلاقا منها، تتفرع وتتشعّب مختلف الجهود الدلالية سواء في بعدها اللغوي أم في بعدها السنّي الفقهي. وكلّ ذلك يمثل المجال القرائي الذي يضم كلّ المستويات السابقة بترتيبها التدريجي: الأداء فالحفظ فالفهم فالتذوّق، وإن كانت كلّ خلاصات المستويات السابقة تتجمّع في نقطة واحدة في هذا المستوى الرابع الذي نحن بصدده، حيث يقول فيه الإمام النووي: " تحصيل ما لابدّ للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية كحفظ القرآن والحديث"[2]. وهذا مستوى الأداء. ثمّ يقول: " وعلومهما"[3]، أي تحصيل العلوم التي آلات ضرورية لفهم دلالات نصوص الكتاب والسنّة كاللغة.

ويقصد بذلك، بالنسبة للقرآن، علوم القراءات المتواترة والتفسير بقواعده وضوابطه الشرعية، ومصطلح الحديث وعلم الرجال، أي الجرح والتعديل؛ وهذا مستوى الحفظ الثاني . وهو ليس حفظا للألفاظ المتحقّق في مستوى الأداء السابق بل هو حفظ للمعاني بعد ضبط دلالاتها بعلوم القرآن والسنّة المشار إليهما.

أما المستويان الثالث والرابع، أي مستوييْ الفهم والتذوّق ، فهما مرتبطان ارتباط اقتضاء والتزام، أي أنه لا تذوّق بلا فهم. ويقول في النص المقتبس من التبيان سابقا، والذي اجتزأنا جمله لضرورة الدراسة: "والأصول [يقصد أصول الدين وأصول الفقه] والفقه والنحو واللغة والتصريف ومعرفة رواد الحديث والإجماع والخلاف"[4].

---

[1] - ينظر: الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث تحت عنوان: المنابع المعرفية للعالم الدلالي عند الإمام النووي.

[2]- محمد بن صالح العثيمين. دار بن الجوزي. القاهرة. ص: 67. - مقدمة المجموع. الإمام النووي. شر:

[3] - مقدمة المجموع. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 67.

[4] - مقدمة المجموع. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 69.

فبعلم الصرف واللغة والنحو نفكّك البنية السطحية للتراكيب والألفاظ في مستواها المعجمي والاشتقاقي والنحوي من أجل ضبط دلالة النظم عبر علائقه الإعرابية. وبعلم الأصول وقواعده، وعلم التفسير وضوابطه، وعلم مقاصد الشريعة ومآلاتها، وربط ذلك كلّه بأصول الدين، أي التوحيد والعقيدة، تتضح البنية العميقة للنص الشرعي.

ولنأخذ أنموذجا لنظرته لعلم التفسير واستخدامه من أجل تحقيق مستوى التذوّق القرائي لتراه يذكر كتب التفسير التي كان يعتمدها دراسةً وتدريساً في مجالس العلم بدمشق، ثمّ يطبقها على النص القرآني وصولا إلى مستوى التذوّق.

فمن كتب التفسير التي تلقاها عن مشايخه في المدرسة الرواحية كتاب (معالم التنزيل) للمحدث الشهير الإمام البغوي. وهو كتاب يصنف في كتب التفسير بالأثر، أي النقل. وممّا كان متداولا في مجالس العلم ببيئته كتاب (التفسير الكبير) للفخر الرازي الذي كان أكثر ميلا للمعقول والتأويل، زيادة على كتب أخرى يطول المجال لو ذكرت كلّها.

وفي تصنيفه الدلالي للمفسرين، نجده يقسم المدارس التفسيرية إلى قسمين: مفسرون بالأثر والنقل عن الصحابة والتابعين، ومفسّرون بالرأي من غير دليل صحيح عبر التأويل العقلي البحت. ويرجع الإمام النووي خلفيات المفسرين بالرأي في التأويل الفاسد إلى طلب المحاججة والغلبة في الجدال بسبب تمترسهم ضمن الفرق الكلامية المتصارعة في عصر الضعف في القرن السابع الهجري كالمعتزلة والمرجئة والقدرية والشيعة وغيرها.

ويقول الإمام النووي في ذلك: " ويحرم تفسيره بغير علم"، [يقصد القرآن] والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها. والأحاديث في ذلك كثيرة والإجماع منعقد عليه[1].

وننبه هنا، في هذا النص المقتبس له، إلى أمر ملفت للنظر، وهو تركيزه على المعاني. و لم يقل ألفاظ السور أو الآيات. فالمعاني ينبغي أن تُردّ إلى أهلها المتخصصين في استنباطها، حيث لا تُنال

[1]- التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 109.

إلاّ بالتذوّق البلاغي والنفسي عند التلقّي عبر التدبّر والخشوع مع استجماع آلات العلم السابق ذكرها. وهذا هو مستوى التذوّق القرائي الرّفيع.

كما يُرجِع التفسير المردود بالرأي إلى عدم اعتماد السماع والرواية الممحّصة في ضبط معاني دلالات الألفاظ القرآنية، زيادة على مخالفة الإجماع، أو عدم الرجوع إلى أهل الاختصاص في اللغة. والمفسرون ذوو الأهلية القادرون على التذوّق، هم الذين يجمعون، عنده، بين صحيح المنقول وصريح المعقول، حيث يقول في ذلك: " فمن كان أهلا للتفسير، جامعا للأدوات التي يُعرفُ بها معناه، وغلب على ظنّه المراد تفسيره إن كان ممّا يُدرك بالاجتهاد كالمعاني والأحكام الجليّة والخفيّة والعموم والخصوص والإعراب وغير ذلك. وإن كان ممّا لا يُدرك بالاجتهاد كالأمور التي طريقها النقل وتفسير الألفاظ اللغوية، فلا يجوز الكلام فيه إلاّ بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله"[1].

[1]- التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 109.

البـــاب الثـــاني

المستويات الدلالية للألفاظ المفردة والمركبة
في أهم مؤلفات النووي

- الفصل الأول: مستويات التحليل الدلالي في بنية اللفظ المفرد.
- الفصل الثاني: الخطوات المنهجية لدراسة الألفاظ المفردة.
- الفصل الثالث: دلالة الألفاظ المركبة (النحو والبلاغة).
- الفصل الرابع: دلالة التراكيب الفقهية والأصولية عند الإمام النووي

الفصل الأول

مستويات التحليل الدلالي في بنية اللفظ المفرد

(نماذج تطبيقية للتمثيل من أهم المؤلفات)

- المبحث الأول: الدلالة اللفظية المعجمية بين اللغة والاصطلاح.
- المبحث الثاني: دلالة الألفاظ على المستوى الاشتقاقي.
- المبحث الثالث: الدلالة المعجمية للفظ المفرد.

الفصل الأول

مستويات التحليل الدلالي في بنية اللفظ

(نماذج تطبيقية للتمثيل من أهم المؤلفات)

المبحث الأول: الدلالة اللفظية المعجمية بين اللغة والاصطلاح

المطلب الأول: معنى الكلمة واللفظ والمفردة في اصطلاح الإمام النووي:

مما يلفت النظر في دلالة الألفاظ عند الإمام النووي أنه يفرق في الاستخدام بين اللفظي والمفردة اللغوية:

أ- فإذا هو استخدم مصطلح اللفظ فهو يريد به كلمة مفردة ذات معنى استلّت من تركيب الكلام وسياقه وعزلت للحاجة إلى ضبط معناها المعجمي أو الاصطلاحي أو هما معا.

وقد تكون كلمة مركبة على شكل كلام تام المعنى له طرفي الإسناد (المسند والمسند إليه) كما في معجمه (دقائق المنهاج) في شرحه للفظة **أسباب الحدث**، فهي في حكم جملة اسمية حذف مبتدأها والتقدير : هذه أسباب الحدث .

ب: كما يقارن تركيبها وصياغتها، أي لفظته وكلمته بكلمة شيخه، أو بالكلمات المُصَاغَةِ لغيره كما هو ملاحظ في "باب ما ينقض الوضوء".

ج: أما اذا أراد المفردة اللغوية وهو ما عبر عنه في مقدمة كتابه (تهذيب الأسماء واللغات) ب:'أنواع من مفردات اللغة'، فإنه يقصد الألفاظ التي لم تدخل التركيب، بل جمعت سماعا وكذلك النصوص المطولة المنقولة من أفواه الرواة ، والذين رحلوا إلى البوادي لملاقاةِ الأعراب والسماع منهم، أو

دوّنها العلماء واللغويون في مجالس الخلفاء كمجالس ثعلب مع خلفاء العصر العباسي في عصر ازدهاره الأول.

وقد يستخدم في شروحه لتراكيب الحديث النبوي مصطلح 'اللفظة' بدل الكلمة أو القول وذلك بالتعيين الإشاري كقوله 'هذه اللفظة '، وذلك للتعبير عن الصيغة التركيبية التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم للدلالة على التحريم المنصوص عليه، كما في حديثه النبوي الشريف، الذي نأخذه هنا كتطبيق نموذجي، وورد فيه **زجره** لحفيده الحسن بن عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه وأمه فاطمة رضي الله عنها بقوله: "بخ بخ"، أما علمت أنا قوم لا نأكل الصدقة "، فهل المراد باللفظة هنا، الجملة أم الكلام أم التركيب الإسنادي، ولا يتبين ذلك إلا بعد التقسيم النحوي التوزيعي للجمل في التركيب.

[أما علمت][أنا قوم][لا نأكل الصدقة]

ف+فاعل م+خبر ف+فاعل+مفعول به

وفي رواية أخرى من هذا الحديث النبوي: ((أما علمت أنَّا قوم لا تحلّ لنا الصدقة)) حيث قام الإمام النووي أثناء شرحه لهذه اللفظة التي يريد بها التركيب كلّه في الجمل الثلاث بعملية استبدال تقديري نحوا أي لا تحل لنا أكلا.

د: أما فيما يخص 'المفردة أو الإفراد' فقد استخدم ذلك في بعض كتبه كدقائق المنهاج، و(التبيان في آداب حملة القرآن) و(معجم تهذيب الأسماء واللغات) فالمفردة في اصطلاحه تتناول المعنى المعجمي مضافا له المعنى المنطقي كما في التعاريف المتفق عليها اصطلاحا، لأن طبيعة عقليته العلمية كفقيه وأصوليّ تنزع إلى التجريد للألفاظ الدقيقة التي تُبنى عليها الأحكام الشرعية.

ولهذا يستخدم مصطلح المفردّة والإفراد عند معالجتها حتى لا يقع اللبس أثناء الاجتهاد. والملاحظة المهمة أنه فعل هذا مع كتبه التي ألّفها بأسلوبه وألفاظه المنتقاة كـــ(المنهاج) وغيره، فإذا

أفردت الكلمة احتفظت بمعناها المعجمي، ومعناها المنطقي، وببنيَتيْها الصوتية والخطية كجزء من وظيفتها اللغوية، ضمن المستويين الصوتي والصرفي.

أما إذا حذفت احتفظت بوظيفتها اللغوية لكن على مستويات أعلى وهو المستوى التركيبي النحوي حيث يقدر لها وجود بعد تحديد موقعها وحركتها الإعرابية، وكذلك يقدر لها معنى ضمن النظم عبر ما تتعلق به في السياق بلاغة وأسلوبا.

المطلب الثاني: الخصائص العامة للدلالة اللفظية

إن أهم ما تتميز به الدّلالة اللفظية من خصائص عامة ما يلي:

1 – القصدية: وهي أهم خاصية فيها، لأن التلفظ بـــها مرتبط بإرادة الإنسان العاقل الناطق المريد قصدا للمعاني، لغة أو عرفا أو اصطلاحا، وسواء أكانت هذه الدلالة اللفظية المُرادة طبعيةً أم عقليةً أم وضعيةً، ففيها دائما معنى القصدية. وقد لا يلتبس الأمر ،بحيث يفهم معنى القصدية بسهولة إذا كانت الدلالة عقلية أو وضعية. ولكن في الدلالة الطبعية قد لا يتّضح المعنى بشكل جيد. فلو قارنّا الدلالة الطبعية اللفظية للفظةِ "الصراخ" الدالة على المصيبة بالدلالة الطبعية غير اللفظية، وهي حمرة الوجه أو صفرته الدالة على الوجل أو الخجل، لوجدنا أن في صفرة الوجه أو حمرته عملا فيزيزيولوجيًّا لا إراديًّا باعتباره غريزة بيولوجية، ويتمثل في نقلٍ منعكسٍ فطريّ لا إراديّ عبر الأعصاب التي تمّ تنبيهُها. بينما "الصراخ" هو فعل إراديّ، إذ هناك من يتمالك نفسه عند المصيبة أو الغضب كما في الحديث الشريف الذي نقلناه سابقا كتطبيق في الدلالة الصرفية، وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري:((ليس الشديد، بالصُرَعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[1] .

2 – الصوتية أو النطقية: إذ كلّ ملفوظ مُصوّت به اصطلاحًا.

3 – السببية: لأن الدلالة اللفظية لا تكون لغويةً معتبرة تدخل مخزون اللغة في المجتمع، أو بطون المعاجم في التاريخ ما لم تكن وضعية، سواء أكانت اصطلاحية أم عرفية، أي أنه تمّ التواضع عليها

[1]- رياض الصالحين.الإمام النووي . مرجع سابق. ص:31.

بين أفراد المجتمع تقريرا أوليا أو قبولا بالعادة أو بالاستعمال ولو كان منشؤها اعتباطيا فرديا في البداية. وهي بهذا السبب معتبرة عند الجميع، أصوليين وبيانيين ومناطقة.

4 – المحورية أو المركزية: بمعنى أنها تحمل معنى عاما ثابتا في التاريخ أو في الاستعمال المتواتر، والذي يجعل هذا المعنى مصدرا للاشتقاق انطلاقا من الحروف الأصلية، ثم إدخال الزيادات عليها. فهي مصدر كلّ الدلالات الهامشية التي تتولد عنها[1] عبر التطور التاريخي سواءً أماتت بعد ذلك أم بقيت حيةً.

5 – التميز البنيوي: عبر الخصائص المشَكّلة للملفوظ، ومنها درجته وخاصيته وميزاته الصوتية الصرفية أو الإيقاعية أو غير ذلك.

6 – التداخل: "و يتم ذلك بين أصناف الدلالات، فيما يسمى بالتحولات الدلالية التي منها المجاز والاستعارة والكناية"[2].

7 – المحورية أو المركزية: وهي تضمن حركة الانعكاس من الذهن إلى الواقع أو العكس مرورا باللفظ والخط، حيث يتم الاستبدال بالتقدير النحوي أو الأصولي، كما مرّ معنا في التطبيق السابق في حديث الصدقة ليتم العبور والمرور ضرورة باللفظ من خلال استبدال الصورة الذهنية - وهي الجملة المعيارية نحوا - بالصورة اللفظية واستبدال الصورة اللفظية بالصورة الحسية، نزولا بها إلى الواقع كدلالة وضعية طبعية، ثم العودة بها صعودا إلى الذهن كما نبّه إلى ذلك علماء الكلام والأصول في مثلثاتهم الدلالية قديما كابن سينا والغزالي والآمدي، وكما أكدته النظريات الدلالية حديثا.

---

[1] - ينظر: الفصل الرابع. النظام الصرفي. مبحث تعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد. اللغة العربية في مبناها ومعناها. تمام حسان ، مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.1991.ص:133 وما بعدها، وينظر: وكذلك: دلالة الألفاظ. إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.1958 .ص: 113.

[2] - التركيب السيميائي في التراث العربي الإسلامي من القرن3ه . فضيلة بورمة. رسالة ماجستير. إش: د. الأخضر الجمعي. كلية الآداب. جامعة الجزائر.1999. المقدمة. ص: ب.

فهل كان الإمام النووي رحمه الله يراعي كل هذه الخصائص في أبحاثه المعجمية للألفاظ المفردة؟ أم كان يراعي بعضها ؟ ولماذا؟

وهل كان النووي لا ينصّ في معاجمه إلا على الصيغ الغريبة غير الجارية على القياس والإطّراد من ظواهر اللغة[1] باعتبار أن قواعد الجمع والاشتقاق إذا استقرت سليقةً في ذهن المتكلم لم يعد هناك حاجة إلى النصّ عليها في المعجم؟

ومن الأسئلة المنهجية التي تؤطر مباحث هذا الفصل السؤال المحوري التالي: هل كان لطبيعة عقليته الفقهية كمجتهد في المذهب الشافعي ، وقبل ذلك طبيعة تكوينه كمحدث متمكن من الحديث النبوي، ما جعله يركز كثيرا على دراسة الألفاظ الثابتة بالرواية المسندة الممحّصة المتداولة الفصيحة سليقة، سواء أكانت لغوية عامة أم اصطلاحية خاصة؟ كل ذلك سيتجلى من خلال التطبيقات النموذجية وما تبديه من نتائج مستخلصة.

وهل كان يتوخى الموضوعية في أبحاثه اللغوية على مستوى المفردات اللغوية التي كان يتناولها في معاجمه فعلى مستوى اللغة كذخيرة تراثية تحوي أكثر من ثمانين ألف جذر فهو وغيره - ممن فقهوا في هذا المجال بحكم التخصص سواء من حيث عدم القدرة على الإحاطة التامة والاستقراء الشامل وقبله حسم الأمر بن الأنباري بقاعدته الشهيرة "إثبات مالا يدخل تحت الحصر بطريق النقل محال"[2].

[1] - دلالة الألفاظ. إبراهيم أنيس، مرجع سابق. ص: 50.

[2] - بن الأنباري. لمع الأدلة .ص.ص: 98-99 ، نقلا عن كتاب : الأصول. دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. تمام حسان . عالم الكتب. القاهرة.2009. ص: 16.

المبحث الثاني: دلالة الألفاظ على المستوى الاشتقاقي

المطلب الأول: الدوافع التاريخية للتوجه الاشتقاقي عند الإمام النووي

1- إن اهتمام العرب الأصيل بالرواية الشفهية لعب دورا محوريا في تدوين اللغة العربية لجميع جوانبها، وخاصة في بداية العصر الأموي تركيزا على الشعر والمفردات الفصيحة بعده، حيث كان كل ذلك يتم عبر السماع المباشر من أفواه الأعراب الخلص في البوادي.

2- ثم تبع ذلك الاهتمام بعلم الأنساب لحفظ أصول قبائلهم ذات الأرومة العربية الصافية بعد الاختلاط بالعجم، وإن كان تفاخرهم بها يمتدّ بعيدا في العصر الجاهلي كما تصف ذلك أشعارهم. وقد انعكس ذلك كلّه على طابع حياتهم الاجتماعية، وعلى لغتهم خصوصا، بحيث "يمكننا أن نقول إن الألفاظ العربية كالعرب أنفسهم، تتجمع في قبائل وأسر معروفة الأنساب، وتحمل هذه الألفاظ دوما دليل معناها وأصلها وميسم نسبها، وذلك في الحروف الثلاثة الأصلية التي تدور مع ما يتولد عنها وما يُشتقّ منها من ألفاظ، وتختلف مفردات هذه المجموعات أو الأسر كثرةً وقلّةً، فهي كالقبائل منها المنجب والعقيم والمكثر والمقل "[1].

3- ولما كانت أسانيد الرواية اللغوية ترتكز على نفس روابط وأصول ومصطلحات الحديث النبوي الشريف رواية ودراية، والأسانيد ترتكز على الرواة، فإن كلّ راوٍ لابدّ من رفع جهالته ومعرفة ضبطه وعدالته من عدمها، لذلك كلّه نجد أن:

أ- الدافعية القوية بعلم الأنساب كعلم عربيّ أصيلٍ في الحياة الجاهلية، ونشوء علم المفردات المعجمية وازدهاره، ونشوء المعجمية عبر الرواية في القرن الأول سماعًا ومشافهةً من الأعراب، خاصة في العصر الأموي.

[1]- فقه اللغة وخصائص العربية. محمد المبارك . دار الفكر .بيروت. 2002. ص.ص: 70-71 .

ب- ثم ما تلاه من تدوينٍ للسنة النبوية في نهاية هذا القرن الهجري الأول بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ثم ازدهار علومها بتمييز الصحيح من السقيم في القرن الثاني الهجري، حيث نشأ من خلالها علم الرجال وعلم الجرح والتعديل لتمحيص الأسانيد والمتون.

وكل ذلك شكّل ضفائر أصيلة انجدل منها حبل ممتدّ كوّن في النهاية جذورَ علم الاشتقاق .

وبناء على ذلك كله، فلا عجب من أن نرى علم الاشتقاق يبدأ، كموضوع مؤطر ومؤلفات، قائمًا على دراسة الأعلام والأسماء قبل اللغات المتداولة كلهجات في الاتصال الشعبي. وهذا ما نلاحظه فيما عرف في بدايات التأليف المعجمي بالرسائل الإفرادية كرسائل الخيل وأسمائها، والمطر و أسمائه، والسيف وغير ذلك. وكان أبكر ما وصل إلينا منها كتاب الأصمعي - ت216 ه- في "اشتقاق الأسماء" يعني الأعلام. ولما كانت التفريعات الاشتقاقية لا يمكن تتبعها إلا بضبط الصيغ الصرفية ميزانا ودلالة مع الشكل والضبط، فإننا قدمنا الدلالة الاشتقاقية على الصرفية في هذا البحث تطبيقا لا تنظيرا.

لقد كان الإمام النووي وظيفيا عمليا في مباحثه الاشتقاقية. وكان يركز على التطبيقات لا على التنظيرات من حيث هي تقسيمات معهودة للاشتقاق في فقه اللغة العربي التراثي كالاشتقاق الأصغر الذي اشتغل عليه الخليل -ت 175 هـ-، ثم ما ظهر بعده من أنواع أخرى، كالاشتقاق الكبير والكُبار ...

وقد أشرنا سابقا إلى أن ملكته التطبيقية في علم الصرف والاشتقاق قد رسخت في شبابه بحفظه وبمدارسته لكتاب (إصلاح المنطق) لابن السكيت. وهو الكتاب الذي قال فيه الخطيب البغدادي، "قال أبو سهل: سمعت المبرد يقول ما رأيت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب يعقوب

بن السكيت. وقال ابن خلكان: ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة ومثل إصلاح المنطق ، ولاشك أنه من الكتب النافعة الممتعة الجامعة للكثير من اللغة ، ولا نعرف في حجمه مثله في بابه"[1]

ولو أخذنا نصوصا من هذا الكتاب وحللناها لاستنتجنا المنهجية التي كان يتبعها الإمام النووي في دراسة المستوى الاشتقاقي جريا على أسلوب أستاذه ابن السكيت.

ففي الباب الأول من الكتاب: باب فعْل وفعِل باختلاف المعنى أملى ابن السكيت في مادة الوقر في الصفحة الأولى من الكتاب ما يلي:" والوَقْرُ : الثِّقل في الأذن ، من قوله تبارك وتعالى﴿**وَفِي ءَاذَانِنَا وَقرٌ** ﴾ {فصلت /5}

ويُقال مِنْهُ : "قد وُقِرتْ أُذْنه فهي مَوْقُورَةٌ " [2]، فإشارته إلى مِنْ التبعيضية بقوله ويقال مِنْهُ أشارة إلى الاشتقاق اللفظي الحرفي المعجمي الذي يتم فيه نقل المعنى المشترك بصورة مطابقة، بينما نلاحظ أنه عند التفريع الصرفي لا يضيف كلمة 'مِنهُ ' كما في النص التالي: "و يقال: اللهم قِرْ أُذُنَه. ويقال أيضا: قد وَقِرتْ أذُنُه تَوْقَرُ وَقْرًا"[3]، ثم ينتقل إلى استخراج الاشتقاق الدلالي بقوله: "والوِقْرُ الثِّقْلُ يُحمَل على رأسٍ أو على ظهرٍ من قوله تبارك وتعالى: ﴿ **فالحَامِلاَتِ وِقْرًا**﴾ {الذاريات/2}

و يقال جاء يحمل وِقْرَهُ. قال الفرّاء: ويقال هذه المرأة مُوقَرَةٌ ومُوْقِرة إذا حملت حملا ثقيلا "[4].

حيث أن التناسب هنا لم يبتعد كثيرا عن أصل الاشتقاق الحرفي

الوَقْرُ (الثقل في الأذن) ⟷ **الوِقْرُ: (الثقل في الظهر) .**

دلالة معنوية ↓ **اشتقاق لفظي حرفي**

دلالة حسية ↓ **اشتقاق معنوي**

[1]- .مقدمة كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت . أحمد محمد شاكر مصدر سابق. ص:4.

[2] إصلاح المنطق ،لابن السكيت ،: مرجع سابق ص:3.

[3] المصدر السابق، ابن السكيت ص:3.

[4]. - المصدر السابق، ابن السكيت ص:4

فاللّفظان ما زالا قريبين من الدلالة الحسية قبل أن يتم الانتقال إلى الدلالة المعنوية في الاشتقاق الأخير.

المطلب الثاني: الضبط بالشكل والنقط ودوره في توجيه الدلالة الاشتقاقية

يبدأ الإمام النووي اشتغاله على الدلالة الصرفية الاشتقاقية بالشكل والضبط والإعجام والنقط. ذلك كلّه قبل المعالجة الدلالية للألفاظ المفردة ضمن التراكيب المسندة ، سواءً أكانت جملا اسمية أم جملا فعلية. وكلّ ذلك يرجع إلى وعيه اللغوي السليقي العميق، وهو ابن البادية الفصيح الذي تلقى اللغة مشافهة في صباه وفتوته على تخوم بلاد الشام ببلدته نوى بإقليم حوران المسماة حاليا درعا، جنوب دمشق .

لقد كان يرى ضرورة التأسيس القاعدي للمستويات الدلالية الأولية انطلاقا من معاينة بناء الألفاظ ثم الجمل ثم النصوص، وهذا المستوى القاعدي بناء على وجهين اثنين هما:

- الوجه الصوتي ببعده الفونيتيكي الملحوظ. وقد تطرقنا له في الفصل السابق.

- الوجه الصرفي الاشتقاقي ببعده الفونولوجي الوظيفي، والذي تمثله الهيئة والصيغة المكتوبة أصولا استمدادية أو فروعا مشتقة منها. وتظهر هذه الهيئة الوظيفية في الرسم المكتوب. وهنا يدخل الضبط بالشكل والحركات بوصفها آلياتٍ ضابطةً للدلالة.

ويضاف لها الضبط بالميزان والقياس عبر تأمل الكتابة المرسومة عينا كبناء وهيئة قائمة في الخط، إذ إن كلّ ذلك "علم نتعرف به صورة الحروف المفردة وأوضاعها وكيفية تركيبها على السطور وطريقة ما يكتب وما لا يكتب وإبدال ما يبدل في الهجاء وبماذا يبدل " [1].

[1]- أثر الرسم الكتابي العربي في الثقافة الإسلامية والحضارة المعاصرة. معتصم زكي السنوي. مجلة أفاق الثقافة والتراث، دبي ، الإمارات العربية.ع: 47 .س: 12 ، 2004، ص34.

إن ظواهر صوتية مهمة ذات أبعاد صرفية، كالقلب والإبدال والإعلال، لا يمكن تصوّرها جيدا بدون الوضع المكاني للحروف أمام العين، رسما ومحوا، وحذفا وإثباتا للتّفريق بين الحروف الأصلية والزائدة والمُدغمة والمفككة وغيرها.

إن عملية ضبط الكلمات المنتقاة التي كان يقوم بها الإمام النووي، سواء أتعلق الأمر بضبط الحركات وهو الأكثر عنده أم ضبط الحروف، كانت تتمّ بمرحلتين:

1- مرحلة النقط للتمييز بين الإعجام والإهمال،
2- و مرحلة التفرقة بين الأصول والزوائد.

إن كلّ هذه المعالجات تساعد على ضبط العلاقة الاشتقاقية من خلال التفريق بين صيغة المأخذ كما يسميه الإمام النووي، أي الأصل الاشتقاقي، وبين المشتق، أي الفرع المأخوذ. وبذلك يتم تمييز الدلالة المعجمية إنْ كانت محورية أم هامشية إضافية. وكذلك تمييزها إن كانت ثابتة أمْ متطورة، وقبل ذلك معرّفة إن كان اشتقاقها معجميا حرفيا ، أي لفظيا، أم اشتقاقا دلاليا متجاوزا للصيغة الصرفية التفريعية ومعناها [1] .

3- و زيادة على الفرقين السابقين في معالجته الصرفية للدلالة اللفظية هناك فرقٌ ثالث مهم وهو عدم خلطه بين صحة الألفاظ في الرواية الحديثية للسنة النبوية سندًا ومِتنًا، وبين صحتها لغةً أو استعمالا. وهذا نموذج تطبيقيٌّ يوضح ذلك:

ففي شرح صحيح مسلم[2] يوضح النووي في تعليقه على لفظة تُرُنْجَة أن الحديث الذي وردت فيه ،وقد أخرجه الشيخان، لا يعني ذلك أصالةَ اللفظة كلغة أو كلهجة. بينما نراه يقبل كلمة الأُتْرُنْجَة التي هي نوع من أنواع الحوامض التي ريحها طيب ولا طعم فيها وشبهها بها المنافق، في الحديث النبوي.

[1] - علم الاشتقاق نظريا وتطبيقيا . محمد حسن حسن جبل ، مكتبة الآداب ،ط: 2 ، 2009 . ص:121.

[2] - مصدر سابق. م: 4.- صحيح مسلم.

بينما في كلمة : أُلى وإلى وغيرهما، فيرى أنها مفرد كلمة آلاَء، ويرجع سندها اللغوي، لا الحدِيثي، كلفظة في السنة النبوية بإسناد حكاه الواحدي، وذلك كإشارة لكونها لغة معتبرة، وذكرُه لمختلف أوجه النطق، الاسم أو الفعل، من أجل ضبط الصيغة. ومن ثمّة، تبين الدلالة الدقيقة، فقد لا يكون الفعل هو الكلمة المطلوب ضبطها في النص؛ ولكن ما صيغ منها من أسماء أو مصادر أخذا برأي الكوفيين الذين تابعهم في ذلك، والذين يرون أن الفعل أصلٌ للاسم أو المصدر. وللتمثيل على ذلك ضبْطُه لكلمة 'الأماثل' الواردة في كتاب (التبيان) [1] حيث:

- يشرحها معجميا،

- ثم ينقلها بعد ذلك إلى المفرد إذا كانت جمعا،

- ثم يورد فعلها الأصلي إذا كانت الأسماء التي شرحها من المشتقات كأفعل التفضيل، أو الصفة المشبهة، أو حتى الصفات والنعوت الدالة عموما على الحدث وفاعله في الحال والاستقبال؛ لأن أصل الفعل هنا يحدد الدلالة كما في 'مَثُلَ' على وزن 'فَعُل'، فهي من أفعال الجبلّة الدالة على رسوخ الملكة والصفات بدون تغير في الدلالات الصرفية العامة سواء أكان ذلك في الإنسان أم في الحيوان أم في الأشياء [2].

فهو يشير إلى صيغة الفعل المجردة بالتركيز على حركة عين الفعل. وفي الشاهد المأخوذ، فإن حركة عين الفعل مرفوعة. وهي على وزن 'فَعُلَ' "فيقول: مَثُلَ بضم الثّاء، صار فاضلا خِيارا "[3]. فهو لا يشير إلى الدلالة الصرفية نظريا ولكن جملة الشرح بعد الضبط تشير إليها بدلالة التضمن أو الالتزام متجاوزا دلالة المطابقة. ففعل صار : من الصيرورة أي التحول التام في الذوات والهيئات والجبلاّت.

[1] - التبيان. مرجع سابق. الإمام النووي ، ص:130 .

[2] - ينظر: فتح الأقفال في شرح لامية الأفعال. محمد ابن مالك الأندلسي، شر: بُحرق اليمني. دار الأندلس الجديد، 2002. ص:19 .

[3] -التبيان في آداب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق. ص:130 .

4- الضبط اللهجي من خلال التنبيه على الحركات والسكنات الملائمة للنطق. وهو يسمي ذلك "اللغات". ويبدو أن الإمام النووي ينتمي إلى المدرسة التي تفرق بين "اللهجة" و'اللغة'. وفي ذلك بقول الدكتور صبحي الصالح: " فاللهجات؛ تمثل اختلافا يتمثل في تنوع صفات الأداء في اللفظ الواحد. فهو اختلاف لا يتنوع في اللفظ والمعنى عند بعض العلماء كابن الجزري.[..] لأن الإظهار والإدغام، والروم والإشمام، والتخفيف والتسهيل، والنقل والإبدال صفات متنوعة في أداء اللفظ الواحد. وتنوعها لا يخرجه عن أن يكون لفظا واحدا"[1]. وإذا كنا في الاختلاف في اللهجات لا نجد إلا تنوعا في صفة الأداء في اللفظ الواحد، ففي اختلاف اللغات نجد أحيانا تباينا بين لفظ وآخر في موضوع واحد. وهذا ما كان يشتغل عليه الإمام النووي في التفريق بين الاشتقاق اللفظي والاشتقاق الدلالي.

وإذا عدنا من جديد إلى لفظة 'الأماثل'، فإننا نجد الإمام النووي هنا يشير بدقة إلى موضع التنوع اللهجي في اللفظة، فيقوم بالتحويل الصرفي لضبط الدرجة التي وقع فيها التنوع اللهجي، وذلك عبر حديّ العدد والجنس. فبالعدد يميّز اللفظة إذا كانت مفردا أو مثنى أو جمعا، وبالجنس يحدّد إذا كانت مذكرة أو مؤنثة أو تطلق عليهما معنا.

ومن مثال ذلك نموذج تطبيقي آخر هو : إيضاحه للفظة ' آناء الليل '،كما يحلو له أن يستخدم هذا المصطلح في تعابيره الخاصة، حيث أشار في الملحق التوضيحي في أخر كناب (التبيان) قائلا " آناء الليل ساعاته ، وهي في واحدها ،يقصد مفردها، أربع لغات أَنٍ ، إِنٍ وإِنوٌ ، والهمزة مكسورة فيهما "[2].

[1]- مباحث في علوم القرآن. صبحي الصالح.ط:13. دار العلم للملايين.بيروت.1981.ص:104.

[2] - التبيان مرجع سابق ، ص 131 ،

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية من التحليل الاشتقاقي

أ – نموذج تطبيقي من كتاب (دقائق المنهاج)[1] .

(كتاب الصلاة): في تعليقه على لفظة (مَرِيعًا) يقول:

(مَرِيعًا) بفتح الميم وكسر الراء وبالمُثَنَّاةِ تَحْت ".

ب – يبدأ بضبط حركة الكلمات ونقطها،

ج – وبعد ما تبين له صيغة الكلمة 'مَرِيعًا ' على وزن 'فَعِيلاً ' اتضح له إلى أيٍّ من ضلعيْ العلاقة الاشتقاقية انتماءها، وظهرت أنها مشتق، أي صفة مشتقة، فأرجعها إلى مأخذها، أي مصدر اشتقاقها، فقال:

"(مريعا) بفتح الميم وكسر الراء وبالمُثنّاة تحت، يقصد الياء، مأخوذ من المراعة "[2] ثم يشرح دلالتها المعجمية بقوله من المراعة وهي الخصب.

د – ثم ينتقل إلى المعنى الثاني في لفظ ثان الذي أخره بكون أن سنده اللغوي، أو الحديث الذي ورد فيه ضعيف بدليل استخدامه لصيغة التضعيف "روي"، فيقول: " وروي: "مُرْبُعًا" بضمّ الميم والموحدة، يقصد 'الباء'، أي أنه يشير إلى: تغيّر الدلالة المحورية للفظ بتغير النقط بقوله : 'و بالموحدة'.

ولا يشير إلى المأخذ في هذه الصيغة، أي إلى أصل الاشتقاق، فلا يقول إن "مُرْبُعًا" من "الربع" أو "الربيع"، وذلك لبداهة الكلمة وشيوعها.

ه – ثم ينتقل إلى الصيغة الثالثة في اللفظ الثالث التي تغيرت فيها حركة الحرف الأول (الميم) من الرفع إلى النصب، وتغير فيها رسم الحرف ونقْطِه من المثنّاة أو الموحّدة 'تحتُ' إلى المثناة 'فوقُ'، ليصل إلى الصيغة البنائية الثالثة المغايرة تماما لسابقتيها وهي صيغة :'مرتعا'.

---

[1] - دقائق المنهاج. الإمام النووي تحق: إياد الغوج، مرجع سابق. ص: 48 .

[2] - دقائق المنهاج. إياد الغوج. المرجع نفسه. ص:48.

ولا يشير الإمام النووي هنا، إلى تغير الحركة من الرفع إلى النصب، بل يرسمها على الحرف خطًّا ليميّز مطالع تغيرها كما هو في النسخة المخطوطة المصوّرة في أول كتاب (دقائق المنهاج) بتحقيق الأستاذ إياد الغوَج .

وهكذا، يتم الانتقال بهذه الآليات التحليلية للصيغة الصرفية ذات الجذور الأصلية الواحدة والأحرف الزائدة نفسها، من الصفة مَرِيع أو 'مُرْبِع' إلى المصدر الميمي 'مَرْتَع'.

المبحث الثالث: الدلالة المعجمية للفظ المفرد.

المطلب الأول: التأليف المعجمي عند الإمام النووي بين النظرية والتطبيق.

إن اهتمام الإمام النووي في معظم جهوده الدلالية، سواء تعلق الأمر بالألفاظ اللغوية البحتة التي تحمل دلالة عرفية أو طبيعية أو معجمية خالصة، أو بالألفاظ الفقهية ذات الدلالات الشرعية والأصولية ، إنما كان ينصبّ في كل ذلك على الحديث النبوي الشريف بوصفه مصدرا ثريّا يزخر بمختلف الدلالات وأنواعها، وذلك من خلال موسوعته الضخمة الموسومة ب (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، وكذلك شرح الألفاظ الفقهية والأصولية المنبثقة من هذه السنة النبوية المحتوتة في الفقه الإسلامي، وخاصة الفقه الشافعي، وكذا بقية المذاهب التي أدخلها ضمن الفقه المقارن سواء أكانت من المذاهب الأربعة أم من مذاهب السلف والخلف.

فكتابه (شرح صحيح مسلم) وكذلك شرحه ل(لأربعين النووية) الذائعة الصيت، تمثل ميدانا تطبيقيا لاستخدام الآلة الحَدِيثية التي تعتمد على علم المصطلح وعلم الرجال والجرح والتعديل، حيث خصص لذلك كتبا نظرية ككتاب (التقريب والإيضاح في شرح مقدمة ابن الصلاح)[1]، وكذلك كتاب (إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق)، ثم أخيرا كتاب (رياض الصالحين) الذي تطرق فيه لنوادر الألفاظ على هامش متون الحديث النبوي.

[1] - ينظر: تدريب الراوي في شرح تقريب النووي. الإمام السيوطي. دار الغد الجديد. القاهرة. 2014. ص: 4 وما بعدها.

ولا يرجع هنا اهتمامه بالتراث النبوي وسنته الدلالي، لكونه متخصصا في علومها الشريفة رواية ودراية فحسب، بل يرجع كذلك إلى وعيه العميق، وقد سكن دمشق شابا أثناء فترة طلبه لعلوم الشريعة والحقيقة، ودرسه على علمائها نظرا لأهمية السنة النبوية في دراسة علوم اللغة العربية عامة، وعلم دلالة ألفاظها خاصة.

ولا شك أنه اطلع على ما كتبه المؤرخ والمحدث الشامي الشهير بن عساكر من أحاديث متميزة مرويّة عن النبي صل الله عليه وسلم، أخرجها بنفسه في كنابه (تاريخ دمشق)، وأثبت صحتها العلامة المحدّثُ جلال الدين السيوطي في موسوعته (المزهر في علوم اللغة وأنواعها)، ونص الحديث ((أنه صلى الله عليه وسلم سأله أحدهم يوما: يا رسول الله ما لك أفصحنا و لم تخرج من بين أظهرنا؟!..فأجاب كانت لغة إسماعيل (عليه السلام) قد درست فجاء بها جبريل (عليه السلام) فحفّظنيها فحفظتها))[1].

وابن القاسم بن عساكر من الأئمة الثقات الحفّاظ المعتمدين عند جميع العلماء كما ذكر الإمام النووي ذلك في توثيقه في مقدمة كتابه (تهذيب الأسماء واللغات)[2].

ذلك أن الإمام النووي كان يعلم بوعي عميق " أن لسان إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام هو المرجع الأعلى للعربية باعتبارها اللغة الأم لجميع القبائل العربية الفصيحة التي تسكن منطقة نزول الوحي والقرآن "[3].

ولعل هذا ما اتفق عليه مؤرخو العربية ومتتبعو تطور آدابها. فبين اللغة العربية التي عرفناها في الشعر الجاهلي ونثره، واللغة التي نعرفها اليوم في كتب الأدب ونصوصه، مرّت أطوار عديدة

[1] - أخرجه بن عساكر في تاريخه والسيوطي في كتابه المزهر. ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. السيوطي.، ج: 1 . دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت. 2005،

[2] - مقدمة كتاب التهذيب ، ص 5 وما بعدها ، الجزء الأول.

[3] - تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن الخويلي لخضر ميدني، دار هوما للطباعة والنشر. الجزائر، 2009 ، ص: 23.

غابت مراحلها الأولى عنّا ، ولكن مؤرخي العربية اتفقوا على أن العرب عرفوا منذ أقدم عصورهم لغتين:

- الأولى: لغة الجنوب أو اللغة القحطانية،
- و الثانية: لغة الشمال أو اللغة العدنانية.

وكان بين هاتين اللغتين فروق كبيرة ثم تقاربتا تحت تأثير عوامل كثيرة كالحروب والتجارة و الأسواق الأدبية كسوق عكاظ قرب الطائف، وذي المجاز، ومجنّة قرب مكة.

فمن الطبيعي أن تتغلب اللغة العدنانية التي جذورها هي ما نطق به سيدنا إسماعيل عليه السلام كما مر معنا في الحديث النبوي. و قد تمّت سيادتها على القحطانية وسائر اللغات واللهجات العربية الأخرى، "و أصبحت معروفة بأنها اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن الكريم والمعاجم اللغوية والشعر العربي ونصرهم"[1].

وهذا ما جعل الإمام النووي، تأصيلا منه لهذه القضية من خلال كشفه للأبعاد التاريخية للغة الإسماعلية الأم، يبدأ معجمه (تهذيب الأسماء واللغات) بسرد السيرة الأولى لأجداد النبي عليهم السلام، إبراهيم وإسماعيل ، منذ أن وطئت أقدامهما أرض الحجاز وسكنا بوادٍ غير ذي زرع *

وذلك حتى تتضح الأصول التاريخية الخبرية المتواترة لمنابع معاجمه ذات المزج اللغوي الحديثي ضمن سياقاتها الاجتماعية الخارجية والنفسية الداخلية ، مؤطرة بقيمها الثقافية والحضارية، والتي بها تضبط أبعاد الدلالة اللفظية المحورية الأساسية وإيحاءاتها المتنوعة بدلالاتها الهامشية فيسهل ضبطها وتهذيبها والانتفاع بها للعام والخاص من طالبي علوم اللغة والشريعة[2].

تطرق الإمام النووي للألفاظ المفردة في معجمه (تهذيب الأسماء واللغات) الذي يمكن اعتباره معجما مركبا تركيبا مزجيا من ثلاث معاجم هي:

---

[1] - اللسانيات النشأة والتطور. أحمد مومن. ديوان المطبوعات الجامعية ،ط: 3 ، الجزائر. 2007 ، نقلا عن: الأدب العربي ونصوصه . عمر توفيق سفر أغا. الدار البيضاء. 1963. ص:17.

* - وذلك إشارة إلى الآية الكريمة لسورة إبراهيم ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّم...﴾{إبراهيم/37}.

[2] - انظر تهذيب الأسماء واللغات ،مج 01 ، ص 119 ،تر: المؤلف لسيدنا إسماعيل عليه السلام ص119 تحت رقم 54 (حيث ذكر نزول قبيلة جرهم بواد مكة وأن إسماعيل عليه السلام شب وتعلم منهم العربية

1- معجم خاص أو معجم تأدية: و"هي المعاجم التي تعالج شريحة معينة من النشاط الفكري، علميا كان أم أدبيا أم فلسفيا أم غيرها ، وهذه المعاجم بعكس دوائر المعارف تخاطب المتخصصين ولذلك فهي في حل من استعمال المصطلحات المغلقة الدائرة بين أرباب المهنة فقط" [1].

ويمثل هذا النوع من المعاجم في (قاموس التهذيب) القسم الثاني من المعجم، حيث استقاه الإمام النووي من كتب كبار فقهاء الشافعية كالرافعي وغيره، ويتضمن مصطلحات فقهية وأصولية وتشريعية وسنعود إلى تفصيل الحديث حول هذا الجزء. في فصل الدلالات الفقهية والأصولية.

2- معجم موضوعي تجانسي: أو معجم معاني رتبت فيه الثروة اللغوية في مجموعات من الألفاظ تزج تحت فكرة واحدة وهذه الفكرة الواحدة هي سيرة العلم المدروس وخصائص حياته مع شرح الألفاظ المتعلقة بسياقات حياته اجتماعيا وثقافيا وعلميا وغيرها[2] .

وفيما يتعلق هذا الجزء الخاص بالأعلام ،أسماءً وألقابا وكنى، فرغم أن هذه الأخيرة ،كما مرّ معنا، ليست من أسماء المعاني التي تسرى على ألفاظها القواعد الأصولية في تحديد الدلالة، كالمطلق والمقيد والعام والخاص والظاهر والخفي باعتبارها تتعلق" ببيان عادة المؤلفين في النسب "[3]، إلا أنها تمثل في حقيقتها دلالة طبعية وعرفية عامة . وقد طبق عليها الإمام النووي، كما سنتشهد، بأمثلة القواعد الأصولية في دلالة الألفاظ لتوضيح دلالتها عند دخولها في التراكيب الإسنادية الإضافية ككنى وألقاب، وذلك كما في حديثه عن دلالة العموم والخصوص، حيث قال: " عادة الأئمة الحذاق المصنفين في الأسماء والأنساب أن ينسبوا الرجل النسب العام "[4]. وهذه دلالة عموم، ثم قوله النسب الخاص وهذه دلالة تخصيص ، ثم قال: "ليحصل في الثاني فائدة لم تكن في الأولى "[5]

[1] - كلام العرب. حسن ظاظا ، درا النهضة العربية. بيروت. 1968. ص: 147.

[2] - كلام العرب. حسن ظاظا، ،ص 147 ، ط دار النهضة العربية 1980 بتصرف

[3] - تهذيب الأسماء واللغات ، الإمام النووي ، ص:13.

[4] المصدر نفسه. النووي. ص:13. -

[5] المصدر نفسه. النووي ، ص13

لأن هذه الأعلام المسرودة في المعجم ليست لأشخاص عاديين، بل لأعلام في الفقه والأصول وأسانيد الأحاديث النبوية والروايات التي تثبت بها الأحكام، ولهذا وجب رفع اللبس عنها كليّة من الناحية اللغوية والأصولية.

إن اهتمام الإمام النووي في معجمه (تهذيب الأسماء واللغات) ، بالترجمة المركزة والملمة لمعظم أعلام المذهب الشافعي ممن ورد ذكره في كتب المذهب الأمهات وفي كتبه أيضا أو غيرها ؛ يرجع إلى وعيه العميق، وهو رأس في المذهب، بمشاركة : " علماء الشافعية في سائر العلوم الشرعية مشاركة قوية فعالة، حتى لم يخل علم شرعيّ من إسهاماتهم ومؤلفاتهم . ونظرة عجلى في كتب التواريخ والطبقات، تظهر حيازة الشافعية قصب السبق في ميدان التأليف والتدوين[..]، ولم يحظ رجال من الاهتمام بتفصيل تراجمهم وتناقلها متواترة كرجال المذهب الشافعي " [1].

ولعل تعليل ذلك يكمن في خدمتهم الكبيرة لمختلف فروع الثقافة العربية الإسلامية ومصادرها عبر قرون متوالية تجاوزت السبعة متفوقين في ذلك على بقية علماء المذاهب الأخرى، ولكون المذهب الشافعي توسط أرض الأمة الإسلامية في مصر والشام والعراق وبعض أطراف الجزيرة، وحتى بلاد العجم في فارس والهند، وذلك لأن مؤسسه أول من ابتدع علم أصول الفقه.

ولعل هذا ما جعل الإمام النووي يركز على تراجمهم وشرح ألفاظ كتبهم ومصطلحاتها اللغوية والفقهية، لا تعصبا للمذهب الشافعي الذي كان رأسا في الفتوى فيه ؛ ولكن لرؤيته الدلالية العميقة ولإدراكه كعالم ولغوي وفقيه لاستيعابهم لمختلف منابع الثقافة والعلوم الإسلامية والتي تمثل تفاصيل البيان بمعناها الشامل عبر الأزمان كما أصل مقدماته الإمام الشافعي في رسالته في القرن الثاني للهجري .

[1] المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية.. دار النهضة للنشر والتوزيع. المشرق للكتاب. 2006. ص:18.

ويمكن اعتبار (معجم تهذيب الأسماء واللغات) معجمَ أعلامٍ بامتياز نظرا لجمعه أعلام الثقافة الإسلامية من أنبياء ورسل وفقهاء ومحدثين مشتغلين بالسنة النبوية عامة والفقه الشافعي خاصة، وذلك حتى عصر الإمام النووي في القرن السابع الهجري.

3- القسم الثالث: ويمثل معجما لغويا أبجديّا مرتب على منهج الترتيب الألفبائي، وقد تحدث المؤلف في مقدمة الكتاب ، على أنه جمع فيه ما يحتاجه الدارس للغة العربية من أمهات الألفاظ. وسنعود إلى مقدمة معجم الأسماء واللغات مستقبلا للاستشهاد وأخذ نماذج تطبيقية نقوم بتحليلها لاستخراج دلالاتها المحورية والهامشية والحقول الدلالية التي تنتمي إليها .

وحتى نلج إلى صلب البحث في هذا الفصل المتعلق بالدلالة المعجمية نطرح الإشكال في صيغة تساؤلات منهجية وهي كالأتي:

فهل يمكن أن نقول إن الإمام النووي ، جمع في معجمه الكبير ذي الجزأين الأسماء واللغات بين الاهتمام بدراسة أصل الألفاظ، الدراسة الاشتقاقية التأصيلية الإيتيمولوجية 'ETIMOLOGIE' ؟ أم أنه كان يهتم بدراسة أصل المعاني ضمن رؤية تطورية تاريخية سيميولوجية؟

فلو أنّنا عدنا إلى قسم الأعلام المتناولة بالدراسة في الجزء الخاص بالأسماء من المعجم لوجدناه يهتم بشكل أساسيّ بالجانب التأصيلي الاشتقاقي مُتابعا في ذلك من سبقه من أعلام اللغة الذين اهتموا بالاشتقاق كالإمام ابن دريد في كتابه (الاشتقاق) ، وإن كان لا يكتفي عند الحديث عن الأعلام ببحث الجذور الاشتقاقية اللغوية للاسم المدروس، بل يشير كذلك- بحكم تخصصه، الواسع، في علوم السنة وما يتعلق بها من جرح وتعديل للرواة- إلى التصحيف الواقع في ضبط الأسماء، والذي يؤدي إلى غلط في المعنى أو الوهم عند الخلط بين الرواة المجهولي الحال أو قليلي الحفظ أو المشكوك في عدالتهم أو المتشابهي الأسماء مع اختلاف الأجداد والآباء.

أما في قسم اللغات، فقد اهتم بأصل المعاني في أصولها الاشتقاقية، ثم في تفرعها الدلالي عبر التاريخ والجغرافيا ضمن السياقات الثقافية التي تحيط بها حيث تتولد عن اللفظ العام في جذره

الأولي الأصلي صيغٌ اصطلاحية فقهية أو تشريعية أو اجتماعية أو مهنية أو حتى فيزيائية، لها دلالة طبعية، كالأوزان والمعايير والمقاييس وألفاظ العقود في البيوع والمعاملات.

لقد تأثر الإمام النووي كثيرا بمنهجية ابن السكيت في كيفية معالجته للدلالة الصرفية والاشتقاقية، فهل تأثر في دراسته لدلالة المعجمية بمنهجية ابن فارس في كتابه (معجم مقاييس اللغة)؟ وبمعنى آخر، هل كان يركز على الدلالة المحورية أو المفهومية ؟ أم كان يركز على الدلالات الهامشية والفرعية؟

أم أنه كان يركز عليهم جميعا؟ وما هي القرائن الدالة على ذلك في معاجمه، أو في شرحه لصحيح مسلم ، أو كتابه (المجموع) مثلا؟

سنلجأ إلى تطبيق معايير ابن فارس واحتماليتها الدلالية على بحوثه المعجمية، ثم نقوم قدر الإمكان بترجيح في نهاية هذه المباحث.

إن لابن فارس منحيان في معالجته لدلالة المحورية :

المنحى الأول تطبيقي والمنحى الثاني نظري .

1- أما المنحى التطبيقي: فله صورتان :

أ- الصورة الأولى، وهي التي ينص فيها على الدلالة المحورية دون معالجة الاستعمالات

ب- الصورة الثانية: وهي التي يفصل فيها الحديث عن الاستعمالات دون ذكر الدلالات المحورية (حيث تفهم إيحاءً من سياق الاستعمال).

2- أما المنحى النظري: فهو الذي ينص فيه تقريرا على الدلالة المحورية كقاعدة تنظيرية معيارية يقاس عليها غيرها عند تفريع الاشتقاقات الهامشية منها انطلاقا من القاعدة التي تقول إن كلام العرب إذا تقاربت ألفاظه فبعضه آخذ برقاب بعض[1].

[1] - الدلالة المحورية في معجم مقاييس اللغة. دراسة تحليلية نقدية. عبد الكريم محمد حسن جبل. دار فكر. بيروت.2003.ص: 18 وما بعدها بتصرف.

ولو حاولنا تطبيق هذه المعايير على النماذج التطبيقية التي عالجها الإمام النووي في المستويين الصرفي والاشتقاقي ثم المعجمي، لوجدنا أنه كان يزاوج بين المنحيين التطبيقي والنظري، إلا أنه كان يركّز كثيرا على ضبط الدلالة المحورية في إطارها الأصولي والفقهي لاستخراج الحكم الشرعي باعتباره فقيها ومفتيا، ولا يركّز كثيرا على الاستعمالات إلا إذا إلتبِست اللغات أو القراءات أو غيرها، كأنْ يكون اللفظ غريبا أو رواية سندية ضعيفة بغير سند موثوق.

ويبدو الإمام النووي في هذا المعجم وكأنه استعاد الإرهاصات الأولى لميلاد المعجم العربي وبدايات نشأته، وذلك مع اجتهادات حبر الأمة الصحابي الجليل عبد الله ابن عباس رضي الله عنه، والذي كان موسوعة علمية متحركة. "فقد كان يتصدر لشرح وبيان الغوامض والمشكلات من ألفاظ القران الكريم. وقد روى أصحاب السير والتراجم أنه يعد من أوائل أصحاب المجالس العلمية يأتيه الناس للسؤال، فكان له يوم للفقه، ويوم للشعر، ويوم للأنساب، ويوم للمغازي، ويوم للتفسير "[1].

ولعل الاهتمام بالأعلام العاقلة وغير العاقلة، سواء كانت أسماء جنس أو أماكن، يرجع تأصيله التاريخي عند الإمام النووي من خلال تاريخ المعجم العربي، والذي يبرز علم الأنساب فيه كنواة أولية تولد عنها الاهتمام انطلاقا من النشاط الرائد للصحابي الجليل عبد الله ابن عباس رضي الله، والذي جاء علم الحديث النبوي، رواية ودراية، ليوثّق أسانيده ومَرْوِيّاته الناقلة للأحكام عن الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

- فيوم الفقه تأصيلُه عند الإمام النووي في الإحاطة المستوعبة لفقهاء المذهب الشافعي وعلماءه. كما أن يوم الأنساب أصلٌ لجهوده في ضبط الأعلام، وكذلك يوم المغازي. أما يوم الشعر والتفسير فهما منبع ومنطلق جهوده في اللغات وضبط دلالاتها المعجمية والاشتقاقية إفراد أو الأصولية تركيباً.

[1] - ينظر: الأعلام .خير الدين الزركلي ، مج 04 ،ص 95 نقلا عن : الألمعية في الدراسات المعجمية. العمري بن رابح القلعي ، دار الوعي ، الجزائر، 2005. ص.ص: 14 -17.

إن دراسة الإمام النووي للأسماء واللغات في معجمه الأساسي الكبير، وتقديمه للأسماء على اللغات زيادة على المبرر الشرعي له كمحدث حافظ وحجة، إنما تنطلق كلّها من هذا الدافع النفسي متعلق بتكوينه الثقافي أثناء تلقيه العلم، وكذا إلى تخصصه في علم الحديث النبوي وبراعته فيه.

فمعظم مؤلفاته هي في علوم السنة وما يتفرع عنها من فقه. وهذا دفعه إلى تأطير دراسة مختلف المستويات الدلالية انطلاقا من قاعدتها الصوتية التي مرت معنا كمستوى أول، ثم المستوى الصرفي الاشتقاقي، ثم المستوى المعجمي اللفظي، فالحوصلة الدلالية لكل هذه المستويات، إن على مستوى الإفراد أو مستوى التركيب. وبعل هذا ما دفعه بعد ذلك إلى رسم الإطار الزماني والمكاني داخل هذا المعجم.

1 – الإطار الزماني: حيث تناول من خلاله بشيء من التفصيل عصر الشخصيات والأعلام المترجم لها، مما يسمح له بتتبع تقلبات العصر وأثرها على دلالة الألفاظ بمختلف الأوجه السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي أدت إلى ظهور مختلف المصطلحات الفقهية والإدارية والفنية في تراث الفقه الشافعي، والذي يعتبر هو محرره وضابطه ومنظمه .

2 - الإطار المكاني: وقد درس فيه البلدان والأماكن والمدن التي كانت مسرحا للأحداث والبطولات والقيم والمؤلفات التي صنعتها هذه الشخصيات، مما يرسم، في النهاية، السياق العام الذي تضبط به الدلالات المفاهيمية والهامشية المتجددة والمتطورة والناتجة أو المتولدة عن الدلالة الأصلية المحورية للفظ أو الكلمة أو المادة المعالجة في معجم (تهذيب الأسماء واللغات) بجزأيه.

المطلب الثاني: مصادر الاستمداد المعجمي عند الإمام النووي

إن الدراسة المعجمية لدلالة الألفاظ المفردة عند الإمام النووي لا تخرج عن حدّين اثنين ضابطين لها :

- الحدّ الحديثي: وهو علوم السنة وخاصة ما تعلق منهم بالأسانيد حيث كان يطبق علم مصطلح الحديث ثم علم الرجال (الجرح والتعديل) على الأسانيد رواية وعلى المتون دراية.
- الحدّ الفقهي: وهذا الحد هو ما أسماه في معجمه (تهذيب الأسماء واللغات) بالأسماء والأعلام التي شاركت في تأسيس الثقافة الإسلامية، أو خدمة المذهب الشافعي تدريسا وتأليفا خلال خمسة قرون. ولمعالجة الألفاظ التي يتضمنها الحدّان، فانه يستخدم علم الاشتقاق كأداة أساسية لاستخراج أصول الدلالة اللغوية سواء كانت الألفاظ المعنية أسماء مع ما معها من ألقاب وكنى، أم كانت لغات تمثل ألفاظ لغوية واصطلاحية حضارية وثقافية عامة ،كالألفاظ الشرعية والديوانية وغيرها.

ولهذا، فقد اختار الإمام النووي هذا الصحيح من الألفاظ المسندة لأنه يساعده على المقارنة بين الألفاظ ومعرفة الفروق اللغوية بينها كالمشترك اللفظي والتضاد وغير ذلك، من خلال طرقها وأسانيدها المجموعة خاصة، وإنه قد ثبت، كما مر معنا في الباب الأول، دلالة الألفاظ المفردة في التمهيد، أن له عقلية معجمية متميزة ظهر أثرها في تصانيفه المعجمية وفي مؤلفاته التي سبق ذكرها.

كما أن اختياره لشرح صحيح مسلم يتوافق مع 'نظرية الحقول الدلالية المعاصرة' في ربط الدلالة المحورية الأصلية، سواء أكانت اشتقاقية لفظية، أم كانت معنوية مجازية تعبر عن الدلالات الهامشية التابعة للدلالة الحقيقية. ويعضد ذلك كله، أي هذا الاستنتاج، أن الإمام مسلم نفسه كان شافعيا في مذهبه الفقهي، مما يساعد على فهم معاني ومصطلحات الفقه الشافعي التي تناولها الإمام النووي حيث يتطابق المنهجان في أصول الاجتهاد في هذا السياق.

لقد تحدث الإمام النووي عن هذه المصادر في كتابين عظيمين تلقتهما الأمة كلها بالقبول، وهما كتاب (المجموع شرح المهذب)، وهو كتاب في الفقه المقارن، وكتاب (تهذيب الأسماء واللغات)، وهو معجم عام وخاص في الوقت نفسه لتضمّنه ما يحتاج إليه بالضرورة من اللغة المتداولة والاصطلاحات الشرعية والفقهية الخاصة بلغة الفقهاء والمتخصصين في الشريعة والأديان عامة.

ويمكن تقسيم مصادر استمداده إلى قسمين محصورين بالاستقراء: مصادر عامة لغوية واصطلاحية، ومصادر خاصة واصطلاحية.

1- أما المصادر العامة اللغوية فهي كتب التفسير، وكتب الطبقات، وكتب الأعلام والمغازي والسير، وكتب الحديث النبوي، وأسماء الرجال، والجرح والتعديل، ومتون جوامع الحديث وسننه كالصحيحين وسنن ابن ماجه والترمذي والنسائي وغيره . يضاف إلى ذلك كله قواميس اللغة المنشورة كـــ(معجم المقاييس) لابن فارس و(نوادر اللغة) لأبي زيد و(كتاب سيبويه)، و(ألفية ابن مالك) وغيرها ك(المحكم) في اللغة، و(الجمهرة) لابن دريد، و(المجمل) لابن فارس، و(الصحاح) للجوهري، و(الفصيح) لثعلب و(غريب المصنف) للقاسم بن سلام، و(إصلاح المنطق) لابن السكيت، و(كتب لحن العوام).

2- أما المصادر الخاصة الاصطلاحية فمعظمها كتب في علوم أصول الفقه كـــ(المحصول) للشيرازي و(المنخول) للغزالي و(الأم) للشافعي، وكذلك (الرسالة) و(الموطأ) للإمام مالك وفتاوى الصحابة والتابعين، وكتب (إمام الحرمين) الجويني، وكتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني وكتب الأشاعرة في الاعتقاد وعلم الكلام، وبعض كتب الطب والفلك ك(القانون) لابن سينا الذي استوعب بعضه ثم تخلى عنه لميله الشديد إلى السنة والفقه ونظرا لاختلاط هذا الكتاب بالمنطق والفلسفة. وبالنظر إلى المصادر التي استقى منها الإمام النووي ألفاظ معجمه (التهذيب) يمكن أن نجزم أن الرؤية الأصولية لدلالة الألفاظ كانت مهيمنة عليه باعتباره فقيها شافعيا كبيرا.

ويبدو أن الإمام النووي في معجمه (تهذيب الأسماء واللغات) ينتمي إلى المدرسة المعجمية الألف بائية الأصولية ، ولكنه كان متابعا، فيها فيما يبدو، الإمام جار الله الزمخشري أكثر ممن سبقه في هذه المدرسة كأبي عمر الشيباني في كتابه الجيم وأبي المعالي البرمكي وغيرهم .

3- و تعليل ذلك، في ما يبدو، هو جلالة الإمام الزمخشري وثقافته الواسعة وتبحره المكين في علوم اللغة والبلاغة في عصره. ولربما كذلك لقرب العهد الزمني للإمام الزمخشري من عصر

الإمام النووي حيث توفي سنة 538ه، كان ميلاد النووي سنة 631هـ. وربما كان لاقتران القرنين له تأثير في هذا التوجه.

4- و إذا استخدمنا مصطلحات مناهج تحليل الخطاب الحَدَاثية، كما تنظر لها اللسانيات الحديثة، نستطيع أن نقول أن الإمام النووي درس الألفاظ المفردة معزولة أو ضمن التراكيب بالمنهجين النسقي والسياقي معا.

-ففي المنهج النسقي، كان يتناول بنية اللفظ وتحليلها بالضبط والشكل والوزن على المستويين الدلالين الصوتي والاشتقاقي الصرفي، و لم يكتف كما فعل المعجميين في عصره الذين اتجهوا إلى:" دراسة العناصر الداخلية في الألفاظ و لم يفطنوا إلى العوامل الخارجة عنها"[1]. ولذا استخدم كذلك المنهج السياقي بقرائنه الحافّة بالنص ككلّ ضمن إطار الزمان والمكان وتغير الحال في دراسته لتراجم الإعلام في قاموسه (التهذيب). وقد كان لعقليته الاجتهادية كفقيه واستخدامه لقواعد وآليات أصول الفقه دور كبير في التفاته للقرائن اللفظية والمعنوية الحالية التي توجه السياق وتضبط الخطاب الذي به يعرف المكلف المتلقي الحكم الشرعي الذي يهتدي به في حياته دنيا وآخرة.

5- يبدو أن الإمام النووي في منهجية دراسته المعجمية ينتمي إلى مدرسة الكوفة كما انتمى إلى هذه المدرسة نحوا كما سنبين في دراسة التراكيب النحوية وكيفية معالجته لها في بحوثه الفقهية والحديثية.

ومن خلال تحليل المادة اللغوية، كما في المعجم (دقائق المنهاج) عند تطرقه إلى لفظة 'الآناء'، نلاحظ أنه في معالجته لها معجميا يأتي بعدة أوجه ولغات كما مرّ معنا منها : إِنِيٌ وأَنِيٌ وأَنوٌ وإِنوٌ وأنى وإنى. وهذه الأوجه الستّة ذكرها الفراء الكوفي، بينما ينقل أبو جعفر النحاس لغة واحدة فيها عن البصريين فيقول : "واحد الآناء إنِيٌ لا يعرف البصريون غيره"[2]، بينما ذكر الإمام النووي

[1] - دلالة الألفاظ .إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. 1984. ص:49.

[2] - ينظر: إعراب القرآن الكريم. أبو جعفر النحاس ، نقلا عن: البحث اللغوي عند العرب. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ص: 52 .

الأوجه الستّة التي تابع فيها الفراء الكوفي وردّها أبو جعفر النحاس حيث قرر ذلك بالقبول و لم يرد منها وجها.

المطلب الثالث: دلالة اللفظ المفرد بين الأصوليين والمتكلمين

إن من يراجع مناهج دراسة الألفاظ في التراث العربي الإسلامي قبل الإمام النووي يجد أن هناك منهجان اثنان تداولا عملية التحليل والتأصيل لدلالة الألفاظ:

1 – منهج الأصوليين: ويمثل حوصلة وخلاصة لجهود اللغويين والنّحاة والبلاغيين عامة، والمفسرين خاصة في هذا المجال.

2 – منهج المتكلمين والفلاسفة: الذين رجحّوا الإطار المنطقي لتحليل الألفاظ انطلاقا من التصورات الفلسفية للمنطق الأرسطي الشكلي، مع الاستعانة بالمستوى المعجمي لدلالة الكلمات كمستوى قاعدي .

إلا أن تيار المفسرين واللغويين والبلغاء والفقهاء والأصوليين، كان يعتبر معالجة قضايا الألفاظ نظرا عقليا، أي تأملا عميقا مستندا إلى حجة مؤصلة، كالتعليل والقياس أو السماع الموثق، كل ذلك ممزوجا بالتحليل العقلي على عكس المتكلمين قليلي الاعتماد على الأدلة الشرعية.

و لم يتطور النظر العام الذي هو أقرب إلى التوسم والحدس إلى منهج إلا مع الإمام الشافعي، في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، عندما وضع المبادئ الأولى لعلم الأصول في كتابه (الرسالة).

وقد نقل الإمام الزركشي في كتابه(البرهان) التقسيمات الناتجة عن نظرهم في الألفاظ بالتفصيل حيث يقول "و النظر إلى مسائل اللغة : إما أن يكون بحسب الإفراد، أو بحسب التركيب.

أما الإفراد فمن ثلاثة وجوه: الأول: من جهة المعاني التي وضعت الألفاظ المفردة بإزائها، وهو يتعلق بعلم اللغة. والثاني: من جهة الهيئات والصيغ الواردة على المفردات الدالة على المعاني المختلفة، وهو من علم التصريف. والثالث: من جهة رد الفروع المأخوذة من الأصول إليها، وهو من علم الاشتقاق. وأما التركيب فهو من أربعة وجوه: الأول: باعتبار كيفية التراكيب بحسب

الإعراب ومقابله من حيث أنها مؤدية لأصل الجملة النحوية المعيارية الممثلة لأصل المعنى ذاته ، وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع. والثاني: باعتبار كيفية التركيب من جهة إفادته لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء، وهو الذي يتكفل بإبرازه علم المعاني. والثالث: باعتبار طرق تأدية المقصود، بحسب الدلالة وحقائقها ومراتبها، وباعتبار الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وهو ما يتعلق بعلم البيان"[1].

أما تيار المناطقة والفلاسفة والمتكلمين، فكان يعتبر أن دراسة دلالة الألفاظ، وصبر أغوارها علما قائما بذاته كما فعل الفارابي المتوفى - 339ه-. "فقد اهتم اهتماما بالغا بألفاظ وصنفها إلى تصنيفات عدة، بل إنه وضع لها علم خاصا سماه علم الألفاظ الذي عده من فروع علوم اللسان التي قسمها إلى سبعة أقسام وهي: علم الألفاظ المفردة وعلم الألفاظ المركبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة وقوانين الألفاظ عندما تركب، وقوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة، وقوانين الشعر"[2].

وعند المقارنة بين الاتجاهين نجد:

أن الاتجاه الأول أقرب إلى الميدان الدلالي الأصيل بأبعاده الفينولوجية التراثية، وأبعاده اللسانية الحداثية. وذلك بحكم مراعاته لمنهجية تحليل مستويات دلالة الألفاظ بطريقة تراتبيّة منظمة متناسقة تبدأ من: المستوى الصوتي تحت ثم النظر الثاني من (جهة الهيئات) والمتعلق بعلم التصريف، مرورا بالمستوى الاشتقاقي والمعجمي، وصولا إلى المستويات التركيبية التحليلية.

أما فيما يخص تفرقته المنهجية بين المعنى والمفردة واللفظ والكلمة، فإنه يفرق في الاستخدام بين هذه المصطلحات الثلاث. فإذا هو استخدم كلمة 'اللفظ'، فهو يريد به كلمة مفردة ذات معنى

[1] - البرهان في علوم القرآن. الإمام الزركشي. تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ج :2. دار الكتب العلمية، بيروت..1957 ، ص:174.

[2] - علم الدلالة. عبد الجليل منقور، مرجع سابق. ص: 25، نقلا عن: إحصاء العلوم. الفرابي، دار الكتاب الحديث. القاهرة. ص: 159.

استُلّت من تركيب الكلام وسياقه، وعُزِلت للحاجة إلى ضبط معناها المعجمي أو الاصطلاحي أو هما معا.

وقد تكون كلمة مركبة على شكل كلام عام ذي معنى، له طرفا الإسناد التامّان، وذلك كما في معجمه (دقائق المنهاج) في شرحه للفظة (أسباب الحدث)[1].

فهي في حكم جملة اسمية حذف اسمها والتقدير هذه أسباب الحدث.

ب– كما يقارن تركيبها وصياغتها (صياغة شيخه الرافعي) بصياغة غيره (باب ما ينقض الوضوء).

أما إذا أراد المفردة اللغوية، وهو ما عبر عنه في مقدمة كتابه (تهذيب الأسماء واللغات)ب: (أنواع من مفردات اللغة)، فإنه يقصد الألفاظ التي لم تدخل التركيب، بل جمعت سماعا كما يقصد بها النصوص الطويلة من أفواه الرواة الذين رحلوا إلى البوادي لملاقاة الأعراب والسماع عنهم، أو التي دونها العلماء واللغويون في مجالس الخلفاء كمجلس ثعلب وغيره.

وتقودنا هذه التحليلات الضابطة لمنهج المعالجة المعجمية عنده إلى طرح هذه التساؤلات من اجل حصر الاهداف التي كان يتوخاها في جهوده المعجمية.

فهل كان في موقفه ومعالجته لدلالة الألفاظ المفردة بعد عزلها عن التراكيب، مع موقف جمع الأصوليين الذي يقول إن دلالة الألفاظ كلها ظنية لأنها في نظرهم مبنية على أمور ظنية خاضعة للرواية المضطربة كنقل اللغة والاجتهاد النحوي والقياس الصرفي ، وكلها أمور تخطئ وتصيب وكذلك التردد في حسم حقيقة الدلالة عند الاشتراك اللفظي، أو التراوح بين الحقيقة والمجاز أو الإضمار والتقدير[2]؟

[1] - دقائق المنهاج، ص: 32.

[2] - ينظر: دراسات في أصول التفسير . محسن عبد الحميد، طبعة المطبعة الجديدة . الدار البيضاء. 1990. ص: 30 وما بعدها.

- أم كان من جماعة من يرون أن في المسألة تفصيلا، بمعنى بعض الألفاظ تفيد في دلالتها الظن، وبعضها توجد دلائل على قطعية دلالتها وقرائن قوية على ذلك منها : التواتر بالنقل، التواتر بالإجماع (اتفاق الأمة)، ومنها كذلك حفظ الأمة جميعها للسنة كلها في مختلف قطاعاتها وعصورها ، صحابة ، تابعين ، تابعي التابعين ، الأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين[1] .

[1] - المرجع السابق ، ص 31 وما بعدها. بتصرف.

الفصـــل الثـــاني

الخطوات المنهجية لدراسة الألفاظ الفقهية المفردة

- المبحث الأول: المناهج اللغوية المستخدمة في ضبط الدلالة الفقهية.
- المبحث الثاني: مصطلح علم الحديث ودوره في ضبط الدلالة الفقهية.
- المبحث الثالث: تصنيف الألفاظ الفقهية وخصائصها الدلالية.
- المبحث الرابع: نماذج تحليلية للدلالات الفقهية في التراكيب.
- المبحث الخامس: المميزات العامة لمعالجة التراكيب الفقهية.
- المبحث السادس: دلالة التراكيب العرفانية الصوفية.

الفصل الثاني
الخطوات المنهجية لدراسة الألفاظ الفقهية المفردة

المبحث الأول: المناهج اللغوية المستخدمة في ضبط الدلالة الفقهية

إن البؤرة التي تدور حولها جهود الإمام النووي هي دلالة الألفاظ سواء كانت مفردة أو مركبة بمختلف مستوياتها الدلالية ضمن تراكيبها الأصولية والفقهية. وقد تجرد الإمام النووي لخدمتها ضمن الفقه الشافعي وكان يستعين فيها بفهم " التركيب أو بناء الجملة عبر ذوق اللغة الخاص النابع من المعنى المعجمي والصيغي للكلمات ومعنى السياق العام والخاص"[1]. وذلك كما مرّ معنا في معالجة معاجمه وتحليله لبعض الأحاديث النبوية.

و من أجل تأطير هذه البؤرة الدلالية التي تدور حولها الجهود المعرفية كلها، فإنه يلجأ إلى الاستخدام التداولي للمنهجين: الوصفي والمعياري جاعلا المنهج التاريخي للبحث اللغوي وسيطا بينهما.

فالمنهج التاريخي نفسه ليس ببعيد عن طبيعة الشخصية العلمية للإمام النووي باعتباره مُحدّثًا مشتغلا بالسنة النبوية تنظيرا وشرحا وتحليلا، من خلال كتبه الشهيرة المعتمدة عند طوائف الأمة كلها، وخاصة في علم مصطلح الحديث ككتاب (التقريب) وكتاب (إرشاد الخلائق إلى سنة البشر النذير). وعلوم السنة كلها قائمة كما هو معروف على ضبط الأسانيد عبر علم الجرح والتعديل الذي تُحلَّلُ فيه شخصية الرّواة والإخباريين في بعديها النفسي والاجتماعي.

وقد استخدم الإمام النووي هذا المنهج بكثرة في دراسته للأعلام الواردة في أسانيد مصادر الفقه والتشريع الإسلامي، أي القرآن والسنة، وخاصة في ربطه لآيات الأحكام بأحاديث الأحكام في كتابه (المجموع)، وفي شرحه لصحيح مسلم، زيادة على ما ورد في طبقات أعلام فقهاء

[1]- بناء الجملة العربية ، مرجع سابق، ص:9.

الشافعية من القرن الثاني إلى القرن السابع الهجري، وذلك للتثبّت من الفتاوى والاجتهادات الواردة في أمهات الكتب الفقه الشافعي .

وقد تبين بتوسيع الفحص أن الدلالات الأصولية والفقهية التي اشتغل عليها، هي مفتاح مرجعيّ لجميع الأصوليين المشتغلين بدلالة الألفاظ عند اجتهادهم في فقه النصوص الشرعية كما هو الحال مثلا مع الإمام أبي إسحاق الشاطبيّ ت 790ه-.الذي عاصره بالمغرب الإسلامي والأندلس آنذاك، حيث يصرح في الموافقات وهو اهم كتاب "في مقاصد الشريعة" قائلا:

فمن أجل: " محاولة ضبط دلالة النص ومقاصده التي قد توقفنا على مقاصد الشرع، يرى أن دلالة الألفاظ على معانيها في اللغة العربية لها وجهان: **الأول**: من جهة كون الألفاظ والعبارات 'مطلقة' تدل على معاني مطلقة، وتسمي (دلالة أصلية) وعلى مستوى هذه الجهة دون الجهة الثانية يمكن الترجمة من لغة إلى أخرى. والثاني: من جهة كون الألفاظ والعبارات 'مقيدة' تدل على معاني **خادمة للأصلية**، وتسمي (دلالة تابعة)، ولغات العالم تلتقي في الجهة الأول دون الثانية لاشتراك المعاني بينهما على هذا الوجه دون الثانية[1].

[1]- النص الشرعي وتأويله، الشاطبي نموذجا، صالح سبوعي، سل: كتاب الأمة، الدوحة. ص.ص: 46-49 . نقلا عن: الموافقات. الإمام الشاطبي ، مج3، ص: 346.

الشكل: البؤرة الدلالية الموضحة للعلاقة بين الفقه والشريعة.

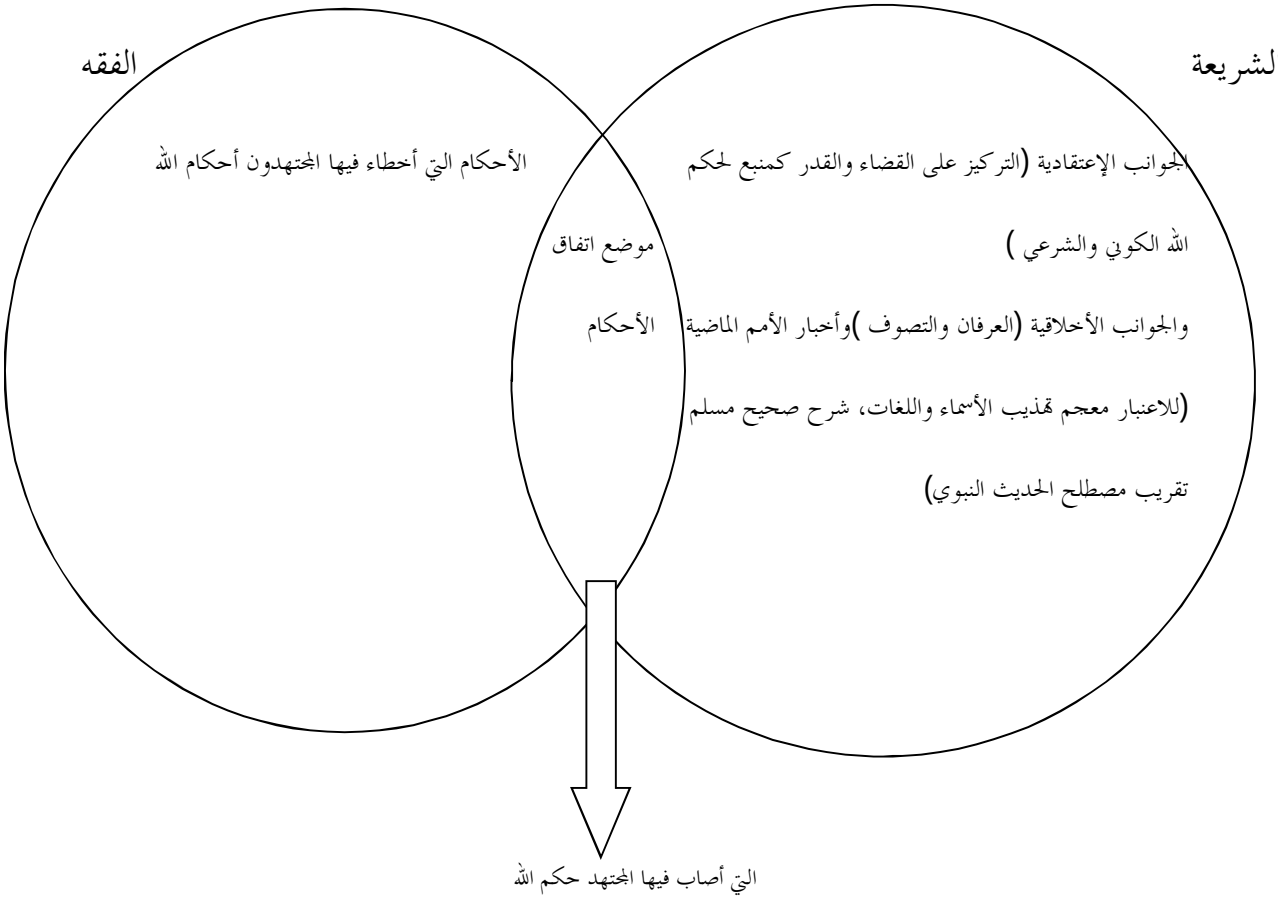

المصدر: كتاب تاريخ الفقه الإسلامي، للدكتور عمر سليمان الأشقر،[1]

ونستطيع أن نستنتج بعد تأمل عميق ومراجعة شاملة يمتنع القيام بها إلا من خلال النماذج التطبيقية التي تعمم نتائجها بعد ذلك على مختلف مؤلفات هذا العالم الجليل كمنهجية سائدة وهذا ما سيرد في الفصول التالية.

فسواء على المستوى الإفرادي للألفاظ المستقلة أم الكلمات ، أم على المستوى التركيبي في الجمل والنصوص، يمكن أن نقرر بغالب الظن الراجح أن الإمام النووي قام بالإستقرائين الناقص والتام في استمداداته الدلالية عبر اجتهاداته الفقهية.

[1]- ينظر: تاريخ الفقه الإسلامي، عمر سليمان الأشقر، دار الشهاب.الجزائر،1991. ص 15 وما بعدها.

1- الاستقراء الناقص: وذلك بإجراء الملاحظة على نموذج مختار من جملة الظواهر المدروسة التي لا حصر لها، والاكتفاء بالقليل عن الكثير متمثلا في:

أ- الاكتفاء بأمهات كتب الفقه الشافعي والتي عليها العمدة في التدريس والفتوى والقضاء .

ب- التركيز على الكتب التي تتلمذ عليها ودرسها عند علماء أجلاء، وأعاد تدريسها للطلاب وهي بسند صحيح لديه لتحقيق صحة النصوص المدروسة

ت- تتمثل هذه العينات المأخوذة فيما جمعه من الكتب الأربعة التي أشار إليها كأمهات في مقدمة كتابه (تهذيب الأسماء واللغات) من أسماء ولغات وردت في هذه المتون، مضافا إليها العيّنات التي اختارها بذوقه اللغوي الخاص من خارج هذه المؤلفات انطلاقا من الذخيرة اللغوية لذاكرته القوية كمحدث حافظ صدرا وسطرا .

2- فجمع في عيناته المدروسة داخل معجمه الكبير المتعدد الأجزاء (تهذيب الأسماء واللغات) :

- الألفاظ المنتقاة داخل السياق (ألفاظ المراجع الفقهية والأصولية).
- الألفاظ المنتقاة خارج السياق (المختارة) بالإضافة الحرة من الذاكرة.

3- أما الاستقراء التّام: والذي يقصد به "العدّ والإحصاء كما يحدث عند تعداد سكان البلاد، أو عند إحصاء الكلمات الدخيلة في اللغة"[1] ،فنستطيع أن نقول أنه حققه " بإحصاء الكلمات الدخيلة في اللغة" [2]، وكذلك بدراسة أوجه النطق في اللهجات لمعرفة الفصيح من غيره وكذلك عبر ترجيح ألفاظ القراءات القرآنية ، وهو ما أشار إليه

[1] - الأصول. تمام حسان . عالم الكتب. القاهرة.2009 . ص:16.

[2] - الأصول. تمام حسان . مرجع سابق . ص:16.

بقوله في مقدمة كتابه (التهذيب) وأضيف إليها من الأسماء العربية والأعجمية والمعربة"[1].

المبحث الثاني: مصطلح علم الحديث ودوره في ضبط الدلالة الفقهية:

توطئة:

لقد نُقل القرآن الكريم إلينا بالتواتر، وهو قطعيّ الثبوت بالإجماع التاريخي على ذلك كما نقل الإمام النووي، إذ يقول في كتابه التبيان: "و قد أجمع المسلمون على أن القرآن المتلوّ في الأقطار، المكتوب في الصحف الذي بأيدي المسلمين ممّا جمعته الدفتان من أول: ﴿**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ {الفاتحة/ 1}، إلى آخر ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ {الناس/1}هو كلام الله ووحيه المنزّل على نبيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن جميع ما فيه حقّ، وأن ما أنقص منه حرفا قاصدا لذلك، وبدله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفا مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع فيه الإجماع، وأجمع على أنه بقرآن عامدا لكل ذلك فهو كافر"[2].

فالقرآن المجيد خبر من السماء يُدعى الوحي المنزل من لدن رب العالمين. وهو، بهذا، لا يطرح مشكلة التوثيق بحكم تواتره التاريخي ومصدره اليقيني الذي أكده الإعجاز في آياته بمختلف أوجهه وعلى رأسها الإعجاز البياني .

أما الحديث النبوي الشريف، كما هو معلوم للمتخصصين والمطلعين على أصول الثقافة الإسلامية عامة، فإنه غير قطعيّ الثبوت. فمنه المتواتر والآحاد، والصحيح والحسن والضعيف. ولذا، فانه يطرح مشكلة التوثيق التي عالجها علماء الجرح والتعديل ضمن منهج ضابط لها كمصدر معرفة في إطار الخبر والرواية.

---

[1] - تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. المقدمة. مرجع سابق. مج : 2. ص: 5 وما بعدها .

[2] - التبيان . الإمام النووي. دار النفائس . بيروت ، ص: 108.

ويسري الأمر كذلك حتى على اللغة العربية عند التطرق لتوثيق ألفاظها كمصدر للبحث اللغوي، وكحجة على مختلف علوم العربية. " وبهذا، انطبعت الحركة العلمية عند العرب – منذ عصر النشأة- بطابع الخروج بحثًا عن المادة العلمية، وظل هذا الطابع سائدا فترة غير قصيرة. يقول نيكلسون: كان الباحثون وطلاب العلم يرحلون في حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاث، ثم يعودون إلى بلادهم محملين بالعسل الشهي. ويبدو أن أصحاب الحديث هم الذين فتحوا هذا الباب في المنهج العربي. وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم، وهم الذين لقوا الرسول صلى الله عليه و سلم وأخذوا عنه لم يستقروا في مكان واحد ، وإنما انتشروا في الأمصار الإسلامية خلال القرن الأول للهجري – عصر الفتوح – ، فلما بدأ جمع الحديث وتدوينه كان لا بد من أن يرحل العلماء ليلقوا من أخذوا عن الذين استقروا فيها من الصحابة، ومن هنا، أصّل المحدثون هذا النوع من الآداب التي ينبغي أن تتوافر في طالب الحديث"[1].

و قد تناول المحدّثون في علوم السنة، روايةً ودرايةً، ألفاظ الحديث النبوي قبل الإمام النووي، من القرن الأول إلى القرن السادس الهجري ضمن صيغ عديدة نجملها فيما يلي:

1 - النصوص الصحيحة التي تمثل التراكيب النبوية والتي بلغت درجة الصحة سواء كانت متواترة أم آحادا.

2 - ثم تليها المتون أو التراكيب الحسنة التي خفّت درجة صحتها لتعدّد طرق رواياتها سندًا أو متنًا.

3 – ثم النصوص الضعيفة أو الموضوعة التي ليست مصدرا لاستخراج الأحكام الفقهية.

4 – الزيادات: وهي الألفاظ التي وضعها الرواة من عندهم عبر الإدراج في التركيب اللفظي النبوي، وذلك لغاية التأكيد أو الشرح. وقد تُرجّح فيثبت – بطرق الترجيح والتعارض كآلية

[1] - مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب . شرف الدين الراجحي ، دار النهضة العربية. بيروت. 1988. ص:18.

أصولية للاجتهاد بالشواهد والمتابعات في علم الحديث، أنها ألفاظ أصلٍ فيُبني عليها الحكمُ الفقهيّ والأصولي.

5 – الألفاظ الغريبة: وهي التي تكفّل العديد من الفقهاء والأصوليين بشرحها لتمكنهم من اللغة من جهة، وقد يردون بها بعض الأحاديث في المتون وإن صح السند لتعمقهم في دلالة اللفظ والحكم عليه بالركاكة في المبنى، أو الفساد في المعنى. وذلك كله في علامات الوضع التي يُعرف بها الحديث المنظور. ذلك أن ضابط فساد المعنى عندهم مخالفة المعنى الدال عليه اللفظ، وبالتالي فالحديث مكذوب لمخالفته:

أ – للدلالة اللفظية العقلية التي اتفق عليها الناس.

ب – أو مخالفته للدلالة الطبعية الوضعية التي تعارف عليها الناس[1].

وإذا عدنا إلى المناهج اللغوية التي كان يلجأ إليها الإمام النووي لتأطير ذلك كله، فإنه كان يستخدم المنهج الوصفي لدراسة دلالة الألفاظ المفردة وتطور معانيها فقهيا وأصوليا، بينما كان يستخدم على مستوى التراكيب المنهجَ المعياري القائم على التقعيد النحوي مع استجلاب البنية الأساسية القائمة في الذهن كمرجعية بالتقدير للمحذوفات أو الحمل على المعان، وهو ما يسميه الزركشي في كتابه البرهان "كما مر معنا: أصل المعنى"

وغاية الإمام النووي في كل ذلك تحصيل الفائدة، أو ما سماه في معجمه الخاص في الألفاظ الفقهية والمستخرج من المنهاج بمصطلح 'الحكمة' حيث يقول: " وقد شرعت في جمع جزء لطيف، على صورة شرح لدقائق هذا المختصر، ومقصودي التنبيه على الحكمة"[2] وهو يتحدّث بذلك عن ضبط الدلالة الفقهية من خلال المقارنة بين شرحه وشرح شيخه الإمام أبي القاسم الرافعي القزويني- 623ه- والذي شرح أصله المسمى ب(المحرّر) من خلال (كتابه المنهاج). والهدف من

[1] - ينظر: كتاب مصطلح الحديث وأثره علي الدرس اللغوي. شرف الدين الراجحي، ص: 198 وما بعدها.

[2] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. تحق: إياد أحمد الغوج. المكتبة المكية. مكة المكرمة. دار ابن حزم. بيروت.1996. ص:25. .

تلك المقارنة هو استخراج الدقائق الدلالية من خلال معرفة الفرق بين ألفظه هو، وألفاظ الأصل حيث يقول في ذلك: "في العدول عن عبارة المحرر، وفي إلحاق قيد أو حرف أو شرط للمسألة ونحو ذلك وأكثر ذلك من الضروريات التي لابد منها"[1].

أما فيما يخص الآليات التي كان يستخدمها من أجل استخراج الدلالات من الحديث النبوي فيمكن تلخيصها وترتيبها كالأتي :

1- غربلة المتون، وذلك لمعرفة الصحيح والحسن والضعيف في رجال الأسانيد،
2- بيان العلل في المتون،
3- الجمع بين الأحاديث المتعارضة لضبط دلالة الحكم الشرعي،
4- تأويل الخفيات واستنباط المهمات،
5- لما كانت الدلالة اللغوية والفقهية موجودة في المتن لا في السند ، وكانت الحاجة إلى التوجيه التربوي تقتضي التركيز على المتن من أجل فقه الدلالة عند الذاكر؛ لذلك نراه مثلا في كتاب "الأذكار" قد حذف الأسانيد مكتفيا بالحكم على الأحاديث فقط تسهيلا للذّاكر من أجل فقه الدلالة [2].

ومن مساهماته الجليلة في علم الدلالة على مستوى الحديث النبوي كمصدر لها، هو :

تحري الخبر الذي تصدر عنه الأحاديث كمصدر للمعرفة بتطبيق منهج الجرح والتعديل على الخبر، وكذلك تطبيق مصطلح الحديث "حيث نظر في كتب الشافعية فحرّرها ونقّحها بما يقتضيه الدليل الذي أوصى الشافعي رحمه الله متتبعيه بالتقيّد به عند صحته" [3] . فقلد المنة أعناق الفقهاء في خدمة المذهب، حيث ذكر في تصانيفه الفقهية : من خرج الحديث ، وهل هو صحيح

[1] دقائق المنهاج. الإمام النووي. نحق: إياد أحمد الغوج. المكتبة المكية. مكة المكرمة. دار ابن حزم. بيروت.1996. ص:25.

[2] - ينظر: أصول البحث العلمي وآدابه عند الإمام النووي. حسن إبراهيم عبد العالي. مجلة الخليج العربي، المملكة العربية السعودية ، ص: 24. وينظر كذلك: مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب. شرف الدين الراجحي. الفصل الرابع (الجرح والتعديل عند المحدثين واللغويين). مرجع سابق.ص.ص:107-132.

[3] - الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه. رسالة ماجستير. عبد العزيز قاسم الحداد. جامعة أم القرى. كلية الدعوة وأصول الدين. إشراف: عبد العزيز بن عبد الله الحميدي1409 ه- 1989. ص 285 .

أم حسن أم ضعيف ؟ وتبعه على ذلك من جاء بعده من الفقهاء على خلاف ما كان يجرى عليه الفقهاء قبله من إطلاق الأحاديث من غير أزِمَّةٍ ولا خطْمٍ "[1] .

المبحث الثالث: تصنيف الألفاظ الفقهية وخصائصها الدلالية:

إن الألفاظ الفقهية عند الإمام النووي يمكن تقسيمها إلى قسمين:

1 – ألفاظ فقهية شارحة وموجهة عامة: وتتميز بالعموم حيث يشترك فيها مع غيره، ويمكن أن نطلق عليها الاصطلاحات المتداولة في الفقه الشافعي التي اتفقت عليها طائفة مخصوصة على أمور مخصوصة وجعلوا لها ألفاظا [2].

وهذه الطائفة هم الفقهاء والأصوليون، ومن ثمة، فهي ليست للإمام النووي أصلا، و لكن يدخل فيها وينتسب لها باعتبارها تشكل آليات لضبط الحقول الدلالية بأبواب الفقه المختلفة.

2 – ألفاظ ومصطلحات خاصة: اتفق عليها فقهاء الشافعية. وهي متعلقة أصلا بالتراث الفقهي والدلالي للإمام النووي كالمصطلحات الوارد في كتابه 'الروضة'، ولكن صياغة دلالة اللفظ فيها وضبطها متفق عليه إجماعا مثل قولهم أصل الروضة، زوائد الروضة، ويقصدون بالأصل الدلالة المحورية الأصلية عند الإمام النووي، وبالزوائد الدلالات الهامشية والمفاهيمية المنبثقة كإضافات واستدراكات على هذه الألفاظ الأصلية.

3 – ألفاظ فقهية محددة تمثّل دقة اصطلاحية: حدّد مقصودها الإمام النووي إبتداءً وانتقلت من دلالاتها الفقهية الخاصة إلى دلالة وضعية عرفية عامة، وذلك بعد أن توافق عليها جمهور فقهاء الشافعية أو استخدمها المؤلف لفظا وتوافقوا على دلالتها إجماعا مثل لفظة 'على المختار'.

[1] - الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه للحداد. رسالة ماجستير. عبد العزيز قاسم الحداد. جامعة أم القرى. كلية الدعوة وأصول الدين. إشراف: عبد العزيز بن عبد الله الحميدي1409 ه- 1989. ص 285 .

[2] - ينظر : مقدمة المعلقة على كتاب (الروضة) للشافعي، الجزء الأول، ص :5.

و قد جاء في مقدمة (الأشباه والنظائر) لإمام السيوطي قولهم "على المختار إن كان لغير الإمام النووي، فهو خارج عن صاحب المذهب، فلا يُعول عليه ، وإن وقع للإمام النووي (في الروضة)، فهو بمعنى الأصح في المذهب لا بمعناه المصطلح عليه "[1].

وقد استخدم الإمام النووي هذه المصطلحات اللفظية كلها لتفكيك خطاب الفقهاء سواء عند القيام بالشرح، أم عند القيام بالتلخيص والاختصار وتمييزا بين أصول النص وزوائده عليه تعليقا وتدقيقا.

- المعنى الأول: إن كانت للإمام النووي استعمالات خاصا به،

- المعنى الثاني: إن كانت لغيره من الفقهاء والأصوليين ، فصارت من المشترك بينه وبين غيره.

هذا فيما يخص الألفاظ الفقهية الموجهة للاجتهاد الفقهي من خارج النص بمصادره الاستدلالية،

أما فيما يخص الألفاظ الضابطة لأركان الحكم الشرعي من داخل النص، فهي على قسمين:

أ – ألفاظ ملزمة،

ب – ألفاظ غير ملزمة.

وفي كلا النوعين يتطرق الإمام النووي رحمه الله إلى المراحل التالية لتحقيق الإلزام أو عدمه باعتبار أن معظمها ألفاظ عقود تُستخدم كثيرا في الأبواب الفقهية للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية كالأنكحة والبيوع .

- وهذه المراحل هي:

1 – بيان حقيقة اللفظ لغة واصطلاحا،

[1] - الأشباه والنظائر . الإمام السيوطي، تحق : محمد سعيد السناري دار الحديث ، القاهرة ، 2012 .ص: 5.

2 – التطرق إلى مقتضياته ،كأركانه وصيغه التي توجب التحليل والتحريم وما يتعلق بهما من شروط وأركان من خلال النظر إلى ماهيتها.

3- وفي الأخير، يتم تأطيرها عبر اللجوء عند الضرورة باستخدام القواعد الأصولية كالعموم والخصوص، أو بيان مقتضيات الفقه الدلالية، وخاصة في ألفاظ إثبات العقود أو فسخها.

وفي التراكيب الفقهية القائمة على العقود إثباتا وفسخا، يراعي تراكيب الجمل في المعاملات من خلال التطرق إلى الاحتمالات الدلالية التي يمكن أن تؤديها، وإمكانية استبدال الجمل الفقهية والتراكيب الأصولية لغويا، من خلال مراعاة البنية الأساسية أو النموذج المعياري، حيث يسمي الإمام النووي عملية الاستبدال بمصطلحات خاصة كقوله "وهو علي تقدير كذا" أو "يحمل على كذا"، ولكن يبقي الاستبدال مؤسسا على اللفظ الذي يمثل الدلالة المحورية في التركيب والسياق معا كما هو الحال في لفظ البيع في باب البيوع ، حيث أدت هذه الكلمة نفس وظيفة كلمة أخرى هي الطلاق دون أن يترتب عن ذلك تغيير في أساس التركيب. ولذلك اُعتبرت قسيما لها وشريكا. وهذا ما مثل له الإمام النووي في باب الخلع.

والدلالة الاصطلاحية الفقهية التي اشتغل عليها الإمام النووي، بحكم تخصصه في الفقه شافعي تتم عبر ما سماه بحدود الألفاظ الفقهية ومجامعها.

أ- المرحلة الأولى، وقد بين رحمه الله أنه رمى بثقله في هذا المجال، حيث تتجلى جهوده المتميزة بصدق في قوله: " وأضبط فيه إن شاء الله تعالى من حدود الألفاظ الفقهية ومجامعها ما يصعب تحقيقه إلا على النادر من أهل العناية "[1].

ب- أما المرحلة الثانية، فهي استخراج الضوابط والكليات كما فصلها استعراضا في كتابه الأصول والضوابط، حيث يعالج دلالتها الأصولية، وكذلك في كتابه (دقائق المنهاج) باعتبارها مفردات كلية جامعة مانعة لمعرفة حقيقة معناها.

[1] - معجم تهذيب الأسماء واللغات. مرجع سابق ، ص :8.

ت- وفي المرحلة الثالثة والأخيرة، يتم استخراج المعاني المستجدات التي بها يضبط الحكم الشرعي.

ولو أدرنا تصنيف الألفاظ الفقهية انطلاقا من معانيها الدلالية العامة، وكلّ ذلك في إطار المذهب الشافعي، لا خارجه، لاستخلصنا ثلاث مجموعة كبرى للألفاظ الفقهية معنونة كما يلي:

1- مجموعة ألفاظ الكتب الفقهية وأبوابها كما في كتاب الروضة مثلا،

2- مجموعة ألفاظ المصطلحات الفقهية التي يكثر ذكرها في المذهب،

3- مجموعة ألفاظ الاختصار،

- الألفاظ الفقهية وأبوابها: وتتميز أولا بما يلي: أنها تمثل ألفاظا عامة، فهي أصول للأحكام الفقهية والشرعية في العبادات والمعاملات سواء كما ألمحنا في التطبيقات الآتية حول أصول الخلع مثلا[1]، وثانيا أنها تمثل أركانا ينبني عليها الحكم، وثالثا أنها نمثّل ألفاظا مُلزِمة في مقتضاها وخاصة إذا كانت صيغا للعقود، ورابعا أنها تتميز بالتنوع والاختلاف والتصريح والكناية على حسب مقام الحال كقول المشتري اشخص أخر: دارُك لي، بمعنى بِعها أو أشتريها كناية بذلك لا تصريحًا.

وعن منهجه في تأليف الروضه، فإنه يتميّز:

1- "التوسّط في العرض بين المبالغة والاختصار،

2- حذف الأدلة في معظمه،

3- الإشارة إلى الخفيّ منها،

4- الاختصار على الأحكام دون المؤاخذات اللفظية،

[1] -ينظر: روضة الطالبين. الإمام النووي. مج. 4. المكتبة العصرية. صيدا/ بيروت. 2012. ص:6-ص:43.

5- الإيجاز كما في كتابه (دقائق المنهاج) حيث اقتصر فيه على شرح المفردات الغامضة، وإبانة النكات الخفية الموجودة في أصل المتن، والتنبيه على مخالفته لشيخه الرافعي في المحرّر بزيادة قيد أو تأخير وما ينتج عن ذلك من فروق دلالية دقيقة"[1]

- ألفاظ المصطلحات التي يكثر ذكرها في المذهب. "و أكثر هذه المصطلحات نص عليها الإمام النووي في كتابه (المنهاج) وحشّى عليها من جاء بعده من الشرّاح والمُحشّين"[2].

والهدف منها إدارة الدلالة الفقهية بأصولها وأركانها ومقتضياتها، لكن أهمّ ما تُستخدم فيه الترجيح بين الأقوال داخل المذهب من أجل ضبط دلالة الفتوى. ومن أهم هذه الألفاظ التي سنتطرق لأشهرها باختصار مستخرجين معانيها الدلالية بعد أن ضبط الإمام النووي مصطلحاتها الفقهية:

- "الأظهر، أو المشهور من القولَيْن أو الأقوال للشافعي، فيستفاد منه [أي دلاليا] وجود الخلاف ورجحان أحد القولَيْن وكونهما من نص الإمام،

- فإن قال الأظهر، فهذا مُشعِرٌ بقوّة مُخالِفِه"[3]. ونستنتج من هذه الصياغة [لمعنيَيْن دلاليَيْن] أولهما دلالة التضاد في لفظة: 'الأظهر'. وهي دلالة لغوية عقلية، ودلالة نفسية سياقية في كلمة 'مُشعِر' كقرينة لفظية وحالية لأن 'مُشعِر' من الشعور، وهو نصف الإدراك الذهني العقلي

- "و إنْ قال المشهور، فهو مُشعِرٌ بضعف مُخالفه"[4].

- " الأشهر، وهو من مصطلحات الرافعي في المحرّر، ويُعبّر عنه للترجيح بين أقوال الإمام أو أوجه الأصحاب"[5].

---

[1] - الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه للحداد. رسالة ماجستير. عبد العزيز قاسم الحداد. جامعة أم القرى. كلية الدعوة وأصول الدين. إشراف: عبد العزيز بن عبد الله الحميدي1409 ه- 1989. ص:226.

[2] - المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. دار النهضة. دمشق/ دار المشرق. فيكتوريا.2006. ص:39..

[3] - المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع نفسه. ص:39.

[4] -المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع نفسه. ص:39.

[5] المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع نفسه. ص:39. -

- الأصحّ أو الصحيح: من الوجهين أو الأوجه للأصحاب يستخرجونها على أصل الإمام، فإن قوي الخلاف فيعبّر النووي رحمه الله بقوله: الأصح، [فيُستفاد منه صحّة المقابل لقوّة دليله][1].

وعند التدقيق في المصطلحات التي سبق ذكرها، نجد أن أغلبها بصيغة صرفية واحدة وهي أفعل التفضيل، لكن هذه الصيغة تنعدم دلالتها اللغوية عند المقارنة بينها، فتختلف مراتبها من حيث قوّة الدلالة أو ضعفها. فبعضها أقوى دلالة كصيغة 'الأظهر'، وبعضها أقلّ كصيغة 'الأشهر'، وبعضها لا تظهر دلالته إلا بمقابلة التضاد مع لفظ آخر كلفظة 'الأصحّ' ولفظة 'المشهور'.

ومن هذه المصطلحات مصطلح " النص، أي هو المنصوص عليه من كلام الشافعي. ويسمى ما قاله نصًّا لأنه مرفوع القدر بتنصيص الإمام عليه، أو لأنه مرفوع إلى الإمام وهو مُشعِرٌ بوجود وجه ضعيف أو قول مُخرّج"[2].

- " المعتمد يعني به الأظهر من أقوال الشافعي،

- الأوجَه يدلّ على الخلاف بين أكثر من وجهين للأصحاب، وأن مقابل المرجوح منها الأصح أو الصحيح،

والأشبَهُ، ويستعمل في ما لو كان في المسألة حكمان مبنيّان على قياسين، لكن علّة أحدهما أقوى، فيكون الحكم المبني عليها أقوى شبها بالعلّة،

- الأقرب، ويطلق على الوجه من وجوه الأصحاب يكون أقرب من غيره إلى نص الإمام"[3].

ومن صيغ الاصطلاحات التي يستخدمها بعد صيغ أفعل التفضيل، صيغةُ الأمر التي تلتبس بالفعل الماضي ولكن السياق يميّزها، وكذلك ضبطها بالشكل مثل صيغة "تأمل" حيث وردت كمصطلح فقهي بثلاثة أوجه هي: 'تأمَّلْ'، 'فتأمّل' وهما صيغتا ماضٍ تنصرف دلالتهما إلى الأمر

[1]- المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع السابق. ص:40.

[2] - المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع نفسه. ص:41.

[3] - المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع نفسه. ص:41.

بالجزم بالسكون الدّال على ذلك، والصيغة الثالثة هي: 'فَلْيَتَأَمّلْ' وهي صيغة صرفية للفعل المضارع دالّة على الأمر دخلت عليها لام الأمر. أما معانيها الفقهية الاصطلاحية، فهي كالتالي:

- " تأملْ: إشارة إلى الجواب القوي"[1]، حيث جُرّدت من الزوائد كاللام والفاء لتكون مباشرة في الخطاب وقويّة الدلالة.

- "فتأمّلْ، إشارة إلى الضعيف،

- فَلْيَتأمّلْ، إشارة إلى الجواب الأضعف"[2].

وعند المقارنة بين هذه الألفاظ الثلاثة ، نجد أنّ علاقاتها الدلالية طردية وعكسية في الوقت نفسه، على حسب بنية الصيغة الصرفية. فكلّما قلّت الزوائد وزاد تجريد الفعل زادت قوّة دلالته والعكس صحيح.

ومن مصطلحاتهم كذلك التي في بعضها طرافةٌ: 'زعم فلان' هو في ما يشكّون فيه. ومن اصطلاحهم أنهم لا يصرحون باسم الحيّ، لأنه ربما رجع عن قوله، بل يقولون: قال بعض العلماء، فإن مات صرّحوا باسمه"[3].

ويثبت هذا تنبّههم منذ القديم للآثار التي يتركها تقلّب السلوك على الاستدلال والدلالة وتطورها وقوة وضعها ارتقاءا وانحدارا عبر الزمن، عندما يخضع صاحبه لضغوط السياقات الاجتماعية والثقافية في بيئته، وهو ما ألمحنا إليه في النظريتين الدلاليتين المعاصرتين، السياقية والسلوكية. والمصطلحات من هذا القبيل كثيرة في مؤلفات النووي وغيره من فقهاء الشافعية اقتصرنا منها على ما أكثر الإمام النووي من تداوله في كتبه. أما من بسط البحث فيها، فهما العالم الشربيني في كتابه (مغني المحتاج في شرح المنهاج) والإمام الرملي في كتابه (نهاية المحتاج في شرح المنهاج).

[1]- المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع السابق. ص:43.

[2] - المدخل إلى المذهب الشافعي. المرجع نفسه. ص:43.

[3] - المدخل إلى المذهب الشافعي. المرجع نفسه. ص:42. -

أما المجموعة الثالثة من الألفاظ، فهي ألفاظ المختصرات التي شاعت في عصر الخلاف الفقهي وضعف الملكة العلمية من القرن الخامس الهجري وما بعده، حيث أُغلِق باب الاجتهاد وتنافست الهمم في حفظ المتون دون فهم أو تجديد.

ويعبّر عن الاختصار ب"أنه الموجز الذي يأتي على المعنى"[1]. كما عرّفه باحث أخر بقوله: " التخلّص من الفضول بالمعنى النحوي وقصر الكلام أو الجملة على طرفيْ الإسناد الأساسييْن اللذين تتم بهما الفائدة كالمبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل"[2].

وأهداف اختصار الألفاظ الفقهية نقتصر منها على هدفين رئيسيْن هما:

1- "تقليل الألفاظ تيسيرا للحفظ،

2- جمع ما هو في كتب المذهب من الفروع ليكون أجمع للمسائل"[3].

أما فيما يخصّ الطريقة التي يتم بها الاختصار، فتقوم على استخدام صيغ صرفية للأفعال وأدوات ربط بين الجمل يتمّ بها تجنّب الفضلات المتعلقة بالأسانيد كتعدّد الصفات والمفاعيل والمعطوفات وما ليس له محل من الإعراب، بحيث تطوي هذه الصيغ المبنية للمجهول في عمومها وإطلاقها ما لم تقيّد بأدوات الشرط معانٍ كثيرة فرعية وتدرجها في دائرة الإبهام ليتمّ إخراج الدلالة المحورية المركزية فقط في اللفظ المختصر.

ومن أكثر الصيغ الفعلية المستخدمة في الاختصار صيغة فُعِلَ وأُفْعِلَ ويُفْعَلُ مثل أُطْلِقَ عَلَيْهِ كذا أو يُرَادُ بِهِ كذا، وقد تُضمُّ له أدوات الشّرط مثل ' وإِنْ جُمِعَ مِنْ نَدًى، ويراد به الماء الطاهر المُطهّر الصالح للعبادة. وكذاك صيغة ' ولو وجبَ' و' و'لو خرج' كقوله في المنهاج :" ولو خرج بعد الغسل وجب إزالَتُه فقط"[4]. ويتمّ تداول أدوات الشرط والجزم والنفي بكثرة في تناوبها وتجاورها مع الأفعال المبنية للمجهول تقديما وتأخيرا أثناء الاختصار لأن الأمر يتعلّق في السياق

[1] - المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية. المرجع السابق. ص:39.

[2] - ينظر: الاختصار والمختصرات في المذهب المالكي. أبو سليمان عبد الكريم قبولز دار الفجر. الجزائر. 2006. ص:21.

[3] - الاختصار والمختصرات في المذهب المالكي. أبو سليمان عبد الكريم قبول. المرجع نفسه. ص:21 .

[4] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 49.

الفقهي بالإباحة أو التحريم، الإطلاق أو التقييد، التخصيص أو التعميم كما في هذه الجملة: " وقيلَ مع غسلٍ إنْ خرج من فرْجٍ"[1]. وكذلك ألفاظ يقبل ويصحُّ مع أدوات النفي أو الإثبات. وتؤدي كلّ هذه الصيغ المستخدمة كأدوات في الاختصار إلى حذف الأدلة والاقتصار على الحكم الشرعي أو الفقهي الذي يحتاجه المقلّد الأمي بسرعة في مذهبه.

- نموذج تطبيقي في تحليل دلالة الألفاظ الفقهية في التراكيب النووية:

قال في كتاب الخلع: 'في حقيقة الخلع' فرع : لفظ 'البيع' و'الشراء' كناية في الخلع سوء جُعل فسخا أم طلاقا، وذلك كأن يقول: بيعتك نفسك بكذا فيقول: اشتريت أو قبلت.

1 الجملة الأصلية قبل الاستبدال فعلية مسندة تامة = جملة فعلية مسندة كُنّية فيها باستبدال لفظ الخلع بلفظ البيع.

دلّ لفظ البيع فقهيا على طلب الخلع، ودلّ لفظ اشتريت على القبول [2].

و يُسمي الإمام النووي رحمه الله عملية الاستبدال هذه في التراكيب ذات الطابع الأصولي النحوي البلاغي في وقت واحد بعملية الإنزال، حيث يقول في (روضة الطالبين): " ورأى إسماعيل البوشناجي من أصحابنا ، أن يُنزل قوله "بِعتُك طلاقك بكذا" منزلة قوله : "ملّكتك طلاقك بكذا" حتى إذا طُلقت في المجلس لزِم المالُ ووقع الطلاقُ"[3].

المبحث الرابع: نماذج تحليلية للدلالات الفقهية في التراكيب

إن مفهوم الدلالات الأصولية عند الإمام النووي يتجاوز في اتساع معناه علم أصول الفقه الذي استوعب الإمام النووي مبادئه من رسالة الإمام الشافعي المؤسسة لهذا العلم ، ويتعدّاه إلى

[1]- دقائق المنهاج. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 49.

[2] - روضة الطالبين.الإمام النووي باب الأنكحة. مصدر سابق. مج:4. طبعة المكتبة العصرية ، بيروت . 2012. ص :6.

[3]-. روضة الطالبين.الإمام النووي. المصدر نفسه. مج:4. (باب الخلع). ص:7.

دلالة الأصول الكونية والحيوية المبنية على نواميس أو قوانين علمية ثابتة. ولهذا أطلقوا على هذا النوع من الأصول " القاعدة المستمرة"، أي المطردة.

وقبل أن نتطرق إلى هذا الأصل وما يعتريه من ظواهر سنمثل لهذه الأصول مما اختاره ومثّل به الإمام النووي نفسه.

- النموذج التطبيقي :

الأصل : براءة الذمة ⟺ **الظاهر :** إقامة بينة غيره بدين يراه لازمت عليه

الاستنتاج :

يُحكم بالظاهر على حساب الأصل لوجود النيّة المقامة.

الأصل: في الماء الطهورية ⟺ **الظاهر:** نجاسة الماء لإخبار ثقة به

الاستنتاج :

يُحكم بالظاهر على حساب الأصل.

إن الظاهر هنا ليس في مقابل الخفي الدلالة كما في دلالة الألفاظ في أصول الفقه، ولكن الظاهر هنا، ما يطرأ على ناموس أو قانون الأصل المضطرد، أي السنة الجارية في الحياة والكون، ثم يغُلب عليه حتى ليبدو لغلبته وظهوره أنه هو الأصل، حيث يلتبس الأمر بينه وبين الأصل الحقيقي. ولهذا عبر فقهاء الشافعية عن هذه القاعدة بقولهم الأصل والظاهر ومرة الأصل والغالب .

وغلبة الطارئ الظاهر بالقرائن كما سبق وأن مثلنا بإخبار ثقة أو إقامة بينة لا يعني زوال الأصل بحال، بل غلبة الطارئ عليه ظاهرا فقط.

ويمكن اعتبار هذا النوع من الدلالات الأصولية دلالات طبعية تمثل الإطار الميداني العام للقضاء والقدر الذي بدأ به وأسس عليه الإمام النووي هذه الأصول والضوابط.

فمسألة القدر وما يتبعه من قضاء تمثل أمر الله الكوني، ومسألة العقود والمقدرات والرّخص وما يعتريها من لزوم وجواز ، وأسباب ومآلات وتحديدات وتقريبات تمثل أمر الله الشرعي.

وبالعودة إلى كتب (الأشباه والنظائر) التي تتناول القواعد الفقهية بالشرح والتحليل وعلى رأسها كتاب (الأشباه والنظائر) في قواعد وفروع فقه الشافعية للإمام السيوطي (م911 هـــ)، فإننا نجد أن حديثه على قاعدة تعارض الأصل والظاهر كقاعدة فرعية ختم بها لإمام النووي كتابه (الأصول والضوابط)، يندرج ضمن قاعدة كبيرة هي الأصل في الكلام والحقيقة. وهذه القاعدة الكبيرة تندرج ضمن قاعدة أكبر هي القواعد الخمس الأساسية التي قام عليها الفقه والتشريع، والتي اعتبر السيوطي أن مدار الفقه كله عليها وهي:

قاعدة اليقين لا يزول بالشك وقاعدة الأمور بمقاصدها وقاعدة حكم الفرع كحكم الأصل وغيرها[1].

المبحث الخامس: المميزات العامة لمعالجة التراكيب الفقهية

إن معظم هذه الدلالات واردة في تراكيب ضمن شرح كتب السنة ك(صحيح مسلم) أو كتب فقهاء الشافعية، ماعدا البعض منها ممّا سماه الإمام النووي ب(الدقائق المستخرجة من المنهاج).

فما هي الأسس التي ارتكزت عليها هذه الدلالات؟

إن " الأسس النظرية التي انبنى عليها المصطلح العلمي القديم نشأت في رحاب الدرس الفقهي الذي يتوخ فهم كتاب الله واستنباط الأحكام منه "[2]. بمعنى أنه يجب ضبط الأسس النظرية بمنهجه الدلالي في رحاب الدرس الفقهي الذي شكّل عقليته كطالب، ثم كمدرس معيد، ثم كإمام مرشد ومجتهد حجة.

---

[1]- علم الدلالة العربي، عبد الجليل منقور، مرجع سابق. ص: 28.

[2] - ينظر الأشباه والنظائر للإمام الشيوطي، الكتاب الأول، ص 47 وما بعدها، طبعة 2012، القاهرة، مصدر سابق.

ويقصد به الدرس الفقهي كل العلوم التي استخدمت كأدوات ومناهج لفهم كتاب الله وسنة رسوله كقواعد التفسير والأصول والحديث بمصطلحه، وفهم ما تولد عنها من اجتهادات فقهية عامة (عبادات ومعاملات) في إطار الفقه الشافعي.

ولا شك أن الإمام النووي ينتمي إلى الاتجاه الفقهي الأصولي ضمن النظرية البيانية التي أسس معالمها الإمام الشافعي في كتابه (الرسالة) كبؤرة دلالية كبرى كما رأينا في المدخل العام، وهذا الاتجاه يهتم بقواعد تفسير الخطاب لا بشروط إنتاجه .[1]

هذه ملاحظة أولى ضرورية لتأصيل منهجية البحث في التراث الدلالي عند الإمام النووي رحمه الله.

وأما الملاحظة الثانية، وهي مهمة جدا، فهي أن بعض أصحاب هذا الاتجاه الأصولي الفقهي ضمن إطار البياني النظري كانوا أقرب إلى المتكلمين والفلاسفة في استدلالاتهم، وبعضهم الآخر كان أقرب إلى اللغة والحديث النبوي.

فهل كان الإمام النووي يبدو في دراساته الفقهية وتفسيره للنصوص مائلا إلى أحد الاتجاهين؟

في مقدمة كتابه (المجموع)، نراه يحذر من الاشتغال بالكلام، بل يحرّم تعلمه، على عكس المنطق الذي يرى جوازه لصاحب القريحة والملكة، وينقل نصوصا عن الإمام الشافعي والإمام أبي حامد الغزالي رضي الله عنهما في هذا الموضوع. وذلك على رغم من أن أبا حامد الغزالي اشتغل بعلم الكلام واستخدمه في الرد على الفلاسفة في كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) .

فالإمام النووي يحذر من الاشتغال بالفلسفة وما ارتبط بها ممّا يدخل في إطار الخبط في الغيبيات كالشعوذة والسحر.

[1] - ينظر: بنية العقل العربي. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، محمد عابد الجابري، ط:9.مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.2009ص: 34.

1. لقد كان للاجتهاد الدلالي للإمام النووي في عصر القرن السابع الهجري مميزات عامة تتضح معاملها.

أ – تداخل دلالات الألفاظ اللغوية والشرعية تداخلا شديدا، واختلاطها في بعض الحالات بالمصطلحات الكلامية والفلسفية المعقدة ، وذلك على الرغم من أن اللغة العربية بلغت غاية البيان في الجاهلية، حيث صاغ منها القرآن الكريم كلاما مُعجِزا في الفصاحة والبلاغة.

ب – ولكن هذا القرآن جاء شريعة ربانية لهداية البشرية، وكانت اللغة العربية هي أداة التبليغ والهداية فيه، ولذلك، فإنه صاغ منها، كمن سبقه من المجتهدين، أداة تبليغ ما شرحه ووضّحه من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية كالصلاة والزكاة والبيع والزواج وغير ذلك.

وكذلك جاءت السنة النبوية لتفصل الأحكام المجملة، أو تبين المبهمة، أو تؤكد ما قرره القرآن الكريم. وهكذا نمت الدلالة اللغوية الصرفة إلى جانب الدلالة الفقهية للألفاظ جنبا إلى جنب في تضافر وتبادل وربط بلغ أوجه في عصر الأئمة الأربعة ومن بعدهم إلى القرن السابع، حيث كان للإمام النووي في ذلك نشاطان في الدائرة الفقهية:

- التعامل مع مصادر التشريع الإسلامي وهي القرآن والسنة شرحًا وتوجيهًا وتنظيرا.
- التعامل مع أقوال الفقهاء في كتب المتون الفقهية التي شرحها وعلق عليها سواء بتوسع كفقه مقارن بين المذاهب في كتابه (المجموع)، أو في إطار دائرة الفقه الشافعي المحددة كما في كتابيه(الروضة)و (المنهاج).

والعجيب أن الإمام النووي يوافق أستاذه الشافعي وهو يتحدث عن أقسام الحكم الشرعي في مقدمة كتابه(المجموع)، ويوافق الجاحظ في بقية أقسام الحكم الشرعي في جهة أخرى.

فهو في ما هو فرض عين من الأحكام الشرعية، كالعقائد وفقه العبادات من صلاة وصيام وحج، يوافق إمامه الشافعي في الدلالات الأصولية المفصلة بأمثلتها في كتاب الشافعي القيم (الرسالة).

1 - وهي تشمل الدلالات اللغوية المتعلقة بكيفية استعمال اللفظ للمعنى من جهة، وكيفية وضعه له، وكيفية دلالاته على المعاني وتحصيلها كالعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمحكم والمجمل، والنص والظاهر، وخفي الدلالة. وذلك كلّه من أجل تحقيق مناط النصوص بيانا وتفصيلا.

2 – الدلالات الفقهية الخاصة التي عبر عنها "بالدقائق" واستخدم مصطلح "التحرير" للتعبير عن دقة وصعوبة استخراج معانيها كألفاظ لكثرة تداولها بين الفقهاء في إطار المذهب، كلٌّ وطريقة استخدامه لها عبر خمسة قرون من تراث الفقه الشافعي في طبقات أئمته ، يضاف إليها شروط الاجتهاد الواجبة تعلقا ضروريا بالفقيه، أبو المفتي والقاضي .

ففي هذه الدلالات الفقهية والعقدية نراه يطابق ما جاء في رسالة الشافعي كما في وصفه للغاية من ضبط معانيها في قوله من كتابه (المجموع) :

" تحصيل ما لا بّد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية كحفظ القرآن والحديث وعلومهما، والأصول، والفقه والنحو واللغة والتصريف، ومعرفة رواد الحديث والإجماع والخلاف"[1].

ويكون بهذا النص قد جمع بين تنبيه على ضرورة الإلمام بقواعد تفسير الخطاب وشروط إنتاجه معا.

وفي الإشارة إلى الدور الذي يقوم به علماء الأصول في دلالة الألفاظ من حيث ضبطها، يقول:

-لا يتطرقون إلى الجانب اللساني للألفاظ والكلمات في مستواها الصرفي والمعجمي إلا لماما.

- ولا يتطرقون إلى الجانب النحوي في مستوى تراكيبها،

[1] - مقدمة المجموع، الإمام النووي. شر: محمد صالح العثيمين، دار الجوزي. القاهرة. 2004. ص: 74.

ولكنهم يركزون على صورها في الأذهان، أي المعاني المركزة في الذهن أو ما سبق مما قلناه كما سنفصل: في دلالة التراكيب النحوية عند الإمام النووي بـــ"تحصيل الفائدة"، يقول الدكتور إبراهيم الأنيس مؤكدا هذا الاستنتاج في كتابه (دلالة الألفاظ) أوضح ما نهدف إليه هنا: " هو أن نبين الصلة بين ما ننطق به من أصوات (يقصد مطلق الألفاظ)، وما تدل عليه من دلالات، ونتعرف على أثر هذا المنطوق به فيما يوحيه إلى الأذهان من صور قد تختلف قوة وضعفا، وتتباين في رفعتها أو خستها، وتتأرجح بين الوضوح والإبهام"[1].

وإذا استخدمنا بالمفهوم المعاصر خطاطةَ اللساني رومان جاكبسون في تحليل الخطاب فإن الأصوليين يركزون على المتلقي الذي وصلته الرسالة لضبط وتأطير فهمه لها، حتى لا يَضِلّ في الوصول إلى الدلالة والالتزام بالحكم الشرعي المبني على غالب الظن في الفقه بعد الاجتهاد فيه.

ولما كان الاشتغال يتم على تراث تشريعي فقهي، فقد انصبت عليه كل جهوده الدلالية، في دراسة الألفاظ الشرعية والفقهية الموجهة للحياة في المجتمع الإسلامي الذي عاش فيه في القرن السابع الهجري ، وقد أحاطت به في بلاد الشام على الخصوص فتن عسكرية كغزو الصليبين والمغول، ، وأخرى فكرية طائفية كتنازع الفرق الكلامية والسياسية حول الحكم والعقيدة مع وفود التيارات الفكرية الخارجية بعد ترجمة منطق اليونان وفلسفة أرسطو ودخول التيارات الباطنية المتربصة بالخلافة وانتشارها. ولذا، فإن الإمام النووي كان يراعي في معالجته لدلالة الألفاظ في مختلف كتبه الفقهية ميزتين أساسيتين ضمن التركيب الفقهي والأصولي:

- الأولى: وهي الحمولة السياقية للفظ الاصطلاحي، بحيث يُعيد تهذيبه وشرحه في ضوءها من خلال الإشارة إلى محل الذكر كقوله مثلا ، وذُكر في باب كذا بلفظ كذا يقصد أبواب العبادات والمعاملات أو قوله و"هو هنا" يقصد في السياق المنقول في نصه للتمييز بين الدلالة اللغوية

[1] - دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس. المطبعة الأنجلو مصرية، القاهرة. 1958.ص: 38.

والاصطلاحية أو العرفية والشرعية ، كما مر معنا في شرحه لمصطلح الصعيد بقوله و "هو هنا" أي في هذا النص والسياق يقصد المكان المرتفع لغة لا الصعيد الطاهر فقها واصطلاحا

- **الثانية :** إعادة اللفظ في التركيب، سواء أكان لغويا خالصا أم اصطلاحيا دقيقا، إلى جذوره وأرومته الاشتقاقية من خلال ضبط مادته المعجمية أحرفا وحركات، إعجامًا وإهمالا، كما رأينا في مبحثي الدلالة الصوتية والصرفية.

المبحث السادس: دلالة التراكيب العرفانية الصوفية

للإمام النووي كتاب بعنوان (التصوف) وكتاب آخر مطبوع محقّق بين أيدينا هو كتاب (بستان العارفين) الذي خصصه لفقه السلوك وبواطن النفوس خلال مجاهدتها لتعرف الحق وتلتزم به .

والعرفان والتصوف عنده بمعنى واحد بدليل أنه في الكتاب الواحد يستخدم مصطلح السادة الصوفية بمعنى العارفين كما في فصل حقيقة الصدق والإخلاص[1]. وكذلك قوله شذرات من كلام العارفين[2].

وفي مقدمة كتابه (المجموع شرح المهذب) للشيرازي يسميه بهذا الاسم 'علم القلب' كمصطلح عرفاني ذو دلالة إيحائية روحانية تتعلق ببصيرة القلب. ونصّه الصريح في هذا الكتاب هو " أما علم القلب وهو معرفة أمراض القلب كالحسد والعجب وشبههما، وقال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين"[3].

ويمزج الإمام النووي بين دلالة فقه الباطن، أي العرفان، وبين دلالة فقه الظاهر، أي الأحكام التعبدية، أو كما يقول العلماء دلالة الحقيقة ودلالة الشريعة. وذلك من خلال الحكم على القلب كميدان علم عند معالجته، وأن معرفة ذلك وممارسته فرض عين.

---

[1] - بستان العارفين. الإمام النووي. دار الشهاب الجزائر. باتنة،1989، ص:47.

[2] - المصدر السابق، ص: 47.

[3] - شرح مقدمة " المجموع" للشيخ محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، 2007. ص: 74.

ثم يستطرد قائلا: "و قال غيره إن رزق المكلف قلبا سليما من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك ولا يلزمه تعلم دوائها، وإن لم يسلم نُظر إن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلّم، وإلا لزِمه التطهير"[1].

وفي تعريف معنى العرفان كمصدر للدلالة العلمية، يقول الدكتور محمد عابد الجابري: "العرفان في اللغة العربية مصدر عرف فهو والمعرفة بمعنى واحد . يقول في لسان العرب: العرفان العلم عرفه يعرفه عرفة وعرفانا ومعرفة وقد ظهرت كلمة عرفان عند المتصوفة الإسلاميين لتدل عندهم على نوع أسمى من المعرفة يُلقى في القلب على صورة كشف وإلهام، ومع أن هذا المصطلح لم ينتشر استعماله في الأدبيات الصوفية إلا في مرحلة متأخرة ، فقد كان هناك منذ البداية لدى الصوفية تمييز بين معرفة تُكتسب بالحس أو العقل أو بهما معا ، وبين معرفة تحصل بالكشف والعيان. وهكذا، نجد ذا النون المصري المتوفى سنة 245 ه يصنف المعرفة ثلاثة أصناف: الأول : معرفة التوحيد وهي خاصة بعامة المؤمنين المخلصين. والثاني : معرفة الحجة والبيان. وتلك خاصة بحكماء والبلغاء والعلماء المخلصين، والثالث: معرفة صفات الوحدانية. وتلك خاصة بأهل الولاية المخلصين الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يُظهر الحق لهم ما لم يظهره لأحد من العالمين " [2].

ويدخل إظهار الله عز وجلّ لهم بصورة لم يُظهرها لغيرهم في خوارق العادات أو ما يسمى عند العارفين من أهل التصوف بالكرامات. ويُنقل عن الإمام القشيري في (الرسالة) في صدقية اعتبارها مصدرا للدلالة المتجاوزة للعقل القائم على عالم الأسباب والمنطق فيقول : "ظهور الكرامات علامة صدق على من ظهرت عليه في أحواله ، فمن لم يكن صادقا فظهور مثله عليه لا يجوز.

[1] - شرح مقدمة المجموع. الإمام النووي. مصدر سابق. ص:74.

[2] - بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية .د محمد عابد الجابري . مركز دراسات الوحدة العربية ، ط:9 ، بيروت لبنان 1990 ص:251 .

وقال: ولابد أن تكون الكرامة فعلا ناقضا للعادة في أيام التكليف ظاهرا على موصوف بالولاية بمعني تصديقه في حاله " [1].

ويُقابل الأمام النووي في هذا النص بين الدلالة العرفانية والدلالة الفقهية فيجعل الدلالة الفقهية الظاهرة القائمة على التكليف بالعبادات دلالة عرفية وضعية، بينما يجعل الدلالة الصوفية دلالة لا تخضع للدلالات العقلية ولا للطبعية ولا للوضعية ولا للّفظية، بل هي أقرب في اتجاهات علم الدلالة المعاصر إلى أن تكون دلالة سيميولوجية قائمة على الإشارات المرتبطة بما يسمى بالكرامة التي تحتاج إلى تأويل من المتلقي نظرا لما فيها من رموز عميقة.

ويسترسل في هذا الأمر بعد ذلك قائلا : "اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات كرامات الأولياء، وأنها واقعة موجودة مستمرة في الأعصار، وتدل عليه دلائل العقول وصرائح النقول. أما دلائل العقل، فهي أمر يمكن حدوثه ولا يؤدي وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه، وما كان مقدورا عليه كان جائز الوقوع " [2].

1- فإذا قمنا بالتحليل الدلالي لهذا النص نجد أن تعليله للدلالة الفقهية الصوفية الروحانية قائم على تبريرها بدلالة العقلية ضمن دائرة الإمكان والجواز التي تُحيل كل شيء إلى قدرة الله الطليقة رغم أن الدلالة الصوفية بطبيعتها باطنية.

2-و أما النقول، فآيات في القرآن الكريم وأحاديث مستضيفة.

أما الآيات، فقوله تعالي في قصة مريم عليها السلام : ﴿**وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾{مريم/ 25 }. قال الإمام أبو المعالي [يقصد الجويني]: و لم تكن مريم بنبية بإجماع العلماء، بل كانت ولية صديقة "[3].

---

[1] - بستان العارفين .الإمام النووي، مصدر سابق. ص: 115.

[2] - المصدر نفسه. ص.ص: 108 -109.

[3] - بستان العارفين . مصدر سابق. ص: 109

ويجعل علم القلب الذي سبق الحديث عنه في مقدمة (المجموع) سبيلا للعرفان والكشف بأدواته وشروطه كذكر المأثور في الكتاب والسنة والذي خصص له (كتاب الأذكار): حيث قال في مقدمته " وأضمّ إليه إن شاء الله مجملا من النفائس من علم الحديث ، ودقائق الفقه ، ومهمات القواعد ، ورياضات النفوس والآداب التي تتأكد معرفتها على السالكين " [1].

ودلالة مصطلح السالكين عند أهل العرفان والتصوف، غير دلالتها عند الباحثين في المنهج العلمي المعاصر، فمقصود بها السير إلى الله بأنوار القلب ، بعد تجليته بالفكر والحسّ.

وليس الهدف من علم القلب، كما يسميه النووي، تزكية النفس في إطار الزهد الذاتي، وترقّب الموت والآخرة، بل إنه أحد المقومات الأساسية للمشتغلين بعلوم الدلالة العربية، كالمفسر واللغوي والأصولي والفقيه، حتى تكون الحقيقة خالصة لله وحده فلا تغويه النفس بعجب أو غرور داخلي أو تعصب لرأي، أو مقررات سابقة من داخل النفس، أو من الخارج كالعرف والواقع، أو إكراه وخوف من صولة سلطان أو غيره، فيلوي بسببها أعناق النصوص تأوّلا لمصلحة غير راجحة، أو كتما لحقيقة الدلالة، فيزيده العرفان الصوفي السنيّ موضوعية بعيدا عن الشطحات المارقة لمنحرفي الصوفية الغلاة أو الجهال، بحيث يكون منهجه أصيلا.

ولعل من أروع الأمثلة الدالة على أنه يعتبر العرفان ضابطا وسطا بين البيان والبرهان، أنه جعل في مقدمة كتابه الموسوعي (المجموع)علمَ القلب في رتبة الطلب من طرف التلاميذ المبتدئين بين فروض العين كالتوحيد والفقه والتفسير ، وبين فروض الكفاية كالنحو واللغة والطب والحساب [2].

و أخيرا، فإن الإمام النووي لم يكن محدّثا هاويا يقول ما لا يفعل، بل لقد أجمع المترجمون لسيرته من العلماء والحُفاظ على أنه بلغ القمة في ورعه وزهده بواقع حاله، لا بلسان مقاله، لأنه تيقّن أن هذا العلم ذوق باطني مصدره البصيرة لا البصر، والسلوك لا النظر.

[1] - الأذكار. الإمام النووي ، دار الفكر ، بيروت ، 2009. ص: 07.

[2] - شرح مقدمة المجموع للنووي. محمد بن صالح العثيمين، مصدر سابق. ص :75.

يقول عنه الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء): "وكان مع تبحره في العلم ، وساعة معرفته بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك مما قد سارت به الركبان ، رأسا في الزهد قدوة في الورع وكان يمتنع من أكل الفواكه والخيار ويقول أخاف أن يُرطب جسمي ويجلب النوم وكان رحمه الله على جانب كبير من الزهد والصبر وخشونة العيش والمثابرة على أنواع الخير لا يصرف ساعة في غير طاعة" [1]

ولذا نراه رحمه الله ونفعنا ببركاته يعتبر علم العرفان المضبوط بالسنة والقرآن هو عين اليقين في العلوم وتحقيق مناطات الأفعال ومقاصد الأقوال لغوية كانت أم فقهية .

وهو يتابع في ذلك إمامه وشيخه الشافعي رضي الله عنه في اعتبار الزهد وسلوك طريق التصوف مدخلا ضروريا للعرفان بمعنييه الروحي والعقلي الدلالي، حيث روي عنه النص التالي في كتابه (بستان العارفين): " وقال الشافعي : من أحب أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم فعليه بالخلوة، وقلة الأكل ، وترك مخالطة السفهاء ، وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف وأدب"[2]

ويقول عن ذلك في مقدمة كتابه (رياض الصالحين): "أما بعد فقد قال الله تعالى: ﴿ **وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونْ** (56) مَا **أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وماَ أُرِيدُ أَنْ يُطعِمُونْ** (57)﴾ {الذاريات/ 56-57 }. وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحقّ لهم الاعتناء بما خُلقوا له والأعراض عن حظوظ الدنيا بالزّهادة، فإنها دار نفاد لا محلّ إخلاد ، ومركب عبور لا مترل حبور ، ومشرع انفصام لا موطن دوام، فلهذا كان الإيقاظ من أهلها هم العباد وأعقلُ الناس فيها هم الزهاد " [3].

فانظر إلى قوله: أعقل الناس فيها بصيغة أفْعل التفضيل الدالة على عمق وتمام الإدراك الدلالي لحقيقة الوجود في رؤية شمولية تتجاوز عالم الشاهدة إلى عالم الغيب الموصول بالله تعالى.

---

[1] - سير أعلام النبلاء. الحافظ الذهبي ، نقلا عن: الإمام النووي شيخ المحدثين والفقهاء. كامل عويضة .دار الكتب العلمية. بيروت.1995.ص: 103.

[2] - بستان العارفين. الإمام النووي. دار الشهاب ، الجزائر.1990. ص: 8.

[3] - رياض الصالحين .مصدر سابق. ص: 4.

- **نموذج تطبيقي حول دلالة التراكيب العرفانية انطلاقا من أشهر وأوثق الأحاديث النبوية:**

الحديث الأول : حديث ((إنما الأعمال بالنيات..)) [1]

ملاحظات وتطبيقات على الحديث

1- إن التركيز على دلالة التراكيب أكثر من دلالة الأنماط المفردة. وقد صرح بهذا على أنه قاعدة مطردة في منهج معالجته للسيرة النبوية درايةً وروايةً، حيث قال رضي الله عنه في المقدمة :

" وأذكرها محذوفة الأسانيد "أي الاحاديث" ليسهل حفظها، ويعمّ الانتفاع بها "أي استيعاب دلالتها" إن شاء الله تعالى، ثم أُتبِعها بباب في ضبط خفيّ ألفاظها".[2]

وهو يقصد بخفيّ ألفاظها دلالة التراكيب كدلالة عامة محورية في نص الحديث كله.

وهو ما يعبّر عنه كذلك بقوله في الشرح 'دلّ الحديث'، لكن في معالجته للدلالة العامة المحورية للحديث النبوي التي استخرجها بالتدبير المباشر، حيث يرغب القارئ المتلقي لشرحه كرسالة أن يشاركه معاناة التدبر واستخراج الدلالات بنفسه، وذلك من خلال قوله في ختام المقدمة: "وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث لما اشتملت عليه من المهمات، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات، ومحل الشاهد هنا هو قوله : وذلك ظاهر لمن تدبر"[3]، فالمهمات دلالات محورية والطاعات دلالات مفاهيمية هامشية.

وبعد أن يشير رحمه الله إلى الدلالة المحورية الأساسية باختصار انطلاقا من تزاحم المعاني من ظاهر النص، كما قال في المقدمة و'ذلك ظاهر لمن تدبرها'، ويقصد المعاني والدلالات الأساسية.

---

[1]- رواه البخاري ومسلم. مج:1.ص:9. ومسلم: رق: 1515. الإبريزية. شرح الأربعين النووية.. شر: لبن شرف النووي. ابن دقيق العيد، العثيمين. دار ابن الهيثم. القاهرة 2003.ص: 7.

[2] - شرح الأربعين النووية. مصدر سابق. ص: 8.

[3]- بستان العارفين: ص :6.

أما بالنسبة للدلالات المفاهيمية والهامشية التي يقتضيها السياق بقرائنه الحالية واللفظية، أو يقتضيها الحمل على المعني، فإن الإمام النووي يلجأ إلى استخدام قاعدة شهيرة من قواعد أصول

الفقه الشافعي وهي قاعدة : المنطوقة والمفهوم، حيث يقوم رضي الله عنه باستنطاق الدلالة المحورية عبر طرح الاحتمالات المقبولة التي يمكن أن يحمل عليها المعنى : ودائما في إطار التطبيق على الحديث "إنما الأعمال بالنيات".

فإن الإمام النووي يقول : "و إذا وُجد العمل ، وقارنته النية فله ثلاثة أحوال :

الأول: أن يفعل ذلك خوفا من الله تعالي وهذه عبادة العبيد،

الثاني: أن يفعل ذلك لطلب الجنة والثواب، وهذا عبادة التجار،

الثالث: أن يفعل ذلك حياء من الله تعالى وتأدية لحق العبودية وتأدية للشكر وهذه عبادة الأحرار"[1].

فكيف عرف الإمام النووي رحمه الله أن صاحب العمل فعل ذلك خوفا من الله، لو لم يستنطق أحدا من المكلفين ليتكلم، ولكنه استنطق النص المفتوح على كل الاحتمالات.

ورغم أن الجملة الشرطية عند اتضاح تركيب التحليل النحوي لها جعلت العلاقة بين طرفي الاستناد مقصورة بينهما، وهما المبتدأ والخبر، حيث حُصر المبتدأ (في الأعمال المحصورة) في النيات والمحصور فيه وهو النيات. وهكذا دلّ كلّ منطوق ممكن الوقوع على المفهوم المستخرج عنه.

وإنما في الحديث النبوي للحصر وإنما الثانية لتقوية الإسناد، قال العلامة بن دقيق العيد في شرحه للأربعين النووية "تقرر عند أهل العربية أن الشرط هو الجزاء والمبتدأ والخبر لابد أن يتغايرا وها هنا قد وقع الاتحاد، فما كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصدا فهجرته إلى الله ورسوله حكما وشرعا [2]. فالتطابق والاتحاد للدلالة على التوحيد.

[1] - شرح الأربعين النووية. دار ابن الهيثم .ص: 7.

[2]-المرجع نفسه، ص 7-8.

دلالة التوحيد المحورية

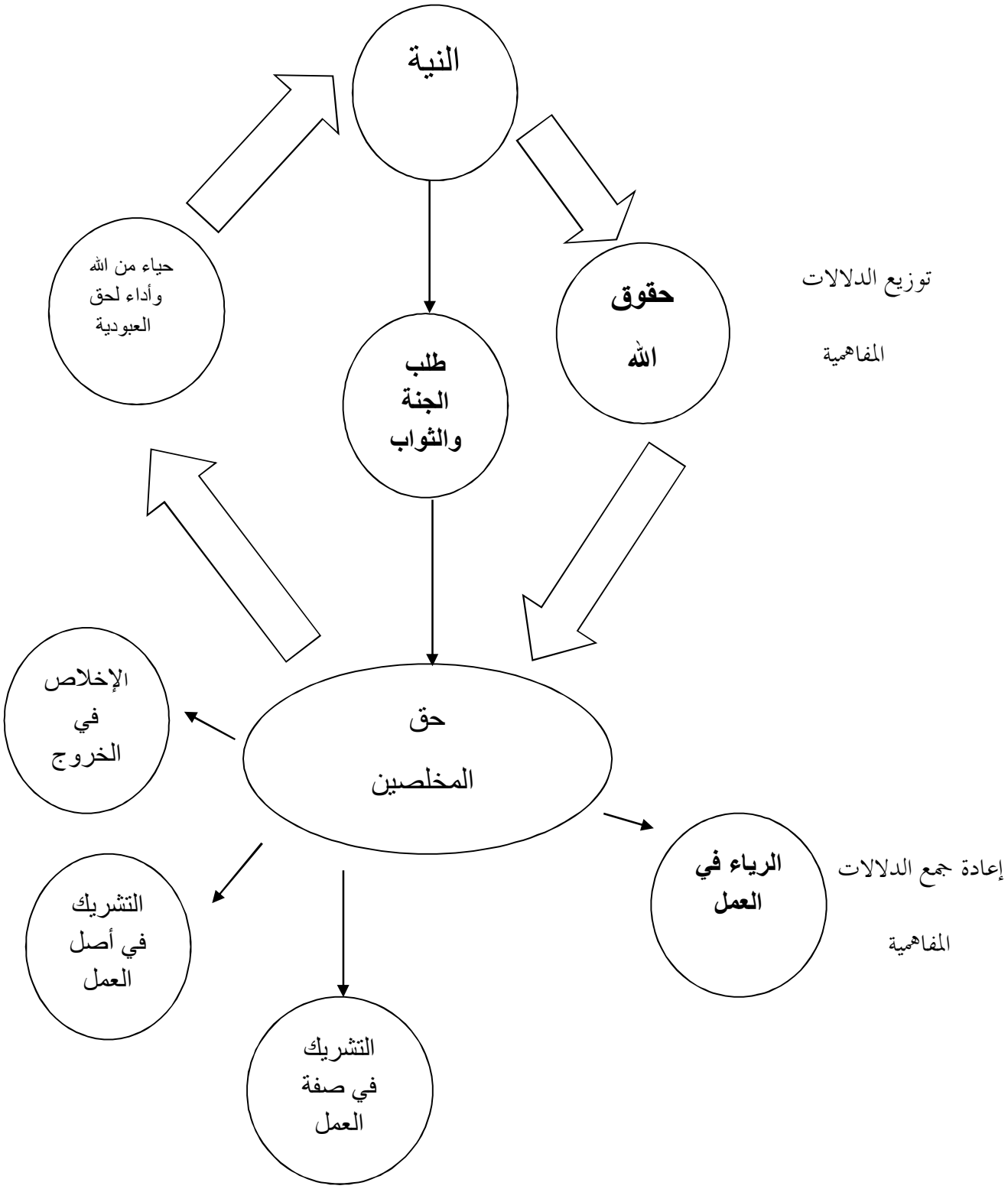

توزيع الدلالات المفاهمية

إعادة جمع الدلالات المفاهمية

- التعليق على المخطّط:

يوضح هذا المخطط العلاقات التي تربط مختلف الدلالات المفاهيمية الهامشية بالدلالة المحورية الأصلية ، حيث تؤول الفروع إليها جميعا. كما يشمل هذا المخطّط ما يخرج من دلالات غير مطابقة للدلالة المحورية، وإن كانت مرتبط معها بمفهوم المخالفة.

و مفهوم المخالفة، كما يعرفه الآمدي في (الإحكام في أصول الأحكام)، هو : "ما يكون فيه مدلول اللفظ في محلّ السكوت مخالفا لمدلوله في محلّ النطق"[1]، أو هو " إثبات نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه كما يقول القرافي"[2].

و كما أنطلق من دائرة ((إنما الأعمال بالنيات ..))[3]:

أ- عبر فرز الدلالات المفاهيمية والهامشية منها

ب- عبر الترجيح بينها ليركّب منها، بما رجح عنده، دلالةً لفظية محورية أخرى هي:

الإخلاص. (تطابق المبتدأ والخبر والشرط والجزاء على غير سنن قواعد اللغة العربية)

ثم يعود مرة أخري إلى الدلالة الابتدائية الأولى: ((إنما الأعمال بالنيات..)) ليستخرج منها بالطريقة نفسها دلالة محورية ثانية هي الصدق، كما هي مجسمة في هذا المخطط:

المحرمات والمكروهات. منافية للقربة والنية غير مطلوبة فيها

التعليل لأنه لا يشتمل على الإخلاص والنية والصدق.

[1] - قواعد المفهوم وأثرها في استنباط أحكام القرآن. عبد الكريم حامدي. دار اليمن للنشر والتوزيع والإعلام. الجزائر. 2002. ص:36.

[2] - المرجع نفسه . عبد الكريم الحامدي . ص:36.

[3] - رواه البخاري ومسلم. مج:1.ص:9. ومسلم: رق: 1515. الإبريزية. شرح الأربعين النووية.. شر: لبن شرف النووي. ابن دقيق العيد، العثيمين. دار ابن الهيثم. القاهرة 2003.ص: 7.

- التعليق على المخطط:

يوضّح هذا المخطّط ترادف الدلالات المحورية من النية، إلى الإخلاص في النية، إلى الصدق في الإخلاص، انتهاءً بالحد الأقصى الذي تتلاشى معه هذه الدلالات المحورية بزوال النية تماما، كما يشير السهم إلى اليسار، إلى الإخلاص في محرّم أو مكروه.

الفصـــل الثالث

دلالة الألفاظ المركبة (التراكيب النحوية)

- المبحث الأول: دلالة التركيب بين اللغة والاصطلاح
- المبحث الثاني: مصطلحات التراكيب اللفظية بين النحاة واللغويين
- المبحث الثالث: دلالة التراكيب النحوية، تأصيل القواعد ونماذج تطبيقية.
- المبحث الرابع: تطبيقات على التراكيب النحوية من كتاب (شرح صحيح مسلم) للنووي.
- المبحث الخامس: المميزات الدلالية العامة لتحليل التراكيب النحوية.

الفصل الثالث
دلالة الألفاظ المركبة (التراكيب النحوية)

- المبحث الأول: دلالة التركيب بين اللغة والاصطلاح

التعريف اللغوي للتركيب :

التركيب في اللغة العربية من الفعل الثلاثي المجرد الذي ضعفت عين فعله فصار مزيدا بحرف أي رُكّب على وزن فْعّل للتعدية أو المبالغة بالمضاعفة للشيء، وأصل الفعل الثلاثي المجرد : "رَكِب" بكسر عين الفعل، أي الكاف من الفعل على وزن "فعل يفعل" أو "ركب يركب" فهو راكب. ويُقال : "الراكب والأركوبُ والركّبانُ، والراكبون، ولا يكونون إلا على الجمال، والرَّكَبَةُ معروفين، والأرْكب لعظيمها" [1]. ومعروف عن ابن فارس تدوير الأحرف الأصلية للمادة اللغوية عبر القلب على معنى واحد في معجمه السابق (المقاييس)[2].

وهذه الدلالة الأولية لمادة "ركب" بمعنى استوى عُلوًّا فوق متن أو ظهر أو سطح شيءٍ أو آلة أو راحلة ليست ببعيد نوعا ما عن المعنى الاصطلاحي للتراكيب في النحو والبلاغة وغيرهما، وكذلك في اللسانيات المعاصرة، بينما نجد المعنى الثاني الذي ذكره تباعا كذلك في معجمه (مجمل اللغة) هو القريب من التعريف الاصطلاحي، حيث جاء فيه : " ورواكبُ الشحم طرائق بعضها فوق بعض في مقدم السّنَام [عند الإبل]، فأما الذي في المؤخر فهي الروادف، الواحدة راكبة ورادفة، والركابة كفسيلة في أعلى النخلة عند قمتها وما حملت مع أمها"[3] . ولذا، فإن مدار المعنى اللغوي للتراكيب على الحمل مع النقل، وهو المعنى الأولي. أما المعنى الثاني الأقرب لموضوعنا، فهو التأليف عبر تنسيق الطبقات أو الأجزاء. أما في معنى الحمل مع النقل، فقولهم :

---

[1] - التركيب المتعدي عند الإمام علي بن أبي طالب في كتابه نهج البلاغة . دليلة مزوز. نوميديا للطباعة والنشر، الجزائر.2014.ص:46.

[2] - مقاييس اللغة. ابن فارس. دار الحديث. القاهرة. 2008. ص:350.

[3] -المصدر نفسه. ابن فارس. دار الحديث. القاهرة. 2008. ص:350.

"الرّكابُ المطيُّ واحِدهُ راحلةٌ ، ومَا له رَكُوبةٌ ، ولا حَمولةٌ : أي ما يرُكبه ويَحْملُ عليه " [1].

وهذا المعنى تمت مُراعاته في الانتقال من الأعمال إلى الأقوال ، ومن الحقيقة إلى المجاز، وعن الحسي إلى المعنوي .

فالألفاظ كالدواب أوعية تُّركب، وكالثياب المفصلة تُرَكب، وذلك من خلال المعاني الحاوية لها في أظرفتها، ثم تنتقل الألفاظ عبر تنوع التراكيب، بين مسندة، ومسند إليها وبين أركان عمدة، ومكملات فصله نوجه المعنى بالتخصيص أو التقييد أو تثبته بالتنويع والتوكيد والعطف وغير ذلك.

التعريف الاصطلاحي للتراكيب اللغوية :

وتأسيسا على المعنى اللغوي السابق للفعل 'ركب'، فإن التركيب هنا، هو رصف الألفاظ نطقا في الكلام الملفوظ أو السطر المكتوب عبر نظمها مع بعضها طبقا لمعاني النحو المتسلسلة في الذهن فكرا حيث يتولد عن ذلك جُملٌ ثم عباراتٌ ثم نصوصٌ تُمثّل خطابا موجها، فمن تأليف ومتون سردية أدبية، أو علمية تخصصية متسلسلة بمنطقية عبر أدوات الرّبط والتعليق في النظم وما يتولد عنها من فقرات .

أما بالنسبة للتأليف، "فهو مصطلح خاص بمجموعة نصوص طويلة كالمقال والقصة. وعملية نضد الألفاظ في التراكيب تتضمن معنى ناتجا عن عملية التعبير ضمن الوجوه المتعددة التي تتحقق بها الأشكال المختلفة للتراكيب" [2].

والتراكيب في الاصطلاح يُشترط فيها شرطان:

1- الإسناد : سواء أدى إلى تمام المعنى ، أم لا.
2- الائتلاف وهو الوضع الذي يتم به المعنى وتكتمل به الفائدة.

[1]- مقاييس اللغة. ابن فارس. مصدر سابق. ص: 350.

[2] - التركيب السيميائي في التراث العربي الإسلامي من القرن3ه . فضيلة بورمة. رسالة ماجستير. إش: د. الأخضر الجمعي. كلية الآداب. جامعة الجزائر .1999. ص: 54.

فالكلام لا يكون إلا تراكيب تتضمن الفائدة التي يحسن السكوت عليها من المتكلم والمستمع ، ولا يكون إلا في إسناد مقصود في ذاته. أما في الفرق بين المركب والتركيب، فإن المركب يكون في الجمل، أي أن الجمل تحتوي المركب، سواء أأفاد فائدة تامة أم ناقصة. بينما الكلام لا يحتوي المركب إلا إذا أفاد إفادة تامة، إذ قاعدة التركيب تشمل اللفظ والمعنى، حيث تتساند الألفاظ رصفا في النظم عبر أشكال مختلفة من الإسناد مكوّنة للجمل المغلقة أو المفتوحة، المركبة أو البسيطة، الاسمية أو الفعلية، المسندة إسنادا تاما أو غير تام، بمعاني تحقّق الفائدة منها أو عدمها[1].

وضمن هذا التحليل المختصر نطرح التساؤل التالي ونحن بصدد دراسة دلالة التراكيب عامة عند الإمام النووي: فهل كان يتعامل مع الكلام "بمعنى محدد يجعل منه وحدة من وحدات اللغة، أم يتعامل معه بوصفه مصطلحا يقابل اللغة بكلّ نظمها وتراكيبها "[2]؟ وكما تأخذ بذلك اللسانيات المعاصر، إذ بتحليل النماذج التالية سنجيب عن هذا التساؤل.

أنواع التراكيب عند الإمام النووي:

إن التراكيب عند مؤلّفنا المعنيّ بالدراسة نوعان:

1 – تراكيب غير منشئ لها: وهي تمثل نصوصا شرعية إما:

أ- مقدسة داخلٌ ضمن الوحي المتلوّ، وهو القرآن الكريم، أو الوحي غير المتلوّ، وهو نصوص السنة بألفاظها وتراكيبها، أو باصطلاح علماء الحديث، بأسانيدها ومتونها ممثلة في صحيح مسلم بن الحجاج وأحاديث رياض الصالحين و"الأذكار"

ب- نصوص شرعية فقهية: وهي لأكابر فقهاء الشافعية بمختلف طبقاتهم ، كمؤلفات الرافعي والشافعي وغيرهم.

[1] - ينظر: التركيب السيميائي في التراث العربي الإسلامي من القرن3ه . فضيلة بورمة. رسالة ماجستير.، مرجع سابق. ص: 17 وما بعدها.

[2] - بناء الجملة العربية، د حماسة عبد اللطيف ، دار غريب. القاهرة.2003. ص:25.

ج- نصوص فقهية ولغوية من تأليفه هو، كشرحه (الأربعين النووية) وكتاب (الأصول والضوابط) وهو رسالة صغيرة مختصرة في القواعد الفقهية، يضاف إلى ذلك مؤلفاته في علم مصطلح الحديث النبوي ككتابه الشهير (التقريب) الذي أنطلق فيه من مقدمة ابن الصلاح في علم الحديث وكذلك كتابه (بستان العارفين) في التصوف وكتاب (الأذكار) الشهير. وبهذا الاعتبار يمكن تصنيف هذه المؤلفات من حيث كونها تراكيب لغوية إلى:

أ – تراكيب سردية بالتعبير الأسلوبي المعاصر: وهي تمثل سير ذاتية لأعلام وشخصيات دينية في المنظومة الإسلامية، من أنبياء ورسل وصحابة وأئمة وزهاد وعُبّاد وتجاوز ذلك إلى عالم الغيب كالملائكة والجن . أو وصف جغرافي دقيق لأماكن ومدن وبلدان تمثل الإطار المكاني للحوادث التي أنجزها وعاشها هؤلاء الأعلام ، وذلك كما في سرده لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في عشرات الصفحات من الجزء الأول، من كتابه أو معجمه بالأحرى (تهذيب الأسماء واللغات) حيث يلتمس الأمر على القارئ بين كونه يتصفح معجما أم كتاب سيرة وكذلك فعل في ترجمة إمامه الشافعي وشيخ مذهبه الذي تبحر فيه في عشرات الصفحات.

وفي كل ذلك كان يميل- باعتباره محدثا – إلى الإسناد المتصل في سلسلة الرواة والثقات من المحدثين، أكثر من ميله إلى التصوير الفني عبر السرد القصصي للأحداث والمواقف حيث لا يتوقف إلا عند المستوى المعجمي الإفرادي وفق الترتيب الألفبائي الذي جعله مدخل للمعجم لشرح بعض الكلمات الغامضة مع ضبطها أو التعليق عليها.

ونفس الشيء فعله في شرحه في التراكيب التي عالجها و لم ينتجها ممثلة في مصادر التشريع كالقرآن الكريم والسنة النبوية ، كما في شرحه ل(لمهذب) للشيرازي في الفقه الشافعي .

وهناك تراكيب أنشأها كتابة وتأليفا كما في (التبيان في آداب حملة القرآن) و(بستان العارفين) في التصوف كان يوازن فيها بين الأسلوب الأدبي البلاغي المتوسع والأسلوب العلمي الاصطلاحي المختصر، لأن الأمر يتعلق هنا بمجال الترغيب لتلاوة القرآن وحفظه وإتقان تجويده أو

مجال الترهيب من الوقوع في حب الدنيا، وعدم الزهد فيها، وزيادة على هذه المستويات العامة فهناك مستوى راق يتميز باللغة الاصطلاحية الدقيقة الموجزة لشريحة معينة في المجتمع يتوجه إليها الخطاب التركيبي وهي شريحة الفقهاء المجتهدين في أعلى قمة المذهب والذين يتداولون أمثال هذه الكتب في الفتوى.

وخير مثال على هذه الأنواع من الكتب كتابه (الروضة) في سبع مجلدات شرح فيها الفقه الشافعي كله عبادات ومعاملات لمختلف فتاوى أعلامه ومجتهديه خلال خمسة قرون .

- التركيب كدلالة معجمية:

غلب على الاستعمال في الأوساط اللغوية والأدبية أن التركيب كمصطلح لغوي ونحوي وبلاغي، ينصرف معناه إلى الكلام والجمل ابتداء، والعبارات والنصوص انتهاءً. فالكلام في عرف النحويين هو اللفظ المركب المفيد بالوضع، والنحو والبلاغة ومعهما الأسلوبية المعاصرة، يمثلان أعلى مستوى لدراسة النظم في ارتباطاته ودلالاته المعقدة.

وقد غطت غلبة الاستعمال هذه التي صارت بالشيوع والتواتر بدلا للأصل ، على الاستعمال الأولي القاعدي لمصطلح التركيب وهو المستوي الصوتي في بنيته المعجمية الأصلية ثم المستوي الصرفي في بنيته الاشتقاقية

وقد تداول ذلك الكثير من أئمة اللغة كأبي الفضل الميداني في تعريفه للاشتقاق مثلا من أنه هو : " أن تجد بين اللفظتين تناسبا في المعنى والتركيب، فترد أحدهما الى الأخر" [1] ، هذا في ورود مصطلح التركيب، على المستوي المعجمي الاشتقاقي، أم وروده على المستوي الصرفي، فنمثل له بتعريف ابن عصفور من أنه "عقد تصاريف تركيب من تراكيب الكلم على معنى واحد أو

[1] - علم الاشتقاق نظريا وتطبيقيا . محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب ،ط: 2 ، 2009 ، نقلا عن حاشية البناني علي جمع الجوامع. السبكي ،مج :1. ص: 280.

معنيين متقاربين "[1] ، فتراكيب الكلم هنا في سياق التصريف هي صيغ الكلمات المفردة التي قد تكون اسما أو وفعلا أو حرفا .

كما قال ابن مالك في مطلع ألفيته:

كَلاَمُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ إسْمٌ وفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ[2].

وعقد تصاريفها على معنى واحد يقتضي تماثل الحروف الأصلية في المادة أو الجذر أو تقاربها دون تجانس، وهي عادة ثلاثة أحرف في بنية الكلمة.

و دلالة التراكيب في كلا المستويين السالفي الذكر لها أصلها اللغوي الأولي، في القاموس أو المعجم العربي.

فقد جاء في معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس.

(ركب) : الراء والكاف والباء أصل واحد مطرد مُنقاس، وهو علو شيء شيئا[...] ومن الباب [...] والمركب : هو الأصل والمنبت يقال هو كريم مركب "[3].

فالمركب: يطلق على الأصل والمنبت لغة والذي يركب عليه كل شيء من تفريعات متصلة به كما في التعريفات المسماة بالفضلة التي تركب على ركني الإسناد، كعمدة في الجملة وأساس، وكما تركب الحروف على المستوى المعجمي علي بعضها انطلاقا من المعني المعجمي العام الذي هو أصل التركيب الذي تدور عليه الحروف الأصلية .

[1] -علم الاشتقاق نظريا وتطبيقيا . مرجع سابق .ص:32 .

[2] - إرشاد السالك. شرح ألفية ابن مالك. عبد المجيد الشرنوبي، المكتبة العشرية.صيدا. بيروت ،2012. ص: 10.-

[3] - معجم مقاييس اللغة. ابن فارس، ط دار الحديث ، 2008، القاهرة. ص: 35.

المبحث الثاني: مصطلحات التراكيب اللفظية بين النحاة واللغويين

إن معنى اللفظ ،ككلمة "عمدة" يسند إليها(مبتدأ، أو فاعل)، يختلف عنه ككلمة فضلةٌ تسند إلى غيرها كما في الحال والمفاعيل والصفات.

ففي الحالة الأولى، إذا كان مبتدأ أو فاعلا ، في سياق اللفظ للمعنى المفرد- أي الكلمة وهي الوحدة الأساسية في بناء الكلام التام ، وتعريف الكلام بأنه اللفظ المركب المفيد عند متأخر نحات، فلا يوهمنك ذلك من أنها وقعت عمدة ودلت على الكلام، لأن الوصف المسند إليها (المركب) يدل على أن الأمر يتعلق بكلمات مفردات أصلا تم تركيبها لتحقيق الفائدة .

أما في الحالة الثانية، فإن وقعت فضلة كما في الوصف والمفاعيل، فهي دالة على التركيب حتى وإن اشتق منها اسم المصدر الصناعي [1]: وهو المصدر المصاغ من اللفظ مشتق كان او جامدا للدلالة به على كل الصفات والامور المعنوية ولكن بزيادة ياء مشددة.[2]

والمرحلة التي عاش فيها الإمام النووي وتلقى فيه العلم هي "مرحلة تفريق حاسم بين هذين المصطلحين، **الجملة والكلام.** هذا التفريق الذي يجعل الجملة أعم من الكلام، وذلك لأن الإسناد الذي يوجد في الجملة قد يكون أصليا في تركيب مقصود لذاته، أو أصليا في تركيب غير مقصود لذاته أما الإسناد في الكلام فلا بد أن يكون أصليا في تركيب مقصود لذاته" [3].

لكن ابن مالك نقل عن مؤرخي النحو القدماء ونقل عنه أيضا ودارسي الأبنية التركيبية في الجمل حديثا (المعاصرين) أن له رأيان في التفرقة بين الجملة والكلام كالدكتور على أبو المكارم في كتابيه (الجملة الاسمية) و(الجملة الفعلية) والدكتور محمد عبد اللطيف حماسة في كتابه بناء الجملة العربية).

والإشكالية المطروحة سؤالها هو تتمثل في أيّ الرأيين كان الإمام النووي يعتمده في تحليله للتراكيب اللفظية ، سواء ضمن النصوص النبوية في شرحه لصحيح مسلم ابن الحجاج، أم في شرحه للنصوص الفقهية في كتبه (المنهاج) و(المجموع) و(الروضة) وغيرها وكتبه الأخرى.

---

[1] - ينظر: ، بناء الجملة العربية. حماسة عبد اللطيف ، مرجع سابق ،ص: 10 وما بعدها.

[2] -مدخل إلى علم النحو والصرف، د. عبد العزيز عتيق ، ص 50 وما بعدها.

[3] - المرجع نفسه، ص 24.

الرأي الأول وهو الذي وافق فيه سنرى أنه وافق فيه العلامة الرضا الإستربادي وغيره، والذي يرى أن الكلام تركيب فيه الإسناد المقصود لذاته، بينما الجملة تركيب فيه الإسناد غير المقصود لذاته، وبالتالي" فكل كلام جملة وليس كل جملة كلام"[1].

فالكلام هنا له معنى محدد، وهو أنه وحدة من وحدات اللغة.

بينما الرأي الثاني: ينظر فيه للكلام على أنه مصطلح يقابل 'اللغة' بكل نظمها وتركيباتها، أي ما يقع به التفاهم فهو، كما يقول ابن يعيش، جنس عام تندرج تحته الجملة بوصفها نوعا من أنواع هذا الجنس، وبالتالي، فكل جملة كلام ولا يكون كل كلام جملة .

فالكلام تركيب إسناديّ فيه قصد ذاتي، والجملة تركيب إسناديّ قد يكون فيه قصدٌ ذاتيّ وقد لا يكون وبالتالي فهي أعم من الكلام.

إن ما نخرج به من هذه الخلافات التاريخية بين مختلف النحاة حول ضبط مفهوم الجملة والكلام والتركيب والإسناد، والذي جعلناه كتوطئة لهذا الفصل، هو أن الفاصل بين الكلام من جهة، والتراكيب والجمل من جهة أخرى، إنما يتمثّل:

أ – إن الكلام : هو الذي يفيد أصل المعنى والذي تكشف عنه وظيفة الإعراب،

ب – أن التراكيب والجمل تفيد كمال المعنى الذي تكشف عنه وظيفة البلاغة والبيان[2]، كما في حديث إنما الأعمال بالنيات حيث تقدير المحذوف هنا الخارج عن أصل المعنى إنما كمالها وتصحيحها وقبولها لا صحتها.

ولا تختلف طريقة الإمام النووي في تصنيفه للجمل عن طريقة النحاة قبله، إذ إن هذا التصنيف قائم على مراعاة اندراج كلّ نوع تحت جدول تصريف أو استبدال معين كما يقول صاحب كتاب (بناء الجملة العربية)[3]، كما سنرى في التطبيقات حيث يستخدم مصطلح الإنزال او الحمل والتقدير.

---

[1] - بناء الجملة العربية، عبد اللطيف. حماسة. مرجع سابق.ص:25. وينظر: الجملة الاسمية. علي أبو المكارم، مؤسسة المختار ، القاهرة 2000 .ص:10.

[2] يرى الدكتور محمد عباس في كتابه (الأبعاد الإبداعية) في نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني أن "أصل المعنى يساوي المعاني المجردة. وأن كمال المعنى يساوي الصور الذهنية". الأبعاد الإبداعية . محمد عباس. دار الفكر، دمشق، 2001، ص: 37.

[3] - بناء الجملة العربية ، عبد اللطيف حماسة، دار الغريب. القاهرة. ص : 24 .

المبحث الثالث: دلالة التراكيب النحوية، تأصيل القواعد ونماذج تطبيقية.

إن نظرة الإمام النووي إلى التراكيب والجمل وما يتعلق بها نحوا وقواعدَ هي نفس النظرة السائدة في القرن السابع الهجري، عند النحاة المتأخرين. ويوضع على رأسهم العلامة محمد بن مالك الأندلسي شيخ الإمام النووي، حيث يرى كثير من مؤرخي النحو، وشارحي منظوماته أنه المقصود في أول باب التراكيب المتضمن للإسناد في ألفية ابن مالك الشهيرة. وهو باب المبتدأ والخبر وهو قوله في الألفية "و رجل من الكرام عندنا ".[1]

ونظرة العلامة بن مالك شيخ النووي للمصطلحات المتعلقة بالتراكيب ودلالتها النحوية والأسلوبية كمصطلح: الجملة والكلام.. تندرج ضمن المرحلة التي تلت مرحلة التسوية بين مصطلحي الكلام والجملة في التراكيب، عند بعض النحات والبلاغيين والمفسرين(من بداية القرن الثالث الهجري إلى نهاية القرن السادس الهجري) كابن جني والزمخشري، والجرجاني عبد القاهر[2] الإمام.

ومادام الإمام النووي من أصحاب الاتجاه الذي يرجح الفائدة التامة وليس الاتجاه الذي يراعي مكونات التركيب، أي الإسناد بأركانه الأساسية ومدى توفرها، والأشكال التي يأخذها، وما دام قد وقع الخلاف حول الفائدة في التراكيب النحوية في شيئين متعلقين بها :

أولهما: هل يشترط أن تكون متحققة بالفعل أم لا؟، بحث تخرج من ذلك البديهيات التي لا تحتاج إلى نظر وحمل.

وثانهما: هل يشترط أن يقصد إليها المتكلم أو لا يشترط هذا القصد؟

ولو حاولنا تطبيق هذين الشرطين على منهاج الأمام النووي رحمه الله نجده يشترط 'الفائدة المتحققة فعلا' وليس الإسناد والتركيب فقط، وتعليل ذلك أنه ليس متخصصا في النحو ومتفرغا له بحث يراعي التقعيد لحالاته الإعرابية وإن كان قد برع فيه، ولكن سبب اهتمامه بالفائدة لأنها بها

---

[1]-وتكملة صدر البيت وهل فتى فيكم فما حل لنا ورجل من الكرام عندنا، أنظر شرح الألفية للمكودي، ص 33. ط دار الرحاب الجزائر، 1990.

2 - بناء الجملة العربية ، عبد اللطيف حماسة، دار الغريب. القاهرة. ص : 24.

يتم تحصيل حاصل الحكم الشرعي عند تحليله للنصوص لغة وأصولا، أي النصوص الشرعية التي يعالجها في آيات الأحكام وأحاديثه.

ولو نظرنا إلى عقليته الفقهية الأصولية، وفق منهج الإمام الشافعي الأصولي وقواعد مذهبه الفقهي، لقلنا إنه يطبق ذلك، بسبب طبيعة الحكم الشرعي من خلال التعريف الأصولي له بأنه "هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع "[1].

وهذه الطبيعة تقتضي ضبط الفائدة الفعلية في الخطاب الموجه للمكلف عبادةً ومعاملات، كما هي في مختلف النصوص والتراكيب.

وكذلك في الشرط الثاني، وهو القصد: إذ لابد منه في الحكم الشرعي لتعينه نية ابتداءً من المكلف نحو خالقه ولتعينه بعد التكليف تلقيا بالوجوب والفرضية، أو بالندم والسنية، أو بالإباحة المطلقة. وإذا ضبطت الفائدة في التركيب النحوي ساعد ذلك على تعين القصد .

ولهذا اشترطوا آليات الاجتهاد وضوابطه لفهم مقصود الشارع في الخطاب الذي هو تراكيب وجمل[2]، وعلى رأسها علوم اللغة.

سبق وأن مرّ معنا أن الإمام النووي في دراسته للتراكيب، سواءً أكانت جملا أم صيغا أم عبارات يركز على الفائدة، لا على التركيب، وتوفُّر الإسناد فيه كشرط لقبوله، ولكن لم نشِرْ في المباحث السابقة المتعلقة بدراسة دلالة الألفاظ المركبة إلى الإجابة على السؤال التالي: هل كان اعتماده على الفائدة بعمومها، مقصودةً وغير مقصودة ، أم على المقصودة خصوصا؟

والرّاجح مما نقله تلميذه ومريده الذي تتلمذ على كتبه لا على حلقاته، وهو الإمام السيوطي فيما نقله عن الإمام الرافعي شيخ الإمام النووي، أنه يشترط القصد في الكلام متابعة لشيخه الرافعي وبقية فطاحل وأئمة المذهب الشافعي.

[1] - أصول الفقه الإسلامي ، وهبة الزحيلي. ج: 1. دار الفكر. الجزائر، 1986 . ص: 38.

[2] - الجملة الفعلية. علي أبو المكارم. دار المختار .القاهرة. 2006. ص: 22.

وهذا المذهب هو مذهب إمام النحاة سيبويه الذي استوعبه الإمام الشافعي ودرّسه للكثير من تلامذته كما هو مذهب جمهور النحاة عموما.

المبحث الرابع: تطبيقات على التراكيب النحوية من كتاب (شرح صحيح مسلم) للنووي

- نموذج تطبيقي أولي في دلالة التراكيب النحوية:

((حدثني أبو طاهر، حدثنا ابن وهب عن يونس (ح)، وحدثني حرملة بن يحيى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب خبرني حميد بت هبد الرحمن بن عوف أن أبا هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف منكم فقال في حلفه باللاَّت. فليقل: لا اله إلا الله. ومن قال لصاحبه تعالَ أقامِرْك فليتصدق)) [1]. " قال العلماء: أمر بالصدقة تكفيرا لخطيئة في كلامه بهذه المعصية"[2]،

ثم لما كان هذا العام هو كلمة الخطيئة التي وردت هنا نكرة في سياق العموم زيادةً على كونها مجملة، فاحتاج الأمر إلى تخصيص هذا العام ، وتفصيل هذا المجمل باستخدام قواعد علم الأصول، وباعتبار الصدقة ليست عبادة أو كفارة معينة هنا، فدخلت في باب الإباحة والندب المفتوح بلا مقدار على حسب الاستطاعة. ولذا فإن الإمام النووي رحمه الله ينقل قول من رفع الإبهام عن العام، وفصل المجمل من العلماء الأصوليين، فيختار قول الخطابي قائلا: " قال الخطابي معناه فليتصدق بمقدار ما أمر أن يقامر به "[3].

ولكن الإمام النووي يتجاوز في تحليله وترجيحه لدلالة هذا التركيب اللغوي للحديث النبوي شرح الإمام الخطابي رحمه الله، ليوسع أفق الدلالة وحقلها انطلاقا من التحليل القائم على الأساس النحوي كما يفهم من سياق نصه : ' فليتصدق بمقدار ما أمر أن يقامر به '. فحكم الخطابي يتمثل

---

[1] - أخرجه مسلم تحت رقم تخريجه .1647 . صحيح مسلم بشرح النووي. الإمام النووي ج: 11. مج:6.دار الغد الجديد. القاهرة. 2008و ص98. كما أخرجه البخاري والنسائي.

[2] - المصدر نفسه. ص: 98 .

[3] - شرح صحيح مسلم. النووي . مصدر سابق. ص: 98.

في استخراجه دلالة الحكم من خلال ضبط العلاقة القائمة بين طرفيّ الجملة الشرطية. وهي جملة لها محلّ من الإعراب نحويا باعتبار أن جوابها متعلق بالفاء، إلا أنها معكوسة، بمعنى قدم فيها الجواب على الشرط، والتقدير عند إعادة التركيب هو "بمقدار ما أمر أن يقامر به فيتصدق".

و هذا من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قدم ما هو خير للمخاطب على ما هو شرّ له، فجعل كلمة 'فليتصدق'، وهي فعل مضارع دخلت عليه لام الأمر، على لفظة 'يقامر' التي دخلت عليها أن المصدرية الناصبة ، وقدم المعلوم الأقرب للفهم عل المجهول التي دخلت عليه ما الموصوفة

وانطلاقا من ترجيح الدلالة اللفظية المفردة الوضعية لغة واصطلاحا شرعيا، وتأكيدها بالدلالة اللفظية الطبْعية التي يستخرج منها بعد ذلك الدلالة العقلية الخفية الموجودة في باطن لفظ الحديث، نقل رحمه الله في آخر شرحه للحديث النبوي قول القاضي عياض الذي سيأتي ذكره، والمستخرج لهذه الدلالة أصلا من نص الحديث النبوي، ولكن الإمام النووي بمنهجيته الحديثية والفكرية المتابعة لمنهج السلف الصالح قد أخرها لسببين معقولين وهما:

أ- لأنها آخر الدلالات استخراجا بالضرورة،

ب- لأنه في منهجه المعرفي يرى ضرورة تقديم النقل على العقل مادامت الرواية النقلية صحيحة الأسانيد سواء كانت حديث أحاد أم متواتر. ثم ينقل قول القاضي عياض " قال القاضي ففي الحديث دلالة لمذهب الجمهور أن العزم على المعصية إذا استقر في القلب كان ذنبا يكتب عليه بخلاف الخاطر الذي لا يكتب عليه "[1].

فهو، ها هنا، يفرق بين الدلالة العقلية البحتة والدلالة النفسية المرتبطة بقرينة العزم سلوكا. وهي دلالة معتبرة في علم الدلالة المعاصر، حيث يمثل لها بعض علماء الدلالة في الغرب الأوروبي بالمرجع وخاصة في النظرية الإشارية والنظرية التصوّرية والسلوكية.

[1] - شرح صحيح مسلم . الإمام النووي. مصدر سابق.ج: 11.. ص: 99 .

فالإمام النووي يتجاوز الدلالة الخاصة الناتجة عن تحليل العلاقات النحوية في الجملة الشرطية إلى ترجيح ظاهر الحديث اي عموم الدلالة معتمدا على مثلث ضبط الترجيح :

أ: الدلالة المعجمية للفظ المفرد (إشارية تصورية)

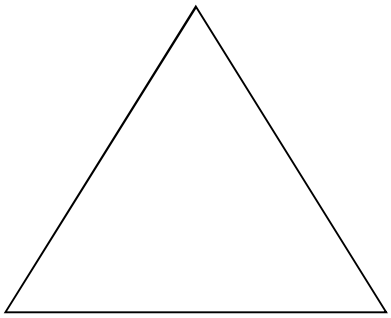

ب: الدلالة الشرعية الاصطلاحية للفظ الصدقة

ج:اسناد الرواية المؤكدة

- التعليق على المخطّط:

إذا نظرنا إلى الدلالة المعجمية، فهي مرجع للمثلث الدلالي باعتبارها فكرة في الدهن يعبر عنها اللفظ المعجمي. وتستوعب عقلا. ومن ثمة، فهي هنا دلالة إشارية تصوّرية. أما إذا نظرنا إلى الدلالة الشرعية التي نمثل أمرا سلوكيا للتطبيق، لأنها تصير هي المرجع كما نقول بدلك النظرية السلوكية والسياقية. ونمثّل الدّائرتان عند رأس المثلث وأسفل قاعدته اليمنى مرجعيّ الدلالة الإشارية المعنوية، والدلالة الوضعية السلوكية في التداول بينهما عبر التبادل.

وفي النهاية، نرى أن دلالة اللفظ المفرد المؤولة من الجملة الفعلية الشرطية باعتبارها جملة مركبة لها محل من الإعراب وتُؤوّل بمفرد هو هنا الصدقة، فهذه الدلالة الظاهرة رجحت عند الإمام النووي وفق القاعدة الأصولية : "أن العام الظاهر يبقى على عمومه حتى يرد ما يخصصه وكذلك المطلق يبقى على إطلاقه حتى يرد ما يقيده" ، حيث يلجأ الإمام النووي إلى علم الحديث رواية في الحديث الصحيح المسند للإمام مسلم والمؤكد لترجيحه بزيادة لفظ "فليتصدق بشيء". و"الشيء" يحمل دلالة لفظية طبعية مؤكِّدة للدلالة اللفظية الوضعية لغةً واصطلاحًا، أي "الصدقة".

إن الإمام النووي يتابع في ذلك المفسرين والأصوليين في العمل" بالمطلق إلا إذا قام الدليل على التقييد[..] وأما إذا قام الدليل على تقييد المطلق، أصبح مدلوله مقيدا وانتفى عنه ذلك الشيوع في أفراده، كما في قوله تعالى: ﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾{النشاء/11}، فلفظ وصيّة مطلق لم يقيّد بمقدار معيّن من ربع مت يملك المكلّف، أو نصفه، أو ثلثه، ولكن ثبت في السنة ما يدلّ على تقييد الوصيّة لما لا يزيد عن الثلث"[1].

- نموذج تطبيقي ثانٍ حول دلالة الألفاظ المركبة:

جاء في الحديث النبوي عن عائشة رضي الله عنها ((أن نساء المؤمنات كنّ مع النبي صلى الله عليه وسلم يرجعن متلفعات لا يعرفهن أحد، أو كما قال النبي صل الله عليه وسلم))[2]

قال الإمام النووي في الشرح:

- " قوله إن نساء المؤمنات صورته صورة: إضافة شيء إلى نفسه.

1 – الصورة الأولى: إن نساء "الأنفس" المؤمنات : بتقدير مضاف إليه وهو الأنفس: إلى المسند إليه الأصلي ويصبح الأول صفة للمضاف. فهو على صيغة تركيب كقولنا "رجال قوم" ، ك"نساء أنفس".

فهذا استبدالٌ حصل في التركيب النبوي الأصلي بالتقدير لكلمة الأنفس .

2 – الصورة الثانية: إن فاضلات المؤمنات حيث تم الاستبدال النهائي، لا التقديري، بحذف كلمة "نساء" كاسم، واستبدالها بصفة "فاضلات" مع عدم تقدير المحذوف لتحقيق دلالة التميّز بالمقابلة من خلال استبدال اسم بصفة.

[1]- دراسات في أصول التفسير. محسن عبد الحميد.ط:2. دار الثقافة. الدار البيضاء. 1984 . ص: 68.

[2]- صحيح مسلم بشرح النووي. النووي. باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها. رقم الحديث:230-645. ص.ص:125-126.

3 – الصورة الثالثة: إن نساء 'الجماعات' المؤمنات، وقد أورد الإمام النووي هذه التقديرات في التراكيب الأصلية للحديث النبوي، في شرحه. وتبقي الصورة الأولى في نظرنا أرجح لأنها أوكدُ في الدلالة على إضافة الشيء لنفسه.

إن الإمام النووي يتوجه إلى المسند إليه. وهو الجملة السابقة: 'إن نساء المؤمنات': باعتبارها المحور والقاعدة الأساسية للتراكيب التي تأتي بعدها في السياق وتنبني عليها فيقوم :

- بتصنيف جملة المسند إليه الأساسي، عبر الإدراج والاستبدال او ما يسميه بالإنزال في مصطلحه كما رأينا في النماذج التحليلية، مبتغيا بذلك استخراج الدلالة الأساسية التي تنطلق منها بقية الدلالات في التركيب النبوي سواء أكانت دلالات فقهية، أم لغوية، أم اجتماعية، أم حضارية.

و نخرج من تحليل هذا التطبيق الثاني:

1 - بخاصية أساسية يمتاز بها الإمام النووي في دراسته للتراكيب والجمل ضمن إطارها النحوي، سواء أكانت نصوصا مقدسة كالقرآن والسنة، أم نصوصا فقهية بشرية، وهو أنه ينتمي إلى الاتجاه الذي لم يقف عند بيان "اللفظ"، الذي يحمل المعنى العام، التام الفائدة محددا تصوره، بل يبدو أنه أكثر ميلا إلى ترجيح "المحور الذي تدور عليه الجملة وجودا وعدما، وهو الفائدة التامة وحدها[1] ".

ومعنى هذا أنه لا يركز على أحوال الإسناد وتقلباتها وما يعتريها من حالات إعرابية. فهو لا يهتم كثيرا بالحالات الإعرابية إلا إذا تعلق الأمر بتوجيه نحويّ لقراءة قرآنية، أو ترجيح حكمٍ شرعيّ، أو رفع إشكال في لفظ أو تركيب مبهم يحتمل تأويلات عديدة.

[1] - الجملة الفعلية. علي أبو المكارم، مرجع سابق. ص: 24.

2 – وهكذا يمكن أن نصف هذا الاتجاه الذي ينتمي إليه، بشيء من التجاوز اليسير،: بأنه اتجاه معنوي، أو كيفي في معالجته لمفهوم الجملة العربية[1].

فهو لا يحتفي بمكوّنات الجملة أثناء تحليل النص إلا بقدر ما تعينه على إتمام الفائدة[2]. فعقليته المكونة كداعية وفقيه مجتهدا في الشريعة الإسلامية، وبتعامله ليل نهار مع مصادرها تدريساً وتأليفاً وقضاءً وإفتاءً، تجعله يركّز على الفائدة التي يتحقق بها الحكم الشرعي اجتهادا، وينتفع به الناس تطبيقا.

3 – وذلك يتوافق مع العالم الدلالي الذي ينتمي إليه في بؤرته الإبستمولوجية ومرجعيته الغيبية، وهي أن الأمر قضاء وقدر. ومن القضاء والقدر الوحي، ومن الوحي التسليم لحكم الله اختيارا كالتسليم له اضطرارا .

نموذج تطبيقي ثالث حول دلالة الألفاظ المركبة من الوجهة النحوية:

ولهذا، نجده يتجه مباشرة في شرحه للأحاديث النبوية لصحيح مسلم إلى المعنى الذي يقصد به الدلالة المحورية التي تجمع الشتات في النص. وذلك بطريقتين: إما بالاستخلاص المباشر بلا تحليل، وإما بالتحليل كما في هذا الحديث الشريف ((عن أم عطية نُهينا عن إتباع الجنائز ولا يعزم علينا))[3] .

يقول في الشرح:" معناه نهانا صلى الله عليه وسلم عن ذلك نَهْيَ كراهة تنزيهٍ، لا نَهْي عزيمة تحريم ".

[1] - المرجع السابق، ص: 24.

[2] - ينظر: الجملة الفعلية، مرجع سابق. ص: 25.

[3] - صحيح مسلم، مصدر سابق. ج: 7. ص: 5.

- **التحليل:**

نلاحظ في هذا النص من الحديث: أن عمل المؤلف على إطالة الجملتين الفعليتين بأحد متمّمات الجملة الفعلية عبر إعادة التركيب مرة ثانية. وهذا المتمّم هو المفعول المطلق، فيصير التركيب المفسر هكذا:

أ – **نهينا** عن إتباع الجنائز ← نص النبي صل الله عليه وسلم الأصلي.

ب – **نهي** كراهة تنزيه ← نص الإمام النووي.

- و الجملة الثانية: يصير بها التركيب مفسرا كالآتي:

ج – ولا يعزم علينا ← عزيمة تحريم

جملة النبي صلى الله عليه وسلم **جملة الإمام النووي رحمه الله المستبدلة بالإنزال لرفع الإبهام الدلالي**

إن الفعل يستطيل عن طريق المقيدات. وهي ما يسميه النحويون بالمعمولات (فضلات متمات). وهذه المقيدات تعمل على تخصيص جهات الفعل المختلفة[1].

- تعليق على الجدول:

وينتج عن ذلك ثلاثة احتمالات دلالية على حسب الاستبدال الذي يقع في جملة الحديث من خلال الحمل على المعنى انطلاقا من القاعدة الأساسية التي يعمل بها المؤلف في نظرية الأصل والظاهر الفقهية العامة، حيث يقع الإنزياح أو الخرق الذي تتعدّد به المعاني في ما يسمى بمخالفة مقتضى الظاهر.

[1] - بناء الجملة العربية، مرجع سابق، ص: 61.

وهذا التخصيص الموجه نحويا يتحول عند الإمام النووي إلى حكم خاص قيد العموم الذي يوجد قبل ذلك في النهي النبوي، والذي يُتوهم منه الإطلاق لمن لا يعرف مقتضيات النص وقرائنه حيث يفهم من قوله صل الله عليه وسلم ولا يعزم علينا عموم النهي وبإضافة كلمة عزيمة تم التخصيص .

ولم يلجأ الإمام النووي في ذلك إلى تكرار فعلٍ، لفظا أو معنىً، للتوكيد كما لو قال: نُهِينا عن إتّباع الجنائز لننتهي عنها كراهةَ تنزيهٍ، أو قوله: نُهينا عن إتباع الجنائز لنرتدع عنها كراهةَ تنزيهٍ، بل استخدم المصدر المضاف للدلالة على بيان نوع الكراهة

نهينا عن إتباع الجنائز نهي كراهة تنزيه

ولا يعزم علينا: عزيمة تحريم وهكذا تم بيان النوع.

وببيان النوع استبان الحكم الأصولي الفقهي الذي يريد الإمام النووي الوصول إليه كفائدة دلالية، وهو التخصيص للعام، أو التقييد للمطلق .

وذلك كلّه كدلالة شرعية مستخرجة من التحليل اللغوي للنص الشرعي المضمن في حديث الرسول صل الله عليه وسلم.

ولهذا، نراه يقول في خاتمته: "ومذهب أصحابنا أنه مكروهٌ ليس بحرامٍ لهذا الحديث. قال القاضي: قال جمهور العلماء لمنعهن من إتباعها وأجازه علماء المدينة وأجازه مالك وكرهه للشابة" [1].

[1] - صحيح مسلم، مصدر سابق.ج:7، ص: 5.

- نموذج تطبيقي رابع على التراكيب النحوية:

أما فيما يخص دراسته لتراكيب اللغوية ضمن النصوص الشرعية، فأنه كان يحلل التراكيب النحوية للمتون الحديثية الثابتة بالروايات الصحيحة، وذلك في موضوع واحد أو بالأحرى ضمّ مواضيعها في موضع واحد ، ليسهل له التحليل والمقارنة والاستبدال ضمن علاقات الإسناد التي يعالجها، وذلك مع مراعاة اختلاف بعض ألفاظها في الحركة الإعرابية. وهي نفس الألفاظ وصولا إلى التخريج النحوي للمعاني العامة، أو الدلالة المحورية المحتواة في نص الحديث ككل ((عن جابر: مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوداني ماشيان - هكذا في أكثر النسخ - وفي بعضها : (ماشيين) وهذا ظاهر)) [1].

إن الإمام النووي في هذا الحديث النبوي الصحيح لا يلغي رواية "يعودان ماشيان"، وقد استفاضت لفظا وخطًّا في أغلب النسخ، فصارت صحيحة إسنادا ومتنا كحديث نبوي؛ ولكنه يخرجها نحويا بإعادة التركيب إلى أصل إسناده :

- من جملة فعلية ⟵ إلى جملة اسمية
- يعودان ماشيان ⟵ يعودان وهما ماشيان

وهكذا تنتقل اللفظة من فضلة إلى عمدة؛ أي من مفعول به إلى خبر لمبتدأ محذوف مقدر 'و هما ماشيان'

1- هذه هي المرحلة الأولى من التحليل النحوي لتركيب الحديث النبوي

2- أما المرحلة الثانية، وهي التي يجمع فيها في تحليل التركيب بين المستوى المعجمي والمستوى النحوي لتوجيه الدلالة، فه يشرح لفظة 'وَضوء' معجميا فيقول:

[1] - شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي ، مج 04 ، دار الغد الجديد ، القاهرة . 2009 .

الوَضوء هنا بفتح الواو : لاحظ ضبط الحركة للحروف الأصلية، ثم يفسره بقوله " الماء الذي يُتوضأ به ثم يأتي في المرحلة الثالثة من التحليل النص النبوي الذي يتداخل فيه المستوى المعجمي مع المستوى النحوي ، فيقول " عليه الصلاة والسلام ((ثم صبّ عليّ من وَضوءه فأفقت)).

- فالدلالة المعجمية مرجعها لفظة وَضوء بفتح الواو
- والدلالة النحوية المرتبطة بها هي في لفظة 'من'، وكلاهما يشكل جارًّا ومجرورا في الإعراب النحوي.
- و لما كانت كلمة وَضوء تعني الماء المعدّ للوضوء والاستعمال، فهناك احتمالان لترجيح الدلالة باستخدام الدلالة النحوية الناتجة عن حرف الجرّ من التي تفيد التبعيض:

1- الاحتمال الدلالي الأول جملة مقدرة في التركيب النحوي يمكن توضيحها كالأتي :

ثم صبّ عليّ من [الماء الباقي] من وَضوءه [في الإناء] تكون لفظة وَضوءه منصوبة الواو بمعنى الماء الذي يُتوضأ به، حتى تتفق مع السياق المقدر في التركيب.

2- إن مجرد تغيير الحرف الأول من لفظة وَضوء لتصبح وُضوءًا بضم الواو يرجح المعنى الدلالي الثاني وهو محتوى التبعيض في 'مِن' دون تقدير المحذوف من جملة الجارّ والمجرور من وضوءه، أي من الماء المستعمل في الوضوء والغسل .

المبحث الخامس: المميزات الدلالية العامة لتحليل التراكيب النحوية:

سنحاول في هذا المبحث أن نستخلص بعض المميزات التي تحلّى بها الإمام النووي أثناء معالجته للتراكيب النحوية من النصوص الشرعية واللغوية التي شرحها سواء أكانت تعلقت بالقرآن والحديث النبوي، أم كانت نصوصا لمتون فقهية من تراث المذهب الشافعي. فهو في عموم ما سبق:

1- يركز على الفائدة والمعنى، لا على المسندات في الجمل والعبارات سواء كانت مقصودة في ذاتها، أم غير مقصودة،

2- لا يهتم بتقسيمات النحاة في التفريق بين الجمل والكلام والتراكيب،

3- يستخدم في تناسق عجيب، سياقات التراكيب للوصول إلى المخزون الدلالي للّفظة المفردة سواء كانت دلالتها أصليةً محورية أم إضافيةً.

4- يستخدم الصيغ الصرفية وهيئة بناء اللفظة وتنوعها لتوجيه التركيب بما يتضح به معناه سواء كان كلاما مفيدا، أم جملة أعم وبإسناد مقصود لذاته، أم لا وهذا في التراكيب النحوية.

5- أما في التراكيب الفقهية، فانه يستخدم جلّ العلاقات القائمة بين الفظ والمعنى كما حددها الأصوليين عبر إبعادها الثلاثة: وضع للفظ للمعنى أو دلالته عليها بالعموم والخصوص أو الإطلاق والتقييد مع ربطه بحقيقة اللفظ وضعا من حيث كونه نصا أو مبهما أو خفيَّ الدلالة أو ظاهرها.

6- يُصدر الدلالة الشرعية والفقهية بالتعارف والحدود لضبط المعنى وبمعالجة أحوال السند في الرواية لضبط اللفظ إن كان صحيحا أو حسنا أو موضوعا أو يمثل زيادة في متن الحديث هي من عمل الرواة.

7- إذا اتفق علماء الطوائف والفنون على دلالة لفظية مفردة أو صياغة تركيبية معينة، ذكر الإجماع حولها كما في شرحه لعبارة "يتغنى بالقرآن". بمعنى يُحسن صوته به. قال معلقا على ذلك: ويُقصد بعلماء الطوائف : علماء الفرق الكلامية وبأصحاب الفنون اللغوية البلاغية منها.

8- أما من حيث طريقته في السرد وضبط النظم، فإنه باشتغاله على النصوص، يستخدم طريقتين :

أ- طريقة الإقحام : وهي إقحام الشرح بين كلمات المتن دون إخراجه كذيل أو حاشية لتسهيل ضبط البنية التركيبية النسقية. وهذه الطريقة أخذها العرب عن السريان في معالجتهم للتراكيب [1].

ب- طريقة التحشية أو التذييل بلا إقحام : وهي تساعد على تأطير سياق التراكيب خارجيا والإحالة على الدلالة المرجعية

9- كما نلاحظ انه يستعين لفهم التركيب أو بناء الجملة بذوق اللغة الخاص النابع من المعنى المعجمي والصيغي للكلمات ومعنى السياق الخاص والعام كما يقول الدكتور حماسة عبد اللطيف في تحليله لبناء الجملة العربية.

10- و لهذا، نراه يراعي الدلالة المعجمية والصرفية بشكل أساسيّ ابتداءً عند دراسته للتراكيب حيث:

أ- ينتقي الكلمات المفتاحية التي تحمل الدلالة المحورية الأساسية

ب- يلجأ إلى تقنيات الشكل والضبط للمنطوق الصوتي.

11- لا يلجأ إلى المعالجة التركيبية بذكر القواعد التركيبية الموجهة إلا للضرورة، وذلك عندما يكون النحو في خدمة الدلالة الأصولية المبتغاة.

12- يركز على استخراج الدلالة المحورية للنص، لا للفظ، من خلال التوجه إلى التركيب الإسنادي الأصلي، ثم المتمّمات أو الفضلات بهذا الترتيب، ثم يؤكد ذلك كله بالمعنى الاصطلاحي الذي يمثل تركيبا أصليا مقصودا لذاته. ولذا يستخدم هذه العبارة "وهذا مختصر الكلام" كما في تحليله لأحكام الجنائز والدفن في المجلد السابع والثامن من شرحه لصحيح مسلم.

[1] - ينظر: الأصول . دراسة ابيستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب . تمام حسان، الدار البيضاء. 2009، ص.ص:10-11 .

الفصـــل الرابـــع

دلالة الألفاظ المركبة (التراكيب البلاغية)

- المبحث الأول: المرجعيات الثقافية للدلالات البلاغية عند الإمام النووي.
- المبحث الثاني: التراكيب البلاغية عند الإمام النووي بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى.
- المبحث الثالث: الجهود البلاغية، إطار الاجتهاد والمادة الأوليـــة.

الفصل الرابع
دلالة الألفاظ المركبة (التراكيب البلاغية)

المبحث الأول: المرجعيات الثقافية للدلالات البلاغية عند الإمام النووي

لا يمكن أن نفهم هذه المرجعية إلا بالعودة إلى إمام سابق للإمام النووي وهو الإمام فخر الرازي صاحب التفسير الكبير الموسوعي، حيث يقول في كتابه (المحصول في أصول الفقه): " كان الناس قبل الشافعي يتكلمون في مسائل الفقه ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كليّ مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وكيفية معارضتها وترجيحها، واستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانونا كليا يُرجع إليه في معرفة مراتب أدلّة الشّرع"[1].

وهذا القانون الكلّي الذي أشار إليه الإمام فخر الرازي وفصله الإمام الشافعي في رسالته ممثلا في قواعد الفقه وأصوله، هو الذي سماه الإمّام النووي في رسالته الموجزة المركزة والمعنونة بـــ(الأصول والضوابط)، حيث جعل المسألة الأولى فيه هي مذهب أهل السنة والجماعة في القدر. والقدر هو القانون الكلّي الذي يحكم الوجود كلّه وفق مشيئة الله، حيث يقول فيه:" مذهب أهل الحق الإيمانُ بالقدر وإثباته وأن جميع الكائنات خيرها وشرّها بقضاء الله"[2].

وتنبيهه على القدر، كأصل للأصول، من أجل أن يتمثّل المجتهدون بمختلف طوائفهم، لغويين وأصوليين ومفسرين ومتكلمين، الأنساقَ العامّة للظواهر التي قدرها الله عزّ وجلّ سُننًا، والتي هو قادر سبحانه على خرقها بمشيئته الطليقة. وختَمَهُ أي كتاب الأصل والظاهر كمبحث كبير في أصول الفقه. ويبدو أنه مصدر كبير كذلك في البلاغة العربية بتراثها الأصيل، كما سنمثل لذلك بشواهد. ومن جهة أخرى، تبين أن له علاقة بالأسلوبية المعاصرة، ولسانيات النص.

---

[1] - منهج البحث عند مفكري الإسلام. على سامي النشار. بيروت، نقلا عن: علم الدلالة العربي. منقور عبد الجليل. دار الكتاب الحديث.،2008 ص103.

[2] - الأصول والضوابط .الإمام النووي، تحق: د. محمد حسن هيتو. ط:1. دار البشائر. بيروت.1991.ص:4-5

وكان قد ختم كتابه، صغير الحجم هذا، كما سبق وأن ذكرنا في الفصل الثاني المعنون بـــ(المنابع المعرفية للعالم الدلالي) بمسألة الأصل والظاهر التي تعتبر نظرية فقهية متكاملة مرتكزة على أصول الفقه، كما أنها تمثل مبحثا كبيرا في البلاغة العربية بتراثها الأصيل، بل إن لها علاقة وثيقة بأسس الأسلوبية المعاصرة ولسانيات النص.

وللاستدلال التمثيلي على ذلك، نقوم بتحليل مصطلح العدول، " فإذا كانت البلاغة ترجع في سائر تعريفات البلاغيين التي سبق ذكرها إلى حسن تخيّر اللفظ، فإنه ممّا يجدُر بنا التنبيه إليه أن هذا التخيّر، أو الاختيار، للّفظ يمثّل في غالب الأحيان أنواعا من العدول، فالاختيار في حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطي أو العادي من اللغة إلى المستوى الفني من الكلام. وقد يمثل تخيّر اللفظ نوعا من العدول عن النظام اللغوي أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليا، وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقي. وفي الحقيقة أن النظرة إلى العدول على أنه عدول عن المستوى النمطي إلى المستوى الفني لا تكاد تفرق بينه وبيت الاختيار. أما العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميزه عن الاختيار وإن كان يشترك معه في كونه انتقاء للّفظ وإيثارا له على غيره. هذا العدول هو ما كان يمثل في رأيي نوعا من العدول عن النظام أو الأصل اللغوي أو نوعا من العدول عن سياق النص"[1].

لقد أشار الإمام النووي إلى العديد من هذه المعطيات الأسلوبية البلاغية المعاصرة في آخر مسألة تناولها من كتابه (الأصول والضوابط). وهذه المسألة هي 'مخالفة مقتضى الظاهر' حيث تؤدي هذه المخالفة للأصول المعتمدة إلى حدوث المجازات والخروقات عن أصل الشيء أو أصل اللفظ.

فالأصل له دلالات كثيرة في اللغة وعلم الأصول، فهو يعني أسفل الشيء وأساسه، كما يعني ما يحتاج إليه، وما ينبني عليه غيره، ويتفرع عليه، وما يستند تحقّق الشّيء إليه. وخارج هذه

[1] - الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم. دراسة نظرية تطبيقية. عبد الحميد هنداوي. دار عباد الرحمن. القاهرة.2013. ص: 18.

التعريفات اللغوية، فإن إطلاقات الأصل المتداولة ترد بمعنى الدليل، والقاعدة، والمقيس عليه، والأمر الراجح، والأمر الغالب أو المحقّق[1].

كلّ ذلك قد "عُرف في التراث اللغوي والبلاغي بالمجاز والنقل، والانتقال، والتحريف، والانحراف، والرجوع، والالتفات، والعدول، والصرف، والانصراف، والتلون، ومخالفة مقتضى الظاهر"[2].

وعند هذا المصطلح الأخير، أي مخالفة مقتضى الظاهر الذي يدل عليه الأصل اللغوي، زيادة على المصطلح الآخر وهو المجاز الذي يعني الخروج مطلقا عن الأصل اللغوي المحقّق أو المستصحب أو المعنى الغالب أو الانحراف عن القاعدة أو الخروج عن الدليل. وليس المجاز في معناه الحصري الاصطلاحي المقابل للحقيقة في علم البيان. وهكذا نرى الإمام النووي ضمن نظرية الأصل والظاهر الفقهية، وتنبيهه على ما يخالف مقتضى الظاهر، قد استوعب مختلف المصطلحات السابق ذكرها بالتضمّن. ويضاف لها " مصطلحات شجاعة العربية، الحمل على المعنى، الترك، ونقض العادة، وغير ذلك"[3] ممّا نبّه له أبو عبدية في كتابه (مجاز القرآن) وابن المعتز في البديع وغيرهما. و"هذا العدول قد عُبّر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة كذلك منها الانحراف، والانزياح، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز، والمخالفة، واللحن، وخرق السنن"[4].

ولعل مصطلح خرق السنن في الدراسات الأسلوبية الحديثة هو أقرب المصطلحات إلى حدّ المطابقة للمصطلح التراثي الذي استخدمه الإمام النووي وهو مخالفة مقتضى الظاهر. فما هو الظاهر عند الأصوليين؟ وما هي أنواعه ومقوماته وخصائصه؟

---

[1] - ينظر في التعريفات التفصيلية لهذه المصطلحات المتعلقة بالأصل: نظرية الأصل والظاهر في الفقه الإسلامي. محمد سماعي الجزائري. دار ابن حزم. بيروت. ط/1. 2005. ص: 17- 24

[2] - الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم. دراسة نظرية تطبيقية. عبد الحميد هنداوي. دار عباد الرحمن. القاهرة. 2013.ص:18.

[3] - المرجع نفسه. عبد الحميد هنداوي. دار عباد الرحمن. القاهرة. 2013.ص:18.

[4] - المرجع نفسه. عبد الحميد هنداوي. دار عباد الرحمن. القاهرة. 2013. ص:18.

للإجابة عن هذه الأسئلة، نبدأ بما يلي :فالظاهر لغةً يأتي بمعنى البارز والواضح والمنكشف، كما يأتي لمعنى الإطلاع والغلبة والعلوّ. كما يأتي بمعنى الأصل. ومن مقوماته الثبوت بأمارة يستند إليها، وكذلك أرجحية الوقوع، وكذلك شهادة العادة له. أما بالنسبة لأنواعه، فهي متضمّنة في ثلاثة فروع رئيسية وهي: الأول وهو الظاهر المستند إلى الشرع وله نوعان: الشهادات وأخبار الثقات، والثاني وهو: الظاهر المستند إلى العادة والعرف، والثالث وهو: الظاهر المستند إلى قرائن الأحوال. والقرائن المعتبرة ثلاث وهي: القرينة القاطعة والقرينة الأغلبية والقرينة الاحتمالية[1].

المبحث الثاني: التراكيب البلاغية عند الإمام النووي بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى

وفيما يتعلق بالصراع التاريخي بين أنصار وأنصار المعنى، فإن هناك قرائن كثيرة من عناوين كتبه ونصوص بعضها ترجح أنه كان من أنصار مدرسة تفضيل المعنى عل اللفظ. والدوافع الثقافية العقدية التي ترجح انتماءه إلى هذه المدرسة البلاغية هي انتماؤه الصريح إلى مدرسة أهل السنة والجماعة ممثلا في مدرسته الوسطية، وهي مدرسة الأشاعرة التي كان متأثر بأصولها في قضايا التوحيد والاعتقاد. ذلك أن الأشاعرة "رأوا المزيّة في المعنى بسبب اعتقادهم أن الكلام عبارة عن معنى قائم في ذات الله"[2] بخلاف تيار المعتزلة والشيعة الذيين "رأوا المزية في اللفظ بسبب اعتقادهم أن الكلام هو تلك الألفاظ والأصوات"[3].

وعناوين كتبه، ككتاب (تحرير ألفاظ التنبيه) مثلا، يدلّ على تعلّقه بالمعاني التي أسالتها الألفاظ فصارت مبهمة مُشكَلة، فهي في حاجة إلى تحرير، وكذلك كنابه (دقائق المنهاج) وكتابه(تهذيب الأسماء واللغات). فالمعاني في حاجة إلى تهذيب وإلى بيان داخل التراكيب والألفاظ كما صرح بذلك في عنوان كتابه (الإشارات إلى معاني الأسماء المبهمات).

---

[1]- ينظر: شرح هذه المصطلحات بالتفصيل في مبحث 'مقومات الظاهر وأنواعه وخصائصه' في: نظرية الأصل والظاهر في لفقه الإسلامي. محمد سماعي الجزائري. دار ابن حزم. بيروت.2005. ص.ص:60-80 .

[2] - الظاهرة الدلالية عند علماء العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري. صلاح الدين رزال. منشورات الاختلاف. 2008. الجزائر. ص:65.

[3] - الظاهرة الدلالية عند علماء العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري. صلاح الدين رزال. المرجع نفسه. ص:65.

ولّما كان الإمام النووي على مذهب الأشاعرة في الاعتقاد، فقد سار على منوال علماء أصولهم في دراسة دلالات الألفاظ والتراكيب من الوجهة الدلالية والبلاغية. فأصوليّو الأشاعرة يقولون: " إن الذات إذا لم تتصل بالمصدر فلا يجوز الاشتقاق لها منه، فلا يصح اشتقاق الضارب لمن لم يقم منه ضربٌ أصلا، والإشتقاق الأسود لمن لم يقم منه سوادٌ خلافا للمعتزلة القائلين بجواز ذلك مع عدم اتصاف الذات بالمصدر، حيث زعموا أنه تعالى قادر بذاته لا بقدرة قامت بذاته، عالم بذاته، لا بعلم قام بذاته. وهكذا في كلّ صفات المعاني فرارا منهم من تعدّد القديم"[1]

ففي كتابه (دقائق المنهاج) نرى الإمام النووي قد اشتقّ للذات الإلهية بما هو من حكم اتصافها بالمصدر. والنموذج الشاهد الذي ساقه للفظة الذكر المعروفة وهي "سبحانك"، حيث فسرها في ورودها في سياق مقدمة كتاب التحرير لشيخه الرافعي، فقال عنها أنها : " سبحانك: منصوب على أنه اسم واقع موقع مصدر، أي سبّحتُ الله سبحانًا، أي نزهته عن النقائص مطلقاً"[2].

فلمّا كانت الذات الإلهية متصفة بدلالة المصدر؛ وهي نزاهتها عن جميع النقائص مطلقا، لذا قام الإمام النووي بتفصيل اشتقاقاتها مع ذكر دلالتها اللغوية 'ن ز ه' ودلالتها العقدية، وهي نفي الشرك عن الذات والصفات والأفعال، أي تحقيق التوحيد الخالص. وفي شاهد آخر من كنابه السالف الذكر نراه يوجّه الألفاظ في التركيب بما يدلّ عليه السياق التاريخي كسياق مقام وحال، يقول: " قوله في المنهاج الحمد لله البَرُّ، قيل هو خالق البِرِّ فيلجأ إلى ما يُعرف الآن في النظريات الأسلوبية الحديثة بالاستبدال والتوزيع، بحيث يولّد تركيبا من تركيب سابق قبله"[3] .

أ-فجملة التركيب في المنهاج هي "الحمد لله البَرّ" فالبَرُّ هنا صفة متعلقة بذات الله. وهي واقعة موقع خبر للمبتدأ،

---

[1] - أثر الفكر المذهبي في علم الدلالة العربي. بلحسين محمد. مجلة الباحث. كلية اللغات والآداب. جامعة ابن خلدون. تيارت . ع:9.مارس2014. ص: 58 نقلا عن الشنقيطي في(نثر الورود في مراقي السعود). تحق: هيثم طعني. المكتبة العصرية. بيروت. 2004 . ص:77. .

[2] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. تحق: إياد أحمد الغوج. دار ابن حزم.بيروت/ المكتبة المكية. مكة المكرة 1996. ص: 25. .

[3] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. تحق: إياد أحمد الغوج. مصدر سابق. ص:26.

ب- بينما الجملة التي يولدها هي "قيل هو خالق البِرِّ"، حيث كلمة البِرّ بالكسر مصدر مضاف إليه واقع في جملة فعلية كمسند إليه.

واستخدامه لصيغة التضعيف 'قيل' حتى لا ينسب إلى نفسه شيئا في ما يتولّد عن هذه التراكيب من خلافات عقدية قد تؤدي إلى الشرك فحل المصدر في الشرح قصرا لصفة الخلق المتعلقة بالذات العليّة المترهة عن النقائص جميعها كما مرّ معنا. ولكن لم يأتِ باشتقاقه، فلم يقلْ مثلا: البِرُّ من بَرَّ يَبِرُّ بَرًّا، والتعليل لذلك كما مرّ معناها أن الذات لم تتصّف بالمصدر.

ونلاحظ هنا، أن السياق الاجتماعي والثقافي قد تدخل بقوة في توجيه الألفاظ والتراكيب وجهة معيّنة وهي التنزيه عبر التفويض للمعنى. وفي ذلك يقول في مقدمة (المجموع) :" اختلفوا في آيات الصفات وأخبارها هي يُخاضُ فيها بالتأويل أم لا؟، فقال قائل تُتأَوّلُ على ما يليق بها. وهذا أشهر المذهبين للمتكلمين. وقال آخرون لا تُتأوَّلُ، بل يُمسك عن الكلام في معناه، ويوكل علمها إلى الله تعالى، ويُعتقد مع ذلك تنزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحادث عنه"[1].

فالبِرُّ في الشاهد السابق أثر لفعل الله بالخلق، وليس صفة متعلقة بعين الذات الإلهية، ولهذا فسرها بقوله:" قيل هو خالق البِرّ"، ثم يلجأ إلى تأويل معناها فيقول:" وقيل هو الصّادق في ما وعد أولياءه"[2].

وإن الإمام النووي في الأنموذجين السابقين لا يعلّل اختياره المعجميّ للألفاظ المنتقاة، ولا يعلّل توجيهه البلاغي لها من ظاهرها إلى تأويلها، إي من الحقيقة إلى المجاز تطبيقا لنظرية الأصل والظاهر التي توجه عقليته في العمق، فإنه في هذا النموذج الثالث يعلّل اختياره المعجمي وتوجّهه البلاغي بما يوافق الحجّة الكلامية للأشاعرة.

[1]- شرح مقدمة المجموع للإمام النووي. محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي . القاهرة.2004. ص:68.

[2] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 26.

ففي معجم (الأسماء واللغات)، وفي الجزء الخاص بالأسماء، يعنون بابا هو باب إلياس وامرؤ القيس وأميّة فيقول في مادة "امرؤ القيس": "الشاعر المشهور مذكور في المختصر في التعريض بالخطبة"[1]. وفي هذه الفقرة يصنع الإمام النووي سياقا جديدا لاسم الشاعر امرئ القيس هو السياق الثقافي الفقهي في كتاب (المختصر) بمقام حاله وهو التعريض بالخطبة متجاوزا السياق الأصلي لشعره كما يحيل المعنى الدلالي في معلّقته المشهورة، إلى معنى آخر هو معنى التعريض بالخطبة، في بيت المعلقة الشهير وهو: أفاطم مهلا بعد هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي[2].

وبعد أن يترجم لهذا الشاعر ذاكرا أجداده كعلم يقف عند خاله المهلهل بن ربيعة، يقول: " قال محمد بن سلام[في "طبقات الشعراء"]: كان امرؤ القيس بن حجر الكندي، بعد مهلهل، ومهلهل خاله، وطرفة وعَبيد، بفتح العين، بين الأبرص، وعمر بن قَمِئَة، بفتح القاف وكسر الميم، وبعدها همزة، والمتلمّس، كلّهم في عصر واحد"[3]. ففي هذا النص أطّر السياق التاريخي لهذا العلَم وهو سياق العصر الجاهلي، ثمّ يقول: " وكان أوّل من قصّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل واسمه عُدي"[4].

وفي هذه الفقرة يرسم سياقه الأدبي واللغوي ثمّ يأتي إلى اشتقاق اسم المهلهل فيقول: " وإنما قيل له المهلهِل لهلهلة شعره. وهو اضطرابه واختلافه"[5]. فهنا، نرى أنه أتى بالمصدر مجيزا الاشتقاق للفظة المهلهِل منه، فنصّ على هذا المصدر، وهو الهلهلة، لأنه صفة اتصفت بها الذات على سبيل الدوام، بعكس كلمة البَرّ في النموذج السابق. وكذلك كلمة اسم الفاعل" المانُّ باللطف والإرشاد، أي المُنعِم بهما منًّا منه لا وجوبا عليه"[6]، في تأوّل المانّ بالمنعِم باعتبار الإنعامِ منًّا منه لا وجوبا

[1] - تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1.المطلعة المنيرية. القاهرة. د.ت. ص: 126.

[2]-أنظر شرح معلقة إمرئ القيس للزوزني، دارصادر بيروت لبنان.

[3]- تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1.المطلعة المنيرية. القاهرة. د.ت. ص: 126. -

[4] - تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. مادة امرؤ القيس . رق: 67.ج:1.المطلعة المنيرية. القاهرة. د.ت. ص: 126.

[5]معجم تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1.المطلعة المنيرية. القاهرة. د.ت. ص: 126. -

[6]- دقائق المنهاج. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 26.

عليه فيه، فيجعله من الصفات غير المتعلقة بالذات وجوبا، فلا يشتقُّ لها. وينقلها من الحقيقة إلى المجاز بقوله: " واللطف بمعنى التوفيق خلافا للمعتزلة"[1].

وبالعودة إلى لفظة المهلهِل السابق ذكرها، يشير في خاتمة تحليله إلى أحد فحول الشعراء طبقات عصره، وهو عمرو بن قمئة، فيقول: " عمرو بن قمئة معلّم امرئ القيس ضمّه أبوه إليه ليحسن أدبه، وخرج معه إلى بلاد الروم"[2] وكأنه يشير من طرف خفيّ عبر الدلالات الهامشية لكلمة 'بلاد الروم' إلى موطنه حوران التي خلدها امرؤ القيس في بيته السابق الذّكر، والذي أشار إليه في القصيدة نفسها بكلمة 'صاحبي' في البيتين المشهورين حين قال:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ooo ooo وأَيْقَــنَ أَنَّــا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَــهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُــكَ إِنَّمَــا ooo ooo نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[3]

وفي قراءة أخرى لا تُبكي عينَك من المباحث اللفظية التي اشترك فيها الأصوليون مع المفسرين، والتي كانت ميدانا لمعارك طاحنة بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى ضمن الصراع الطائفي بين الفرق الكلامية الذي اشتد أواره في القرن السابع الهجري، قرن النووي، الجدل القائم حول دلالة المحكم والمتشابه من الألفاظ المفردة والتراكيب. وفي ضبط دلالة هذين المصطلحين يقول الإمام النووي: "قد اختلف المفسرون والأصوليون وغيرهم في المحكم والمتشابه اختلافا كثيرا، قال الغزالي في المستصفى: إذا لم يرد توقيف في تفسيره، فينبغي أن يُفسَّر بما يعرفه أهل اللغة، وتناسب اللفظ من حيث الوضع"[4]، ثمّ يورد الأقوال البعيدة عن المعنى الحقيقي للمحكم والمتشابه باستخدام كلمة 'زعم' فيقول:" فزعمهم أن المتشابه الحروف المقطّعةُ والمحكَمُ ما سواه، أو أن المتشابَه ما انفرد الله بعلمه، والمحكم ما عرفه الراسخون في العلم إلى غير ذلك من الأقوال"[5]. ويخلص بعد

---

[1] - دقائق المنهاج. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 26.

[2] - تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1.المطلعة المنيرية. القاهرة. د.ت. ص: 126.

[3] - ديوان امرئ القيس. امرؤ القيس. رواية الأصمعي من نسخة الأعلم. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. 1984.ص:65.

[4] - شرح صحيح مسلم. الإمام النووي .ج:15. دار الغد الجديد. القاهرة.2008.ص: 189.

[5]- شرح صحيح مسلم. الإمام النووي .مصدر نفسه.ص: 189 .

ذلك إلى الترجيح في كيفية ضبط دلالة المحكم والمتشابه فيقول مُتابعا لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي في ترجيحه: " بل الصحيح أن المُحكم يرجع إلى معنيين أحدهما أنه المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال والمتشابه ما يتعارض فيه الاحتمال، والثاني ما انتظم ترتيبه مفيدا، إمّا ظاهرا وإما بتأويل، وأما المتشابَه، فالأسماء المشتركة كالقُرء وكالذي بيده عقدة النكاح، وكالمسّ، فالأول: متردّد بين الحيض والطهر، والثاني بين الولي والزوج، والثالث بين الوطء واللمس باليد"[1].

إن الإمام النووي يرى أن دلالات الخطاب القرآني، وما انبثق عنها من حديث نبوي، تناسب في جميع حالات تفسيرها مدارك البشر من الأميّ إلى العالِم وفق قاعدة لكلّ مقام مقال وقاعدة مراعاة مقتضى الحال في البلاغة. ويقول في ذلك: " اختُلِف في الراسخين في العلم هل يعلمون تأويل المتشابه، وتكون الواو في 'و الرّاسخون' عاطفة أو لا؟[...] والأصح الأولُ، وأنّ الراسخين يعلمونه لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته. وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنهه يستحيل أن يتكلّم الله تعالى بما لا يفيد"[2].

و الآية الكريمة التي استشهد بها مطلعها قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ..** ﴾{آل عمران/7} إلى قوله تعالى في الآية نفسها ﴿**وَ الرّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبّنَا ومَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبَاب**﴾{آل عمران/7}.

ففي تعليقه على آيات الصفات هذه، يرجع الإمام النووي إلى مبادئ نظرية النظم الجرجانية في ما يسمى بتعلّق الكلم بعضه ببعض في الجمل والتراكيب عبر حروف العطف والجرّ وغيرها، بحيث يلغي القراءة القرآنية الأخرى التي تقول بالوقف على اسم الجلالة المستثنى، ولا يرجّحها لاستخراج المعنى بالوقوف على لفظ الجلالة 'الله'، حيث اكتملت جملة الاستثناء المنفي في قوله

[1] - شرح صحيح مسلم. الإمام النووي .مصدر سابق. ص: 189 .

[2]- شرح صحيح مسلم. الإمام النووي .مصدر نفسه. ص: 190 .

تعالى ﴿ **ومَا يَعْلَمُ تَاوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ**﴾{آل عمران/7}،و صارت الواو غير عاطفة، بل استئنافية، وتكون دلالتها أن الراسخين لا يعلمون تأويله.

إن قراءة الوقف تختلف دلالتها عن قراءة الوصل. وهو باب في علم المعاني يسمى باب الفصل والوصل في تراكيب الإسناد. وقد لجأ إليه الإمام النووي هنا لتوجيه المعنى في السياق وترجيحه بعد ذلك.

ويقدم الإمام النووي توجيها عاما ونصيحة ثمينة، إذا وقع الخلاف بين أهل اللغو وأهل الفقه حول معاني القرآن عند نظرهم في دلالاته. فهو يرى أن الخلاف محمود تُرجى له ثمرة نافعة ما لم يكن "على اختلاف لا يجوز، أو اختلاف يوقِعُ في ما لا يجوز كاختلاف في نفس القرآن[1]، أو في معنى لا يصوغ فيه الاجتهاد، أو اختلاف يوقع في شكّ أو شبهة، أو فتنة وخصومة، أو شجار ونحو ذلك"[2].

ومحلّ الشاهد في الاختلاف المحمود حول معاني القرآن الكريم قوله: " وأما الاختلاف في استنباط فروع الدين منه ومناظرة أهل العلم بذلك على سبيل الفائدة وإظهار الحق واختلافهم في ذلك، فليس منهيا عنه، بل هو مأمور به وفضيلة ظاهرة"[3].

وأصل اللغة عنده أنها وقف من الله تعالى في أسمائه الكليّة التي هي أصول الاشتقاق في كلام البشر. ويستشهد في ذلك بقوله تعالى ﴿**وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا..** ﴾{البقرة/31}. وهو في هذا كغيره من الكثيرين من العلماء قبله الذين يقولون بالوقف بدل الاصطلاح والتواضع بين البشر على أصل اللغة، إلاّ أن هذا الوقف من الله ابتداءً لا ينفي في نظره نمو اللغة باجتهادات أهلها عبر التوليد والاشتقاق والوضع بتغيّر البيئات والأزمان. وهو يجاري في ذلك حجة الإسلام أبا حامد الغزالي كما ورد نصه من كتابه (المستصفى) الذي نقل الإمام النووي عنه، قوله فيه: " إذا لم يرد توقيف في تفسيره، فينبغي أن يُفسّر في ما يعرفه أهل اللغة، وتناسب اللفظ من حيث الوضع"[4].

---

[1]- يقصد فتنة خلق القرآن التي وقع حولها الخلاف في عهد الخليفة العباسي المأمون .

[2] - شرح صحيح مسلم. الأمام النووي. ج:8. مصدر سابق. ص:190.

[3]- شرح صحيح مسلم. الأمام النووي. ج:8. المصدر نفسه. ص:190.

[4]شرح صحيح مسلم. الأمام النووي. ج:15. المصدر نفسه. ص:189.

- المبحث الثالث: الجهود البلاغية، إطار الاجتهاد والمادة الأولية:

نظرا لأن الإمام النووي ، كان محدثا بارعا في علوم السنة النبوية بالدرجة الأولي ثم فقيها حُجة، بدرجة الثانية حتى أنه صار رأسا في المذهب الشافعي شرحا وتدريسا وإفتاء وتأليفا وأخيرا لغويا بالدرجة الثالثة فإن معظم جهوده اللغوية كانت ذات طابع معجمي وأصولي بالدرجة الأولى، ثم نحوي وأخيرا بلاغي، حيث تمتزج الدلالات اللغوية عنده بالتفسير. وخاصة في معالجته لآيات الأحكام وأحاديث الأحكام في كتابيه المعتمدين: (شرح صحيح مسلم) و(المجموع شرح المهذب للشيرازي).

ومن ثمة، فإننا لا نستطيع أن نلقي نظرة مجملة حول معالجته للدلالات في التراكيب البلاغية قبل أن نلخص رؤيته في علم التفسير والمفسرين، وقبل أن نضبط رؤيته لعلم التفسير وأصوله وضوابطه وتصنيفاته لمذاهبه باعتبار أن هذا الأخير كان العلم الأول من علوم الإسلام ظهورا لارتباطه بالوحي القرآني، ولكونه يمثّل المصدر الأساسي الأول الذي ازدهرت فيه علوم اللغة ونبعت منه علوم البلاغة انطلاقا من قضية الإعجاز بوصفها إشكالية أساسية.

فهو في هذا يصنفهم إلى ثلاثة أصناف:

- الصنف الأول: مفسرون بالرأي من غير دليل صحيح، أي اعتمادا على التأويل العقلي البحت وليّ أعناق النصوص من أجل المحاججة والغلبة في الجدال من أهل الفرق الكلامية. وهؤلاء لا يعتمد على كتبهم ولا على آلياتهم العقلية.

وهذا ما عكسه الشافعي في رسالته في باب 'كيف البيان؟'. فمن هذا السؤال المنهجي المعرفي تنبثق الدلالات البلاغية عند الإمام النووي استمدادا من شيخه الشافعي لخدمة الدلالات الأصولية والفقهية .

وقد تطرق الشافعي في رسالته إلى الإرادة الشرعية كتوطئة للإرادة الكونية. وقد فصل فيها القول فيما يقارب الصفحتين مشيرا إلى الإرادة الأولى في قوله تعالى من سورة البقرة ﴿**وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وإِنَّ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، ومَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونْ**﴾ { البقرة/ 44} .

كما أشار إلى الإرادة الثانية، أي الكونية في الرسالة بقوله" فلما بلغ الكتاب أجله فحقّ قضاء الله لإظهار دينه الذي اصطفى بعد استعلاء معصيته التي لم يرض: فتح أبواب سماواته برحمته، كما لم يزل يجري- في سابق علمه عند نزول قضائه في القرون الخالية- قضاؤه "[1] . وكان قد استشهد قبل ذلك لتحقيق هذه المعاني بقوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى**﴾ {القيامة/36}.

وقد ربط الشافعي في هذه الآية بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فجعل الثانية متعلقة بالأولى. ومن أجل وضع هذا القانون الكلي للخلق لمعرفة أدلة مراتب الشّرع من خلال التولية أو الولاء والتوجه إلى المسجد الحرام كرمز لمهبط الوحي كتابا وسنة حيث يتأطر ميدان مصادر التشريع والاجتهاد.

وقد طبّق الإمام الشافعي هذه الرؤيا الكونية الدلالية فعلا لا قولا، لهذا يذكرنا في سيرته أنه أطال الإقامة قصدا في مكة بعد أن أقام في اليمن وفي نجران وفي بغداد عاصمة الخلافة مدة معتبرة، وكذلك في مصر ولكنها ليست طويلة كمكة.

- الصنف الثاني: المفسرون بالرأي مع دليل صحيح. وهؤلاء كذلك يغلب الرأي على تفاسيرهم وإن دعموها بأدلة أثرية من سنة رسول الله أو أقوال الصحابة دون تمحيص للسماع والرواية. وقد يخالف في ذلك الإجماع، وإن كانت لهم براعة في الجانب اللغوي كالزمخشري في (الكشاف) وغيره.

[1] - الرسالة. الإمام الشافعي. تح: الشيخ أحمد محمد شاكر.ط:2. الدار العالمية للنشر والتوزيع. القاهرة.2016.ص:118.

وفي ذلك يقول الفخر الرازي في ما أورده عنه صاحب (طبقات الشافعية): " واعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطاطليس إلى علم المنطق، وكمسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض، وذلك لأن الناس كانوا قيل أرسطاطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، ولكن ما كان عندهم قانون خاص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين[..] فكذلك ها هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كليّ مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وكيفية معارضتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي رحمه الله علم أصول الفقه، ووضع قانونا كليا يُرجع إليه في معرفة مراتب أدلّة الشرّع، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسطاطاليس إلى علم العقل"[1].

و لمعرفة لغة كلّ قوم واصطلاحهم لابدّ من ضبط ذلك بعلم الأصول من جهة، وعلم البلاغة من جهة أخرى، واستعراض الأساليب البيانية، سواءً أكانت خبرا أم إنشاء، ومعرفة أغراضها كالأمر والنهي والالتماس وغير ذلك مع ربط ذلك بالدلالات المحورية والهامشية للفظ المدروس "للتعرف على التطور الدلالي للفظ ، حتى يتمكن (المجتهد سواء أكان أصوليا، أم مفسرا للنص القرآني أو السنة النبوية)، من تحديد المعنى المقصود من وراء الأساليب التي يتعرض لها (معالجة)؛ فتحديد المعني يتوقف عليه معرفة الحكم وتحديده"[2].

الصنف الثالث: وهم المفسرون بالأثر والنقل كالطبري والبغَوي وابن كثير حيث يعتمدون على تفسير القرآن بالقرآن، ثم ممّا صحّ من السنة، وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب المعتمدة.

ويعتمد النووي على هؤلاء كثيرا باعتباره محدثا وفقيها. وهذان العِلمان يحتاجان إلى الدقة العلمية والعبارات المركزة التي ربما ذهب معها الجانب الأسلوبي الفني في الكتابة العلمية ؛ إلا أن

[1] - التصور اللغوي عند علماء الأصول. سيد أحمد عبد الغفار. دار المعرفة الجامعية. القاهرة.2011.ص:26. نقلا عن: طبقات الشافعية. تاج الدين الشبكي. مج: 1. المطاعة الحسينية المصرية. القاهرة.ص:26.

[2] - التفكير اللغوي عند الأصوليين ، السيد أحمد عبد الغفار ، دار المعرفة والعلم ، القاهرة. ، ص: 19.

الإمام النووي رحمه الله لم يقع في التعقيدات الاصطلاحية لتمَكّنه في اللغة العربية وبيانها، حيث شهد له بذلك إمام العربية في عصره وهو الإمام محمد ابن مالك الأندلسي صاحب (الألفية)، حيث قال عن كتابه (منهاج الطالبين) في الفقه - الذي طبق ذكره في الأفاق في القرن السابع الهجري حفظا ومدارسة وتداولا ونسخا حيث أثنى على حسن اختصاره وعذوبة ألفاظه-: "والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت لحفظته "[1] .

وقال العلامة الإمام شمس الدين ابن أحمد الرملي في مقدمة كتابه (النهاية في شرح المنهاج): " وأجلّ مصنّف له – أي الإمام النووي- ، تُسْكب على تحصيله العبرات ، كتاب المنهاج من لم تسمح بمثله القرائح و لم تطمح إلى النسج على منواله المطامح ، بهر به الألباب، وأتى فيه بالعجب العجاب، وأبرز مخبئات المسائل، وبيض الوجه بالكلمات الأصائل"[2].

كما يتميز بأنه كان يجعل اجتهاداته اللغوية في خدمة كتبه الفقهية والحديثية بحكم التخصص كما فعل في كتبه (المهذب) و(التنبيه) و(الوسيط) و(الوجيز) و(الروضة) عبر المعالجات التالية:

أ- شرح الألفاظ الغريبة ذات الصلة بالاصطلاح الفقهي،

ب- شرح الدلالة اللغوية للأعلام الواردة في كتب الفقه والحديث والسيرة،

ت- شرح الألفاظ المعجمة والمعربة،

ث- بيان ما ينكر وما لا ينكر من الفصيح وغيره كالغريب والشاذّ،

ج- توضيح المقصور والممدود جوازا ومنعا،

ح- بيان المترادف والمشترك في الدلالة والجنس والعدد والبناء الصرفي في ما يخص الأسماء والأفعال،

خ- بيان الحقيقة والمجاز،

---

[1]. - المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي. الحافظ السخاوي. دار الهدى. عين مليلة. 1999. ص:32.

[2] - ترجمة الإمام السخاوي لحياة الإمام النووي. المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي. الحافظ السخاوي. دار الهدى. عين مليلة. 1999 . ، ص16 .

د- بيان الجانب الصوتي في هجاء الألفاظ [1].

كما اهتم الإمام النووي بدلالة التراكيب البلاغية سواءً أكانت كلاما تام المعنى، أي جملا مستقلة بسيطة التركيب أو معقدة، أم كانت تراكيب تمثّل جملا متصلة كالفقرات والنصوص. وكان اهتمامه ذاك ينطلق من:

1- نصوص الوحي المقدسة كالقرآن الكريم والسنة النبوية،

2- ثم يتعداها إلى التراكيب العامة خارج دائرة الوحي.

وهذه التراكيب تنقسم إلى قسمين:

أ- تراكيب سردية بالتعبير الأسلوبي المعاصر تمثل سيرةً ذاتيةً للأعلام الواردة في معجم تهذيب الأسماء واللغات قد تتجاوز الصفحات الطوال كما في سرده لسيرة المصطفى صلي الله عليه وسلم أو سيرة شيخه وإمامه ومرجعه الفقهي والدلالي وهو الإمام الشافعي رضي الله عنه، أو وصفًا لأماكن جغرافية مقدسة وغير مقدسة كمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق وغيرها.

وقد أورد هذه التراكيب النصية اللغوية العامة في معجمه الكبير (تهذيب الأسماء واللغات) وكان يميل فيها، باعتباره محدثا، إلى الإسناد اعتمادا على رواية الثقات من المحدّثين أكثر من التصوير الفني الإبداعي للمواقف والأحداث.

كما أنه دمج فيها بين مستويين هما: المستوى المعجمي الإفرادي على الترتيب الألف بائي، والمستوي التأليفي التركيبي فيما يخص النصوص، وكان ذلك في إطار

ب- نصوص فقهية خارج دائرة الكتاب والسنة، وهي نصوص له أو لغيره من العلماء. وهذه عالجها و لم ينتجها باعتبارها ممثلة لشروح وحواشٍ ومتون مرتبطة بمصادر

[1] - الإمام النووي و أثره في الحديث و علومه للحداد. رسالة ماجستير. عبد العزيز قاسم الحداد. جامعة أم القرى. كلية الدعوة و أصول الدين. إشراف: عبد العزيز بن عبد الله الحميدي1409 ه- 1989. ص:219 وما بعدها.

التشريع كما فعل في كتابه (المجموع) الذي شرح به كتاب (المهذب) للشيرازي. وهو كتاب في الفقه الشافعي، وكذلك كما في شرحه ل(مقدمة ابن الصلاح في علم الحديث) من خلال تقريب معانيها في كتابه الذي سماه (التقريب والإيضاح، شرح مقدمة بن الصلاح). وقد أكثر في كتاب (المجموع)- الذي هو موسوعة الفقه المقارن- من استخدام آليات أصول الفقه والتراكيب النحوية وقواعد الإعراب التي يحتاجها أثناء الترجيح بين الفتاوى داخل المذهب، أو للمقارنة بين الأحكام في مختلف المذاهب التي استعرضها في هذا الكتاب مؤصّلا ذلك بالقرآن الكريم والحديث النبوي .

أما التراكيب التي أنشآها كتابةً وتأليفًا، والتي يظهر فيها أسلوبه بشكل واضح، فنجد لها أمثلة في سرده القصصي في قسم الأعلام من كتابه (تهذيب الأسماء واللغات) حيث كان يوازن فيها بين الأسلوب الأدبي البلاغي والأسلوب العلمي الاصطلاحي عند توثيق الرواية أو توضيح حكم متعلق بأحكام فقهية .

ت- و هناك نصوص أنتجها كصيغ تعبيرية لحوصلة للفقه الشافعي عبر أسلوب الاختصار والتلخيص الذي ساد في عصره كما في كتابه (الروضة) الذي يتميز بأسلوبه العلمي الاصطلاحي حيث يمثل حقلا دلاليا اختصاصيا لشريحة متميزة في المجتمع الإسلامي هي شريحة الفقهاء والمجتهدين بتعابيرهم الاصطلاحية المركزة. ونستطيع أن نقول إنه قد ارتفع في هذه الكتب إلى مستوى خاصّة الخاصّة، بينما كان يكتب لمستوى العامة في (معجم تهذيب الأسماء واللغات) وكذلك في كتابه (بستان العارفين) في الرقائق والتصوف، وفي تعليقاته على أحاديث الذكر النبوي في كتابه (الأذكار)، ولكنه، في ذلك كله، كان ينطلق من الرواية والإسناد.

ولو عُدنا إلى هذا الميدان الفسيح لتتبع نكته البلاغية في معالجته للتراكيب والألفاظ، فإننا نجده يعتمد على ركنيْن أساسيّن ضابطين لرؤيته الكلية للنصوص. وهذان الركنان القائمان هما 'الإيجاز

والمجاز'. فقد عاشت العربية في قلب الصحراء كما عاش الإمام النووي في نفس البيئة المحاذية لجزيرة العرب في تخوم الشام. وكان ممّا تمتاز به هذه اللغة " الإيجازُ في أبين صوره، وأوضح مظاهره، وأجلى قسماته، ولكنه إيجاز ينمّي في قارئ النص ملكة التأمل في المعنى، واستقصاء جزئياته والاستشراف إلى ما وراء هذه الجزئيات من معاني"[1].

وهذا ما ذكره في مقدمته لكتاب (صحيح مسلم) حيث يقول راسما الإطار النظري لتحليله للتراكيب:

" وأما صحيح مسلم – رحمه الله- فقد استخرت الله تعالى الكريم، الرؤوف الرحيم، في جمع كتاب في شرحٍ متوسط بين المختصرات والمبسوطات، لا من المختصرات المخلات، ولا من المطولات المملات"[2].

ثم يشير نصا في نفس الصفحة إلى أنه يعني بالتوسط الإيجاز فيقول: " فأذكر فيه إن شاء الله جملا من علومه الزاهرات، من أحكام الأصول والفروع والآداب والإشارات الزاهيات، وبيان نفائس من أصول القواعد الشرعية وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية (أي المعجم والنحو والبلاغة)، وأسماء الرجال وضبط المُشكَلات [..] وأحرص في جميع ذلك على الإيجاز وإيضاح العبارات"[3].

ولكن الإشكالية المطروحة في هذا الفصل هي كيف انبثق المجاز عنده من الإيجاز؟ فهل كان يتناوله كما تناوله من كان قبله مثل ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) مثلا، أو كما تناوله أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) بمعناه الواسع الذي يقابل معنى الانزياح عند المُحْدَثِين.

لو عدنا إلى رسالة الشافعي، والتي تمثل المرجع الإبستيمولوجي لعقليته الشرعية، نجد في جزئها الأول أن الشافعي يصوّر البيان على أنه لفظ عام جامع للأصول ومُحصّلٌ للفروعِ بحيث أن لها أبعادا تتعلق بالتأمل في الكون ودراسة معطياته، كما أن لها أبعادا تتعلق بقضاء الله وقدره تكوينا

[1] - المدخل إلى دراسة البلاغة العربية. السيد أحمد خليل ، دار النهضة العربية بيروت. 1968، ص:34.

[2] -صحيح مسلم. بشرح النووي،. دار الغد الجديد، 2008، ص 27. -

[3] - صحيح مسلم: بشرح النووي. دار الغد الجديد، القاهرة.2008، ص 27.

وتشريعا. فهو يشمل الجانب السيميولوجي للإشارات الهادية كالنجوم والمخلوقات المبثوثة في الكون، كما يشمل الوحي الإلهي الشرعي قرآنًا وسنةً، أي أصول تفسير الخطاب الرباني بمختلف جوانبه عبر قواعد علم الأصول التي تضبط الاجتهاد وتركز المعنى في لفظ عام .

خـــاتمـــــة

خاتمـــــة:

وبعد ما أنهيت دراسة هذا البحث المتواضع، حاولت أن أحصر أهم النتائج المتوصل إليها وأُجمِلها فيما هو آت:

1- الإحاطة والشمول بمختلف المناهج اللغوية ومستويات اللفظ - من المستوى الصوتي الأولي الذي جعل ميدانه القرآن الكريم عبر كتابه (التبيان)، إلى المستوى المعجمي الاشتقاقي في كتاب (التهذيب). إلى التراكيب نحوا وبلاغة ونظما في شرحه لصيح مسلم في توازن وواقعية دون إفراط أو تفريط، وقد تبين لنا أن الإمام النووي قد برع بشكل كبير في استخدام هذين المنهجين الوصفي والتاريخي في التحليل المعجمي، كما تبين لنا أن أثر ذلك راجع إلى علم الحديث الذي رسّخ ملكَتَه في الجرح والتعديل والبحث والتحليل انتهاءً بالمستوى التركيبي الأصولي النحوي البلاغي في شرحه ل(صحيح مسلم) وكتاب المجموع في الفقه-. ورجّحنا في تعليل ذلك أنه يرجع إلى عقليته العلمية الحافظة التي ورثت تراكمات سبعة قرون من الثقافة الإسلامية والمعارف الشرعية في مختلف جوانبها كالتفسير والأصول والفقه والحديث واللغة. وكل ذلك استوعبه - وإن غلب بعضه على بعض في إنتاجه- ولكنه يظهر كما رأينا على مستوى المنهج والتحليل، وفي دائرة المدارسة والتحصيل.

2- تبين لنا من النتائج المستخلصة أن دراساته الدلالية اللغوية للألفاظ تتميز بالواقعية التي جعلته ممارسا مطبقا لا منظرا مؤصلا؛ بمعنى أنه كان يراعي الخطاب الإبلاغي التواصلي بتعبير الأسلوبية الحديثة. وقد عاش رحمه الله في عصر كثرت فيه المؤلفات في مختلف العلوم وازدهرت فيه المدارس ممّا جعله يُدمِن على النظر فيها مما رسخ عقليته في المعالجة والتطبيق لا التنظير والتأصيل، حيث جلس منذ مطلع شبابه متصدرا للمدارسة وإعادة الدروس لصغار الطلبة نهارا، وشرحها وضبطها والاستدراك عليها واستخراج دقائقها ليلا، في مطارحاته الفكرية مع الطلبة، مما رسخ عنده ملكة

التطبيق التي زادها وهجا شخصيتُه كفقيه مجتهد يبحث عن الحكم التكليفي ليطبّقه كعابدٍ زاهدٍ، ويوجه به غيره كمُستَفْتٍ مُسترشِد.

3- كان لعلم الحديث النبوي الذي برع فيه روايةً ودراية أيما براعة، أثرٌ بالغ في دراساته اللغوية التي اصطبغت ملامحها بظِلال علمِ الحديث هيكَلاً ومصطلحاتٍ ومعانِي، وكشاهد على ذلك معالجته في القسم الأول من معجمه (تهذيب الأسماء واللغات)، حيث قدّم الأَعلام على اللغات كما يقدّم المحدثون سلسلة الرواة على المتون عند سرد الأحاديث. وتناول هؤلاء الأعلام أحوالهم جرحًا وتعديلاً قبل أن يعالج ما رووا من ألفاظ يتناول دلالتها بإيجاز، مركزا على الدلالة المحورية اللغوية للفظ مفردًا كان أو في التركيب، والتي تساعد غالبا على ضبط الحكم الشرعي. وخاصية الضبط الحديثية لديه أثّرت حتى على دراسته للبنية الصرفية للألفاظ من خلال مبالغته في الضبط الشكلي للألفاظ لها من أجل توجيه معناها المعجمي بعد ذلك.

4- رغم أنه كان يستنجد بعلماء اللغة المتخصصين المشهورين خارج دائرة الفقه والحديث كالخليل ابن أحمد الفراهيدي، وابن فارس، وابن جني، وغيرهم في تناول الدلالة اللغوية بأسانيدِ روايةٍ موثقة، إلا أنه كان لا يخرج عن الدائرة الفقهية في تخصّصه.

5- وهكذا، نستطيع أن نقول: إنه كان يوجّه خطابه اللغوي للشريحة الاجتماعية المثقفة خاصة، والتي هي الفقهاء والمحدثين، حيث الدائرة التواصلية المغلقة معهم ممكنة وسهلة. فمعظم الألفاظ مُستقاةٌ من كتبِ الفقه الشافعي، والهدف من شرحها- وإن كان له أبعاد تربوية بيداغوجية-هو أنها متعلقة بمساعدة طلبة العلم الصغار على تلقي النصوص بشكل سهل وفهمِ معانيها حتى لا يضِلّوا ويخرجوا عن أصول المذهب وضوابطه أثناء تصدرهم للإفتاء. ولهذا كان يـــميل كثيرا إلى الإيجاز والمختصرات لهم مع ضبط المصطلحات وشرحها سواء تلقوا هذه الألفاظ داخل كتب منسوخة يحذر فيها من الوقوع في التصحيف والإبهام الموغل في الإيهام، أمْ تمّ تلقيها مشافهةً من أفواه مشايخ غير متمكنين ولا مبالين.

6- وقد أظهر البحث أن الإمام النووي كان سبّاقا بجهوده الدلالية اللغوية في أهم مؤلفاته التي عالجناها إلى الإشارة بشيء من التفصيل الدقيق في عديد المرات إلى أصول ومبادئ النظريات الدلالية المعاصرة، وذلك عبر مفهوم المنطوق الذي هو أحد أركان الاجتهاد في المذهب الشافعي، وكذلك عبر مفهوم الاقتضاء والموافقة بقرائنهما في السياق. وإن معالم النظري السياقية وخصائصها لتتضح بجلاء في كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن في تطابق شبه تام أو يفوق، مع النظرية السياقية الحديثة في اللسانيات المعاصرة، وكذاك الأمر بالنسبة للنظرية التصوّرية والسلوكية والإشارية.

7-يدلّ هذا كلّ في الأخير على عمق امتداد التراث العربي الدلالي بجذوره في عصرنا الحاضر، وبالتالي، على أصالته الرائدة منذ سبعة قرون خلت. ولله العلم من قبل ومن بعد والحمد لله على تمامها بتوفيق الله وبركاته.

قائمـــة

المصادر والمراجع

- المصادر الأساسية من مؤلفات الإمام النووي.
- المراجع الأساسية المستعملة في البحـــث.
- المجلات والدوريات والمحاضرات المخطوطة.
- الرسائـــل الجامعية.
- المصادر الأجنبيـــة.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصحف الشريف

- رواية ورش : منشورات وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر1980.

ب- المصادر الأساسية من مؤلفات الإمام النووي

2. الأذكار. الإمام النووي ، دار الفكر ، بيروت ، 2009.
3. الإشارات إلى معاني الأسماء المبهمات للإمام النووي ، طبعة إلكترونية مصورة عن مخطوط .
4. الأصول والضوابط. الإمام النووي ، دار البشائر ، لبنان 1991.
5. بستان العارفين. الإمام النووي. دار الشهاب الجزائر. باتنة،1989،
6. التبيان في أدب حملة القرآن. النووي. تحق:عبد العزيز السيروان. دار النفائس ، بيروت ، لبنان. 2009.
7. تهذيب الأسماء واللغات. الإمام النووي. ج:1. المطبعة المينيرية. القاهرة. د.ت.
8. - دقائق المنهاج. الإمام النووي. دار ابن حزم. تحق: إياد الغوج. بيروت/ المكتبة المكية. مكّة.1996.
9. روضة الطالبين.الإمام النووي باب الأنكحة. مج:4. المكتبة العصرية ، بيروت . 2012.
10. شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي ، مج 04 ، دار الغد الجديد ، القاهرة . 2009 .

ج :المراجع المستعملة في البحث

- حرف الألف:

11. الأبعاد الإبداعية في نظرية النظم عند الجرجاني. محمد عباس. دار الفكر، دمشق، 2001.
12. الأجرومية في النحو بشرح الكفراوي. الجزائر . 1980 .
13. إحصاء العلوم. الفارابي. مركز الإلهاء القومي. ط:1. القاهرة.1991.
14. الاختصار والمختصرات في المذهب المالكي. أبو سليمان عبد الكريم قبولز دار الفجر. الجزائر. 2006.

15. الأدب العربي ونصوصه . عمر توفيق سفر أغا. الدار البيضاء. 1963.
16. إرشاد السالك. شرح ألفية ابن مالك. عبد المجيد الشرنوبي، المكتبة العشرية.صيدا. بيروت ، الجزائر. 2012.
17. الإسلام وحركة التاريخ ، الأستاذ أنور الجندي ، دار الكتاب اللبناني.1980
18. الأشباه والنظائر. الإمام السيوطي. تحق : محمد سعيد السناري . دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، 2012 .
19. إصلاح المنطق. ابن السكيت، شر/تحق: محمد شاكر. عبد السلام هارون. دار المعارف. القاهرة. 1970.
20. أصول التفسير وقواعده ، د محسن عبد الحميد ، ط الدار البيضاء ، المغرب 1980.
21. الأصول. دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. تمام حسان. عالم الكتب. القاهرة.2009.
22. أصول الفقه الإسلامي ، وهبة الزحيلي. ج: 1. دار الفكر. الجزائر، 1986
23. أصول النحو. صلاح بلعيد. دار هومة. ط:2.الجزائر.2008.
24. لإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم. دراسة نظرية تطبيقية. عبد الحميد هنداوي. دار عباد الرحمن. القاهرة.2013.
25. الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري. قاسم عبد القاسم وعلي السيد على. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة.1995.
26. الإمام النووي، شيخ المحدثين والفقهاء. كامل عويضة. سلسلة أعلام الإسلام. دار الكتب العلمية. بيروت.1995 .
27. الألمعية في الدراسات المعجمية، مشري بلا عدة القلعي، دار الوعي للنشر والتوزيع/ مركز الثعالبي للدراسات والنشر، الجزائر. 2005.

- حرف الباء:

28. البحث اللغوي عند العرب. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ط07 . القاهرة. ، 1997.
29. البداية والنهاية . الإمام ابن كثير . ط دار الغد الجديد . القاهرة 2006.

30. البرهان في علوم القرآن. الإمام الزركشي. تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ج :2. دار الكتب العلمية، بيروت.1957.
31. بناء الجملة العربية، د حماسة عبد اللطيف ، دار غريب. القاهرة.2003 .
32. بنية العقل العربي. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، محمد عابد الجابري، ط:9.مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.2009.

- حرف التاء:

1. تاج العروس. محمد مرتضى الزبيدي. مادة: س وق. دار مكتبة الحياة. بيروت. د.ت.
2. تاريخ الفقه الإسلامي، عمر سليمان الأشقر، دار الشهاب.الجزائر،1991.
3. تاريخ الخلفاء ، الإمام السيوطي ، ط:2. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر.2013.
4. تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن الخويلي لخضر ميدني، دار هوما للطباعة والنشر. الجزائر، 2009.
5. تحفة الطالبين في ترجمة شيخنا الإمام النووي محي الدين . الإمام الحافظ السخاوي ، دار الهدى. الجزائر. 1999.
6. تدريب الراوي في شرح تقريب النووي. الإمام السيوطي. دار الغد الجديد. القاهرة. 2014.
7. التركيب المتعدي عند الإمام علي بن أبي طالب في كتابه نهج البلاغة . دليلة مزوز. نوميديا للطباعة والنشر، الجزائر.2015.
8. التفكير اللغوي عند الأصوليين، السيد أحمد عبد الغفار ، دار المعرفة والعلم ، القاهرة. ، ص: 19.

- حرف الجيم:

9. جدلية الفعل القرائي عند علماء التراث. دراسة دلالية حول النص القرآني. أحمد عرابي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2010.
10. الجملة الفعلية : د على أبو المكارم ، مؤسسة المختار ، القاهرة 2000.
11. الجملة الاسمية. د على أبو المكارم ، مؤسسة المختار ، القاهرة. 2000.

- حرف الخاء:

12. الحيوان. الجاحظ. عثمان بن بحر. تح: عبد السلام هارون. ج:1. مطبعة البادي الحلبي. القاهرة. 1938.

- حرف الخاء:

13. الخصائص : ابن جني ، دار الكتب العلمية ، ط 01 ، 2006.
14. خصائص التصور الإسلامي. سيد قطب. دار الشروق. بيروت/ القاهرة. 1992.

- حرف الدال:

15. دراسات في أصول التفسير . محسن عبد الحميد ،. طبعة المطبعة الجديدة . الدار البيضاء. 1990.
16. دراسات في علم الدلالة والمعجم. رجب عبد الجواد إبراهيم. دار غريب. القاهرة. 2001.
17. دراسات في فقه اللغة . د صبحي الصالح ، ط:16.دار العلم للملايين، بيروت.2004.
18. دلالة الألفاظ. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو مصرية ، ط: 5 ، 1984.
19. الدلالة المحورية في معجم مقاييس اللغة. دراسة تحليلية نقدية. عبد الكريم محمد حسن جبل. دار فكر. بيروت.2003.
20. ديوان امرئ القيس. رواية الأصمعي من نسخة الأعلم. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. 1984.

- حرف الراء:

21. الرسالة ، الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية. القاهرة ، 2016.

- حرف الطاء:

22. - طبقات الشافعية. تاج الدين السبكي. المطبعة الحسينية المصرية. القاهرة. د.ت.

- حرف الضاء:

23. الظاهرة الدلالية عند علماء العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري. صلاح الدين رزال. منشورات الاختلاف. الجزائر. 2008.

- حرف السين:

24. سر صناعة الإعراب. ابن جني ، ط دار القلم ، دمشق ، 1993.
25. السلم في المنطق . الإمام الأخضري ، شرح القويسني ، دار الفكر ، لبنان، د.ت.
26. السياق وأثره في المعنى. مهدي إبراهيم الغويل. أكاديمية الفكر الجماهيري. بنغازي. 2011.

- حرف العين:

27. علم الدلالة العربي، أصوله ومباحثه في التراث العربي. عبد الجليل منقور. دار الكتاب الحديث. القاهرة. 2010.
28. علم الدلالة. أحمد مختار عمر. دار عالم الكتب. القاهرة.1998.
29. علم الدلالة العربي بين النظرية والتطبيق د فايز الداية ، د م ج ن الجزائر 1980.
30. علم الاشتقاق نظريا وتطبيقيا . محمد حسن حسن جبل ، مكتبة الآداب ،ط: 2 ، 2009 .
31. علم الصرف العربي. أصول البناء وقوانين التحليل . صبرى متولي ، دار غريب ، القاهرة.2004.

- حرف الفاء:

32. فتح الأقفال في شرح لامية الأفعال. محمد ابن مالك الأندلسي، شر: بُحرق اليمني. دار الأندلس الجديد، 2002.
33. فقه اللغة وخصائص العربية : الأستاذ محمد المبارك ، دار الفكر ، بيروت ، 2002.
34. الفلسفة اللغوية ، جرجي زيدان ، دار الحداثة ، بيروت ، لبنان 1987
35. الفوائد المُفهِمة في شرح الجزرية المقدمة. الشيخ عبد الرازق موسي إبراهيم ، دار ابن حزم ، دار ابن عفان، القاهرة. 2006.

36. في التاريخ الأيوبي والمملوكي. أحمد مختار العبادي، منشورات مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.1992 .
37. في عالم النص والقراء. عبد الجليل مرتاض. ديوان المطبوعات الجامعية. ط:2. 2011.

- حرف القاف:

38. - قواعد المفهوم وأثرها في استنباط أحكام القرآن. عبد الكريم حامدي. دار اليمن للنشر والتوزيع والإعلام. الجزائر. 2002.

- حرف الكاف:

39. الكتاب . سيبويه ، مج: 1. شر- تحق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة، 1977.
40. كبرى اليقينيات الكونية . محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، دمشق ، 1997.
41. كلام العرب. دحسن ظاظا ، دار النهضة العربية. بيروت، 1974.

- حرف اللام:

42. اللسانيات النشأة والتطور : أحمد مومن ، د م ج، 2007.
43. لسان العرب. ابن منظور. دار صادر. بيروت. 1990.
44. لمعة الاعتقاد. ابن قدامة المقدسي. شر: الشيخ محمد صالح العثيمين. دار ابن الجوزي . القاهرة. 2008
45. اللغة العربية في مبناها ومعناها. تمام حسان ، مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.1991.

- حرف الميم:

1. ما وراء اللغة. بحث في الخلفيات المعرفية. المسدي. عبد السلام. مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع. تونس.1994.
2. مباحث في علوم القرآن. صبحي الصالح. ط:13. دار العلم للملايين. بيروت. 1981.
3. المحصول في أصول الفقه . فخر الدين الرازي ،مج 1 ،تحق: طه جابر فياض العلواني. بيروت.1979.

4. مختار الصحاح. أبو بكر الرازي، دار الفكر، بيروت. 2009.
5. المختصر في أصوات اللغة العربية. دراسة نظرية وتطبيقية.ط:5 : د محمد حسن حسن جبل ، مكتبة دار الأدب ، القاهرة. 2008.
6. المدارس المعجمية . دراسة في البنية التركيبية للغة العربية. سلسلة الدراسات اللغوية. عبد القادر عبد الجليل . دار صفاء، عمان . 2014.
7. مدخل إلى علم الدلالة. سالم شاكر. تر: محمد يحياتن. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1992.
8. المدخل إلى المذهب الشافعي. محمد طارق محمد هشام مغربية.. دار النهضة للنشر والتوزيع. المشرق للكتاب. 2006.
9. المدخل لدراسة البلاغة العربية : د خليل أحمد خليل ، ط دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان 1982.
10. المدخل لدراسة التاريخ الإسلامي. عماد الدين خليل، دار النفائس ، بيروت ، لبنان.2005.
11. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. السيوطي. ج: 1 . دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت. 2005.
12. مقاييس اللغة. ابن فارس. دار الحديث. القاهرة. 2008.
13. مقدمة المجموع : الإمام النووي ، شرح الشيخ صالح ابن العثيمين ، دار ابن الجوزي. القاهرة ، 2004.
14. المصباح المنير في شرح الغريب الكبير. أحمد بن علي الفيومي. مكتبة لبنان. بيروت . 1987.
15. مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب . شرف الدين الراجحي ، دار النهضة العربية. بيروت. 1988.
16. ملامح الدلالة الصوتية في المستويات اللسانية : د مكي دراز ، دار أم الكتاب ، الجزائر. 2003.
17. ملكة اللسان. أحمد دراج ، مكتبة الآداب العامة. القاهرة. 2006.
18. المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي. جلال الدين السيوطي. تح: أحمد شفيق دمج. دار ابن حزم. بيروت. 1988.
19. المنهاج في شرح صحيح مسلم ابن الحجاج : الإمام النووي ،ط:1 دار الغد الجديد ، القاهرة.2008.
20. المنهج البنيوي. بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات. زواوي بغورة. دار الهدى. عين مليلة. 2001.

21. المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي : الحافظ السخاوي ، دار الهدي ، الجزائر. 1999

- حرف النون:

22. النص الشرعي وتأويله. الشاطبي أنموذجا. صالح سبوعي ، سلسلة كتاب الأمة. الدوحة. رقم: 117 .
23. نظرية الأصل والظاهر في الفقه الإسلامي. محمد سماعي الجزائري. دار ابن حزم. بيروت.2005.

د- المجلات والدوريات والمحاضرات المخطوطة

24. أثر الرسم الكتابي العربي في الثقافة الإسلامية والحضارة المعاصرة. معتصم زكي السنوي. مجلة أفاق الثقافة والتراث، دبي ، الإمارات العربية.ع: 47 .س: 12 ، 2004 ،
25. أثر الفكر المذهبي في علم الدلالة العربي. بلحسين محمد. مجلة الباحث. ع: 9. كلية اللغات والآداب. جامعة ابن خلدون. تيارت. ع:9. مارس. 2014.
26. - أصول البحث العلمي وآدابه عند الإمام النووي. حسن إبراهيم عبد العالي. مجلة الخليج العربي، المملكة العربية السعودية، ع: 24.
27. حول اللسانيات وعلاقتها بالدلالة والقراءة. عبد الجليل مرتاض. محاضرة مخطوطة ألقيت على طلبة الماجستير. تخصص علم الدلالة. كلية الآداب. جامعة لبن خلدون. تيارت.
28. مأزق السيميائية. قادة عقاق. قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومي والإجرائي. مجلة سمات. جامعة المنامة. البحرين. مج:2.ع: 2. ماي. 2014.
29. مجلة أفاق الثقافة والتراث ، العدد 47 ، سنة 12 ، 2004 ، دبي ، الإمارات العربية المتحدة.

ه - الرسائل الجامعية.

30. التركيب السيميائي في التراث العربي الإسلامي من القرن3ه . فضيلة بورمة. رسالة ماجستير. إش: د. الأخضر الجمعي. كلية الآداب. جامعة الجزائر.1999.
31. الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه. رسالة ماجستير. عبد العزيز قاسم الحداد. جامعة أم القرى. كلية الدعوة وأصول الدين. إشراف: عبد العزيز بن عبد الله الحميدي1409 ه- 1989.

32. حرف النون بين دلالة البنية المعجمية ودلالة المعاني النحوية : رابحي محمد ، رسالة ماجستير. إش:د. أحمد عرابي . كلية الآداب واللغات . جامعة ابن خلدون . تيارت. 2012.

و- المصادر الأجنبية:

33. L'histoire du linguistique de ses origine jusqu'a nos gours Romand. JAKOBSON .édition seuil .Paris .France

34. Cours de linguistique générale FARDINAND DE SAUSSURE édition CASBAH ALGER . 2003.

فهـــارس عـــامـــة

- فهـــرس الآيات الكريمة.
- فهـــرس الأحاديث النبوية.
- مكتبـــة البحث .
- فهـــرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية الواردة في البحث

الآية	السوَرُ وأرقامها	الصفحة
-﴿ ولَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾	{إبراهيم/7}	شكر وتقدير
-﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ﴾	{النساء/82 }	53
-﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِه ولِيَتَذكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾	{ص /29}	53
-﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيل لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِين ﴾	{الحاقة /45 }	57
-﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونْ﴾	{الحجر/ 8}	59
-﴿وَ مَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينْ﴾	{التكوير/29 }	68
- ﴿وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾	{الشورى/30}.	68
-﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ﴾	{الأعراف/146}.	69
- أَفَلاَ يَتَدَبَّرُون القُرآن أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾	{محمد/24}	98-53
-﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُون القُرآن ولَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلافًا كَثِيرًا﴾	{النساء/82}.	98-53
-﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونْ﴾	{ يوسف/2}	98
-﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ(194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين(195)﴾	{لشعراء/195/194/193}	98
-﴿إِنَّ فِي خَلْقِ واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَاب الذينَ يذْكُرُون اللَّهَ قِيَامًا وقُعُودًا وعَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ	{آل عمران/101}	100

هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار﴾		
-﴿وَ أَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ﴾	{الأنبياء/83}	81
-﴿ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾	{فصلت /5}	117
-﴿ فالحَامِلاَتِ وِقْرًا﴾	{الذاريات/2}	117
-﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾	{الفاتحة/ 1}	144
-﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾	{الناس/1}	144
-﴿و هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا	{مريم/ 25 }	165
-﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونْ (56) لاَ أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ولاَ أُرِيدُ أَنْ يُطعِمُونْ (57)﴾	{الذاريات/ 56-57 }	167
-﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾	{النشاء/11}	187
-﴿ هُوَ الذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ.. ﴾	{آل عمران/7}	205
-﴿...وَ الرّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبّنَا ومَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَاب﴾	{آل عمران/7}	205
-﴿ ومَا يَعْلَمُ تَاوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾	{آل عمران/7}	206
-﴿وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وإِنَّ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، ومَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونْ﴾	{ البقرة/ 44}	208
-﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾.	{ القيامة/36}	208

فهرس الأحاديث النبوية الواردة في البحث

الحديث النبوي الشريف	التوثيق	الصفحة
((إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكلّ امرئ ما نوى...))	حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أخرجه البخاري (6/1)، رقم: (1)	صفحة الحديث النبوي
((من لا يشكر الناس لا يشكر الله..))	رواه أحمد والترميذي	شكر وتقدير
- ((حدثنا يحي بن يحي قال قرأت على مالك عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صل الله عليه وسلم أقرأنيها فكدت أن أعجل عليه ثم تمهلته حتى انصرف ثم لبّبته بردائه فجئت به رسول الله صل الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله صل الله عليه وسلم أرسله يقرأ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : هكذا أنزلت " ثم قال لي "إقرأ " فقرأت فقال " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه))	صحيح مسلم :مج 5-6 ،ص.ص: 88-89.	46
-((ما أَذِن الله لِشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن))	شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي. دار الغد الجديد ط: 8 ، مج: 5-6، تحق: محمد بيومي، القاهرة.2008. ، ص 71.	55
-((إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين))	شرح صحيح مسلم مرجع سابق ،رقم الحديث 4455 ،	56
-((كيف أقرأه عليك يا رسول الله ؟، وعليك انزل ؟ ! وفقال عليه الصلاة والسلام إني لا أحب أن أسمعه منك))	شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي. دار الغد الجديد ط: 8 ، مج: 5-6، تحق: محمد بيومي، القاهرة.2008. ، ص 71.	56

في كتابه (التبيان) من حديث أم سلمة رضي الله عنها : ((أن قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مُفسرة حرفا حرفا))	- **التبيان في آداب حملة القرآن ص** 72	62
-((من يُرِدْ الله به خيرا يُصب منه))	- رواه البخاري في صحيحه - تحت رقم 15 /40.	68
-((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)).	حديث متفق عليه..	69
((وروينا في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينما أيوب يغتسل عريانا، إذ خرّ عليه جراد من ذهب..إلى أخر الحديث))	ذكره الإمام النووي في (تهذيب الأسماء واللغات). مج:1. باب: إياس وأيمن وأيوب. ص:130. وأصله في صحيح مسلم	81
- ((وقد روينا عن أبي هارون العبدي قال: كنّا نأتي أبا سعيد الخذري رضي الله عنه فيقول: مرحبا بوصيّة رسول الله'ص' قال: إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا.))	رواه الترمذي وابن ماجة. ينظر: التبيان في أدب حملة القرآن. الإمام النووي. مصدر سابق. ص: 32.	94
-((ليس الشديد بالصُرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب))	رياض الصالحين. الإمام النووي . مرجع سابق. ص:31.	112
((أنه صلى الله عليه وسلم سأله أحدهم يوما: يا رسول الله ما لك أفصحنا و لم تخرج من بين أظهرنا؟!..فأجاب كانت لغة إسماعيل (عليه السلام) قد درست فجاء بها جبريل (عليه السلام) فحفّظنيها فحفظته)).	أخرجه بن عساكر في تاريخه والسيوطي في كتابه المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج: 1	124
-((حدثني أبو طاهر، حدثنا ابن وهب عن يونس (ح)، وحدثني حرملة بن يحيى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب خبرني حميد بت هبد الرحمن بن عوف أن	أخرجه مسلم تحت رقم تخريجه .1647 . صحيح مسلم بشرح النووي.الإمام النووي ج: 11. مج:6.دار الغد الجديد. القاهرة. 2008و ص98. كما أخرجه البخاري	184

أبا هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف منكم فقال في حلفه باللاَّت. فليقل: لا اله إلا الله. ومن قال لصاحبه تعالَ أقامِرْك فليتصدق))	والنسائي.	
-((أن نساء المؤمنات كنّ مع النبي صلى الله عليه وسلم يرجعن متلفعات لا يعرفهن أحد، أو كما قال النبي صل الله عليه وسلم))	صحيح مسلم بشرح النووي. النووي. باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها. رقم الحديث:230-645. ص.ص:125-126	187
-((عن أم عطية نُهينا عن إتباع الجنائز ولا يعزم علينا))	صحيح مسلم،	189

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير

إهـــداء

قائمة الرموز و المختصرات المستعملة في البحث

مقدمة .....ب-ح

الباب الأول

أصول الدلالة عند الإمام النووي من خلال سيرته وملامح الحياة في عصره

- الفصل الأول: الإمام النووي، السيرة العلمية وخصائص العصر..... 03

- المبحث الأول :نظرة إجمالية لحياته الشخصية والعلمية 03

- المبحث الثاني :العوامل المؤثرة في شخصيته..... 08

- المبحث الثالث : خصائص عصره 12

- المطلب الأول: الحياة الاجتماعية في عصر الأمام النووي 13

- المطلب الثاني: الحياة الاقتصادية 14

- المطلب الثالث: الحياة السياسية في عصر الإمام النووي..... 15

- المطلب الرابع: الحياة الثقافية والأدبية والدينية في عصر الإمام النووي 17

- الفصل الثاني: المنابع المعرفية للعالم الدلالي عند الإمام النووي.....20

- المبحث الأول : المنابع المعرفية العامة (الأصول)..... 21

- المبحث الثاني: المنابع المعرفية الخاصة (مصادر الاجتهاد الشرعي) 27

- المبحث الثالث: المنابع المعرفية الخاصة (غير الشرعية)..... 30

- الفصل الثالث: الدلالة الصوتية والصرفية (أصول نظرية ونماذج تطبيقية) 42

- المبحث الأول: الدلالة الصوتية في مستواها الفونيتيكي والأكوستيكي 43

- المطلب الأول : الجانب الفيزيولوجي للصوت وأثره الدلالي..... 44

- المطلب الثاني : الجانب الأكوستيكي (السمع والتلقي) 52

- المبحث الثاني: الدلالة الصوتية في مستواها الفونولوجي الوظيفي 54

- المبحث الثالث: الدلالة الصرفية في أهم مؤلفات الإمام النووي 63

- المطلب الأول: الأصول النظرية للدلالة الصرفية 63
- المطلب الثاني :طرق تناول الدلالة الصرفية الخاصة..... 66
- المطلب الثالث: نماذج تطبيقية في التحليل الصرفي..... 71
- الفصل الرابع: دلالة الألفاظ في ضوء النظريات الدلالية والقرائية الحديثة..... 73
- المبحث الأول: دلالة اللفظ عند النووي بين المنهج والنظرية في الدراسات المعاصرة..... 74
- المطلب الأول: ملامح النظرية الإشارية في التراث الدلالي للإمام النووي 75
- المطلب الثاني: ملامح النظرية التصورية في التراث الدلالي للإمام النووي 78
- المطلب الثالث: ملامح النظرية السلوكية في التراث الدلالي للإمام النووي..... 80
- المطلب الرابع: ملامح النظرية السياقية في التراث الدلالي للإمام النووي 82
- المطلب الخامس: ملامح النظرية التحليلية في التراث الدلالي للإمام النووي..... 90
- المبحث الثاني: الجهود الدلالية عند الإمام النووي في ضوء نظريات القراءة المعاصرة 93
- المطلب الأول: مستوى الأداء القرائي في كتاب (التبيان) 94
- المطلب الثاني: مستوى الحفظ القرائي في كتاب (التبيان) 95
- المطلب الثالث مستوى الفهم القرائي في كتاب (التبيان) 97
- المطلب الرابع: مستوى التذوّق القرائي في كتاب (التبيان)..... 104

البـــاب الثاني:

المستويـــات الدلالية للألفاظ المفردة والمركبـــة

- الفصل الأول: مستويات التحليل الدلالي في بنية اللفظ المفرد 109
- المبحث الأول: الدلالة اللفظية المعجمية بين اللغة والاصطلاح.....110
- المطلب الأول: معنى الكلمة واللفظ والمفردة في اصطلاح الإمام النووي.....110
- المطلب الثاني: الخصائص العامة للدلالة اللفظية.....112
- المبحث الثاني: دلالة الألفاظ على المستوى الاشتقاقي.....115
- المطلب الأول: الدوافع التاريخية للتوجه الاشتقاقي عند الإمام النووي.....115
- المطلب الثاني: الضبط بالشكل والنقط ودوره في توجيه الدلالة الاشتقاقية 118
- المطلب الثالث: نماذج تطبيقية من التحليل الاشتقاقي 122
- المبحث الثالث: الدلالة المعجمية للفظ المفرد.....123
- المطلب الأول: التأليف المعجمي عند الإمام النووي بين النظرية والتطبيق.....123

- المطلب الثاني: مصادر الاستمداد المعجمي عند الإمام النووي.....131
- المطلب الثالث: دلالة اللفظ المفرد بين الأصوليين والمتكلمين.....135
- الفصل الثاني: الخطوات المنهجية لدراسة الألفاظ المفردة 139
- المبحث الأول: المناهج اللغوية المستخدمة في ضبط الدلالة الفقهية.....140
- المبحث الثاني: مصطلح علم الحديث ودوره في ضبط الدلالة الفقهية 144
- المبحث الثالث: تصنيف الألفاظ الفقهية وخصائصها الدلالية.....148
- المبحث الرابع: نماذج تحليلية للدلالات الفقهية في التراكيب 156
- المبحث الخامس: المميزات العامة لمعالجة التراكيب الفقهية.....158
- المبحث السادس: دلالة التراكيب العرفانية الصوفية 163
- الفصل الثالث: دلالة الألفاظ المركبة (النحو والبلاغة) 173
- المبحث الأول: دلالة التركيب بين اللغة والاصطلاح 174
- المبحث الثاني: مصطلحات التراكيب اللفظية بين النحاة واللغويين.....180
- المبحث الثالث: دلالة التراكيب النحوية، تأصيل القواعد ونماذج تطبيقية.....182
- المبحث الرابع: تطبيقات على التراكيب النحوية من كتاب (شرح صحيح مسلم) للنووي 184
- المبحث الخامس: المميزات الدلالية العامة لتحليل التراكيب النحوية 193
- الفصل الرابع: دلالة الألفاظ المركبة (التراكيب البلاغية) 196
- المبحث الأول: المرجعيات الثقافية للدلالات البلاغية عند الإمام النووي 197
- المبحث الثاني: التراكيب البلاغية عند الإمام النووي بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى.....200
- المبحث الثالث: الجهود البلاغية، إطار الاجتهاد والمادة الأولية 207
- فهارس عامة 229
- فهرس الآيات الكريمة الواردة في البحث 230
- فهرس الأحاديث النبوية الواردة في البحث 232
- فهرس الموضوعات.....235

تمّ بحمد الله،
فصلّ اللّهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه..

ملخص محتوى الأطروحـــة:

إن المرجعية الأصلية، التي يقوم عليها العالم الدلالي عند الإمام النووي، هي مرجعية تضرب بجذورها بعيدا في أعماق أصول الشريعة الإسلامية، والتي يطبعها الوحي الإلهي ممثلا في القرآن المتواتر المتلو والسنة الموثقة الصحيحة وما تفرع عن ذلك من علوم تخدمهما نسقا وسياقا وعلى رأسها اللغة العربية وعلوم الحديث النبوي وأصول الفقه الإسلامي.

وضمن هذه الشُعب العلمية الثلاث حاولنا في هذه الرسالة-قدر المستطاع تأطير الجهود الدلالية عند هذا العالم الجليل والتي ساهم بها خدمة للتراث العربي الإسلامي في القرن السابع الهجري منطلقا من مرجع معرفي عقدي؛ وهو الربط بين إرادة الله الكونية قضاءا وقدرا وإرادته التشريعية ممثلة في الوحي الإسلامي كأصل تعبدي لهداية البشرية -وذلك بغربلة وتصنيف دلالات الألفاظ إفرادا وتركيبا- في أهم وأشهر مؤلفاته المطبوعة انطلاقا من المستويين الدلاليين الأوليين الصوتي والمعجمي إفرادا إلى آخر المستويات الدلالية التركيبية نحوا وبلاغة وفقها في نصوصه الذاتية أو المشروحة في متون الأحاديث النبوية.

Résumé de la thèse :

Le monde sémiotique dans les œuvres de l'imam elnnaouaoui ; se base sur une référence épistémologique que tend ces racines au fond des principes de la loi islamique ; qui est caractérisée par la révélation divine qui renferme le saint coran et la sunna de prophète mohamed que « la paix du dieu soit sur lui » .

Les paroles de prophète sont documentés purement, avec le coran, dans leurs contexte historique sincère et sur.

Cette thèse est basée sur les trios sciences naissantes qui représente la ramification culturelle de la chariâa; et qui sont : l'arabe, le Hadith ; et les origines législatives de la loi islamique.

Dans ce triangle sémantique ou Immam elnaouaoui forge ces progrès sémiotiques ; j'ai encadré mes recherche dans un itinéraire contextuelle et structurelle pour étudier les mots individuels hors ses phrases et composes dans ces textes syntaxiques pour dévoiler dans la conclusion les aspects de ces progrès qui sont basée sur le destin divin qui guide avec hégémonie toutes les créatures dans ce monde.